

أسرار التشابه الأسلوبية

في القرآني الكريم

تأليف
الدكتور شلتاغ حيدر



دار المحجة البيضاء

أسرار التشابه الأسبوعي
في القرآن الكريم



حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م



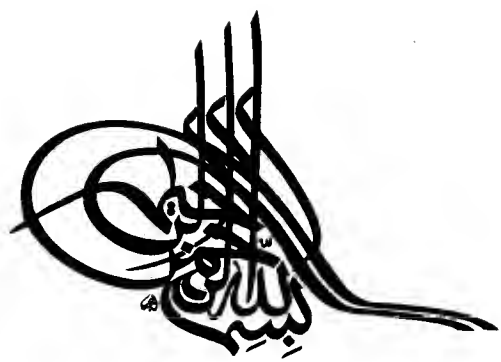
بيروت - لبنان - حارة حريك - ص.ب: ١٤/٥٤٧٩
ت: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٥٢٨٤٧ - فاكس: ٠١/٦٠١٠١٩ - ٠١/٦٠٣٣٧٩

أسرار التشابه الأسلوبية في القرآن الكريم

تأليف
الدكتور شلناغ عابد

دار السور والاحكام

دار المحجة البيضاء



الإهداء

إلى روح والدي...

شجرة من شجر جهنم وتوجيهه وتربيته...

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهَا فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِ

وَيَهَبَ لِي مَعَهُ الرِّضَا وَالرَّحْمَةَ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

ما هو الطابع العام لأسلوب القرآن، هل هو التشابه أو التنوع؟ وإذا كان فيه تشابه، فما هي درجة هذا التشابه؟ أهو تشابه تام، أم تشابه جزئي؟ هذه أسئلة وقف عندها الباحثون في أسلوب القرآن، القدامى منهم والمحدثون، على تفاوتٍ في مناهجهم ومشاربهم وزوايا تناولهم للموضوع.

ولقد وصف الله - سبحانه - كتابه الكريم بقوله :

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ﴾ [الزمر: ٢٣]. فهو متشابه في صحّة معانيه وأحكامه وتناسب ألفاظه وأساليبه وتكرار قصصه وأوامره ونواحيه ووعدته ووعيده، كما قال الزمخشري في تفسيره للآية السابقة.

ومن هنا تناول المفسرون وعلماء الإعجاز والبلاغة والأسلوب هذه الجوانب المتشابهة من حيث المعاني والصياغة، وكانت لهم في هذا المجال مدارس واتجاهات أثمرت ثماراً جنية من الدراسات القرآنية على مدى القرون الطويلة من تاريخ الإسلام. ولكن معظم الدراسات القرآنية التي تناولت متشابهات القرآن كانت تتناولها على طريقة التفسير التجزيئي، بمعنى أنها تتبع المتشابهات حسب تسلسلها في القرآن ابتداءً من سورة الفاتحة حتى سورة الناس، دون أن تجمع المتشابهات التي ينتظمها موضوع واحد فكري أو أسلوبى، مضمونى أو شكلى، وهو ما ستمي في العصر الحديث بالتفسير الموضوعى الذي يتناول موضوعاً واحداً في القرآن ويحشد له النماذج القرآنية كلها دون أن يراعى ترتيبها في القرآن.

وانطلاقاً من هذا المنهج أردنا أن نتناول (المتشابهات) في القرآن، من الناحية الأسلوبية، فأشرنا إلى ما ورد من الجمل الفعلية أو الاسمية، وما ورد من أساليب التقديم والتأخير، والعطف، إضافة إلى موارد التشابه الأخرى في الفواصل والضمائر والصور البيانية.

ومن المعلوم أن هذه الأساليب المتشابهة لا تندرج تحت علم واحد من علوم البلاغة، بل نجد منها ما هو ألصق بعلم المعاني، ومنها ما هو أقرب إلى علم البيان، ومنها ما يندرج تحت موضوعات علم البديع. وقد نجد في الأسلوب الواحد حضوراً لهذه العلوم البلاغية الثلاثة، وتلك سمة خاصة للأسلوب القرآني الذي يتجاوز الحدود والقواعد التي وضعها الدارسون.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الأسلوب القرآني يتشابه حيناً، ويتنوع حيناً آخر، وإذا تشابه فإنه قلماً يتشابه تشابهاً كلياً، فهو أقرب إلى التنوع منه إلى التشابه، أو قل إنه تشابه في إطار التنوع. وهو - بهذا - نمط فريد لا يشبه كلام البشر، وإن صيغ مما صيغ منه كلام البشر من حروف وكلمات..

وسوف يبقى الفكر الإنساني والوجدان الإنساني يتمليان هذا البيان الجميل، ويتباريان في تسجيل خصائصه مضموناً وشكلاً. ونسأله تعالى أن يجعل لنا قدم صدق في هذا الميدان. وأن ينفع بهذا الجهد طلبة العلوم القرآنية، وأتباع القرآن عموماً. اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا، ودليلنا إلى الحياة العزيزة الكريمة، ورائدنا إلى تعبيد الناس لله وحده.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د. شلتاغ عبود

سبها - ليبيا

تمهيد في المصطلح

نريد في هذا التمهيد أن نقف عند مجموعة من المصطلحات التي تتردد في كتابات الباحثين في الأسلوب القرآني، القدامى منهم والمحدثين، في المجال الذي نحن بصددده.

وقبل هذا لا بد من الإشارة إلى أنَّ الأسلوب القرآني نسيج وحده في لغته وبيانه ونوعه الغني. فقد نزل وكان للعرب ضروب من الكلام معروفة منها الشعر والسجع والخطب والرسائل، ومنها المتنثر الذي يدور بين الناس في أحاديثهم، ولكنه جاء بطريقة في الخطاب من كلامهم، ذات طابع خاص متفرد في التناول والأداء والمضمون والأسلوب، وهي طريقة (لها منزلة من الحسن تفوق كل طريقة) كما قال الرماني^(١).

هذه الطريقة في تركيب الكلمات من الحروف، وتركيب الجمل من الكلمات، وتركيب المشاهد من الجمل، أذهلت العرب، وهم أهل اللسن والفصاحة والبيان، وكانوا على أنماط من حيث الاستجابة ورد الفعل. فمنهم من آمن وأذعن لهذا البيان من أول وهلة، ولم يتردد في القول إنه كان من لدن حكيم خبير، ومنهم من تلجلج وتردد وانتهى به هذا التردد إلى الإيمان الخالص، أو إلى الكفر المحض، ومنهم كابر

(١) ينظر، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكوازي، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط ١، ١٤٢٦ من ميلاد الرسول، ص ٢٩٦.

وعائد ووصف هذا البيان بالسحر ووصف الرسول الذي جاء به بالجنون، على صدق منه في الفهم، أو على خبث وسوء طوية، ورغبة في البقاء على دين الآباء والأجداد، وبقاء الحال على حالها في العادات والتقاليد، والمصالح الاقتصادية والمواقع الاجتماعية.

أقول إن هذه الطريقة المتفردة للأسلوب القرآني لا تجعل منه شعراً، ولا أسلوباً وسطاً بلين الشعر والنثر، بل هو نثر بكل ما يعنيه النثر من معنى وخصائص، ولكنه نثر بطريقته الخاصة الذي لم يشبه نثر الجاهليين، ولن يشبه نثر غيرهم من أرباب البيان في كل زمان ومكان.

ودراسة هذه الطريقة الأسلوبية تتعدى إلى خصائص معنوية في القرآن تتصل بمصدره وبأحكامه وتوجيهاته التربوية ومعرفته لمسارب التأثير في النفوس والبلوغ منها مبلغ الاستجابة، وهي خصائص متفردة لا ريب..

ثم إن الطريقة الأسلوبية تدرس من أوجه متعددة، ويوقف معها عند محطات عديدة تتعلق بالكلمة والتركيب ووحدة السورة، أو وحدة الأثر القرآني كله، ولهذا كله مباحثه القديمة والحديثة..

والنظر هنا في مجال ضيق محدد هو طابع القرآن في الفكرة الواحدة في ألوان متعددة، أو تناول ألوان متعددة من المعاني وأساليب الخطاب في حيز محدود من الصفحة الواحدة أو المشهد الواحد، أو تناول التركيب الواحد، أو الآية الواحدة مع شيء من التلوين والتحوير والزيادة أو النقصان..

فماذا نسمي هذا كله؟ وأي مصطلح يضم أطراف هذا التناول، ويليق بالقرآن الكريم؟

في حدود اطلاعي على الدراسات التي بحثت في هذا النوع من التناول الأسلوبية في القرآن، تعرفت على أربعة اصطلاحات متداولة في حدود متفاوتة من الشهرة والاستعمال قديماً وحديثاً، وهي:

١ - التشابه .

٢ - التفنن والتنوع .

٣ - التصريف .

٤ - التكرار والتردد .

وسوف نقف عند هذه المصطلحات من حيث تاريخها ودلالاتها ومدى مناسبتها لوصف الظاهرة القرآنية آنفة الذكر .

أولاً: التشابه:

يبدو أنّ هذا المصطلح قديم جداً، وأول من أَلَف فيه أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي أحد القراء السبعة (ت ١٨٩هـ)، وذلك في كتابه الموسوم بـ(متشابه القرآن)^(١). ثم الخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ)، في كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز)^(٢)، ثم البرهان في توجيه متشابه القرآن لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى (ت ٥٠٥هـ).

وللسخاوي (ت ٦٤٣) منظومة تعرف بـ(السخاوية) عنوانها هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في متشابه الكتاب، ولابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) مؤلف في المتشابه بعنوان (ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي في آي التنزيل)^(٣).

(١) حققه، د. صبيح التميمي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط ١، ١٩٩٤م.

(٢) منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٤، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

(٣) حقق برسالة دكتوراه تقدم بها محمود كامل أحمد إلى كلية عين شمس بالقاهرة، ونشر بتحقيق سيد الفلاح، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٣م.

وللقاضي بدر الدين بن جماعة (ت ٨١٩هـ) كشف المعاني عن متشابه المثنائي، بالإضافة إلى المبحثين اللذين عقدهما الزركشي والسيوطي عن علم المتشابه في كتابيهما (البرهان في علوم القرآن) و(الإتقان في علوم القرآن).

هذا فضلاً عن الأبحاث الحديثة الكثيرة بعنوان (متشابهات القرآن) مع شيء من الخلط بين المتشابه اللفظي المعنوي^(١).

وتلاحظ أن المصطلح مستمد من القرآن. ولذلك تبادرت إليه الأذهان وأُلف فيه الكثير، كما مرّ، منذ مراحل التأليف الأولى في القرآن الكريم. وهو يشير إلى قوله تعالى واصفاً كتابه العزيز:

﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

و(متشابهاً) تشير إلى دلالات مضمونية وأسلوبية في آن واحد. قال الزمخشري في تفسير الكلمة (مطلق في مشابهة بعضه بعضاً، فكان متناولاً لتشابه معانيه في الصحة والإحكام والبناء على الحق، والصدق، ومنفعة الخلق، وتناسب ألفاظه، وتناصفها في التحيز والإصابة، وتجاوب نظمه، وتأليفه في الإعجاز والتبكيث)، وقال في (مثنائي): (بياناً لكونه متشابهاً، لأن القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة، والمثنائي جمع مثنى، بمعنى مردّد ومكرر، لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه، وأوامره ونواحيه ووعدته ووعيده ومواعظه)^(٢).

وواضح أن المصطلح يشمل معاني القرآن المتشابهة في صحتها

(١) ينظر مثلاً، أضواء على متشابهات القرآن، خليل ياسين، دار الهلال، بيروت، ٢٢، ١٩٨٠.

(٢) الكشف، ج ٣، ص ٢٩. (طبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٤٨).

ودقتها ومنفعتهما للناس وصدق مصدرها، فضلاً عن تشابه أسلوبها في إعجازه، مع الإشارة إلى طابع التشابه في الصياغة التي ترد على درجات من التفاوت، فقد يكون التشابه تاماً بين الآيتين أو الأسلوبين، وقد يرد فيه اختلاف جزئي، وكلما زادت الكلمات المتشابهة في الموضوعين أو الآيتين زاد التشابه في المعنى، وربما لا يتشابه المعنى تماماً، وإن تشابهت الكلمات، بناءً على السياق السابق، الذي قد يختلف في موقفه، فتختلف دلالات الآيات المتشابهة التي تلحقه أو تختتم به، كما سنلاحظ في شأن الفاصلة القرآنية، وفي غيرها من مباحث هذا الكتاب.

ولهذا لا نرى غضاظة في استعمال هذا المصطلح الذي تناوله الباحثون قديماً وحديثاً مستهدين بالكلمة القرآنية ودلالاتها^(١). وسوف نحدد الفرق بين هذا المصطلح وغيره من المصطلحات التي تناولت ظاهرة التشابه في القرآن دون أن نلغي أيّاً منها.

ثانياً: التفنن والتنوع:

لم يكن هذا المصطلح من الشيوع والشهرة والدقة بحيث ينافس مصطلح (التشابه) ولا غيره من المصطلحات، ولكنه ورد في سياق حديث العلماء القدامى في وصفهم لظاهرة الاختلاف في درجات التشابه الأسلوبي في القرآن، كما ورد في أبحاث العلماء المعاصرين.

قال الزمخشري بعد ذكره لمصطلح (الالتفات) في البلاغة: (وذلك

(١) مما يؤخذ على هذا المصطلح أنه يلتبس بمصطلح (المحكم والمتشابه) في أحكام القرآن، وقصصه، وتوجيهاته. والحق أن الفرق واضح لدى الدارسين هذا المبحث من مباحث علوم القرآن، وبين التشابه الذي يشير إليه المصطلح الأسلوبي من حيث تشابه المفردات والتراكيب تشابهاً متفاوتاً في الدرجات حيث يقف العلماء والباحثون عند الدواعي المعنوية والنفسية واللفظية لهذا التشابه أو الاختلاف في درجاته.

على عادة افتتانهم في الكلام، وتصرفهم فيه. ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن نظرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد^(١). وذلك في تفسيره لسورة الفاتحة، وتناوله تنوع الضمائر فيها بين الغيبة والخطاب. فهو يشير إلى القدرة والتمكن من فن القول من جهة المتكلم، كما يشير إلى جهة السامع من حيث نظرية نشاطه في سماع الكلام، واستدراار إصغائه إليه.

ولكنّ هناك فرقاً بين هذا التفنن حين يكون من قبيل تنويع الألفاظ، وإخراج الكلام على عدة أساليب، والتنقل من أسلوب إلى آخر، وبين أن يكون وراء كل تغيير في الأسلوب أو تلوين أو زيادة أو حذف أو تقديم أو تأخير فائدة وحكمة^(٢). يقول الخطيب الإسكافي: (إذا أوردَ الحكيم تقدستُ أسماءُه آية في لفظة مخصوصة، ثم أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غيّر فيها لفظة كما كانت عليه في الأولى، فلا بدّ من حكمة هناك تُطلب. فإذا أدركتموها فقد ظفرتُم، وإن لم تدركوها، فليس لأنّه لا حكمة هناك، بل جهلتم)^(٣).

ومن المحدثين من قرر أن التنويع هو الظاهرة الحقيقية في القرآن، وأنه لا تماثل في القرآن إلا في قليل من الآيات لهدف وحكمة، وكنت قد أشرت في بحث لي منشور بعنوان (التنوع في أساليب القرآن

(١) الكشف، ج ١، ص ٥٠.

(٢) يفهم من كلام الزركشي والسيوطي أن إجراء الكلام على هذه الشاكلة من التنويع إنما هو على عادة العرب في بسط كلامها، وإن كان هذا لا يخلو من فائدة وحكمة. ينظر البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، د. ط، د. ت، ج ١، ص ١٢٤. والإتقان للسيوطي، ج ٢، ص ١١٥.

(٣) درة التنزيل، وغرة التأويل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٩٧٩، ص ٢٠.

الكريم)^(١) إلى هذا التنوع في الموضوع القرآني والأسلوب القرآني كذلك، وقلت إنه تنوع في إطار من التشابه في الهدف والتوجيه. ويكاد يكون هذا الفهم مقررًا في كثير من الأبحاث القرآنية، يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (النبا العظيم): (والأعجب أنه مع كونه أكثر افتتاحاً وتنوعاً في الموضوعات، هو أكثره افتتاحاً وتلويناً في الموضوع الواحد. فهو لا يستمر طويلاً على نمط واحد من التعبير، كما أنه لا يستمر طويلاً على هدف واحد من المعاني. ألا تراه يتنقل في السورة الواحدة من معنى إلى معنى ويتنقل في المعنى الواحد بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، واسمية وفعلية، ومُضيّ وحضور واستقبال، وتكلم وغيبة وخطاب، إلى غير ذلك من طرق الأداء، على نحو من السرعة لا عهد لك بمثله، ولا بما يقرب منه في كلام غيره قط)^(٢).

ثالثاً: التصريف:

وهو مصطلح قرآني وردت مادته في كثير من الآيات القرآنية من مثل قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وفي غيرها من الآيات. ولقد أشار العلماء القدامى إلى هذا المصطلح، ولكنهم لم يكرروه أو يتخذوا منه منهجاً. فلقد تحدث كل من الرمانى، والباقلاني والزمخشري وأبو حيان، كما وقف عند تفسير كلمة (التصريف) كثير من المفسرين القدامى والمحدثين، ولكن باحثاً معاصراً

(١) مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ع ١٠، ١٩٩٣، ص ١٠. وينظر كتابنا، الإعجاز القرآني مضموناً وفتناً، دار المعرفة، دمشق، ط ١، ١٩٩٣.

(٢) دار القلم، الكويت، ط ٤، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م، ص ١٤٤، وينظر البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي، دار الزهراء، بيروت، ط ١، ١٩٦٨، ص ٩٢.

هو الدكتور عبد الله النقراط حاول أن يلغي المصطلحات الأخرى ويثبت هذا المصطلح وحده باعتباره مصطلحاً قرآنياً يليق في توجيه الآيات^(١).

والمتأمل في معنى التصريف من خلال الآيات القرآنية التي ورد فيها، ومن خلال كتب التفسير والدراسات القرآنية والمعاجم، أنه يدل على التنوع. قال الدكتور النقراط بعد عرض الآراء جميعها: (نستخلص من التعريفين اللغوي والاصطلاحي أن تصريف الآيات هو تنويعها في المعنى الواحد، أو الموضوع الواحد، وعرضها بصور شتى وأساليب مختلفة)^(٢). بالإضافة إلى الدلالة على البيان، بمعنى: بيّنا الآيات في قوله تعالى:

﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ [الاحقاف: ٢٧]. بل إن السياق الذي ترد فيه المفردة والآية يملي على القارئ دلالتها، ففي قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩]. الذي جاء بعد نفي نسبة البنات من الملائكة لله سبحانه، يكون المعنى، كما يقول الزمخشري: «ولقد صرّفنا القول في هذا المعنى، وأوقعنا فيه التصريف، وجعلناه مكاناً للتكرير»^(٣). لأنه مما كرّر ذكره في آيات أخرى من التنزيل.

(١) وذلك في رسالته للدكتوراه بعنوان (بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم)

نوقشت بجامعة محمد الخامس بالرباط عام ١٩٩٨. ينظر جانب من الرسالة في

بحث (التصريف في الدراسات القرآنية والبلاغية)، مجلة كلية الدعوة الإسلامية،

ع ١٧، ٢٠٠٠، ص ٤٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦٢.

(٣) الكشف، ج ٢، ص ٢٣٤، وانظر ج ٢، ص ٢٤٥ في تفسيره للآية ٨٩، من السورة نفسها.

وبهذا يكون التنويع تفسيراً لمصطلح (التصريف). وإذا كان التنويع يشير إلى معاني القرآن وموضوعاته وأساليبه، فإن التصريف يشير إلى المعاني والأساليب كذلك. وإذا كان ثمة مفاضلة بين المصطلحين، فإنه مما لا شك فيه أن المصطلح القرآني أولى بالاستعمال، وإن كان مصطلح التنويع لا يتدابر والتصريف، بل يفسره ويدور في فلكه. ولكن لنا رأياً فيما يتعلق بدلالة التصريف على ما نحن بصدده من الآيات المتشابهات سنوضحه فيما بعد.

رابعاً: التكرار:

لم يتحرج العلماء والباحثون في الأسلوب القرآني من ذكر كلمة التكرير والترديد ابتداءً من الجاحظ فالباقلاني فالزمخشري، فالزركشي فالسيوطي، بالإضافة إلى عدد غير قليل من الباحثين المعاصرين. ومع أن بعضهم ينفي التكرار في بعض الأحيان، ولكنه يثبت في أحيان أخرى، وهم يترددون في هذا خشية أن ينسب إلى القرآن ما لا يليق به.

ولقد حاول الدكتور النقراط أن ينفي هذا الوصف عن المعاني القرآنية وعن الأسلوب القرآني، وبعد أن يرد على من ذكروا المصطلح في كتاباتهم، يتحدث عن مساوئ التكرار الكثيرة^(١).

والذي أراه أن هذا تحرج لا داعي له، لأن مبدأ التكرار مقرر في الأدب والفنون، وهو مظهر من مظاهر الحياة في تناوب الحركة والسكون، وفي تكرار الشيء على أبعاد متساوية، وفي ترديد لفظ واحد، أو معنى واحد، وله صلة واضحة بالنفس الإنسانية وأدوات مخاطبتها نلاحظه في حياتنا العامة، وفي أحاديثنا التي نوجهها للناس على تفاوت

(١) مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ص ٤٦٤.

أقدارهم، وعلى تفاوت الحاجة إلى الإلحاح أو التوكيد أو الخوف أو الألم^(١)...

وإذا كان للتكرار في الأساليب البشرية عيوب، فلتكن كذلك، ولكن البيان القرآني خلو من هذه العيوب بكل تأكيد، لأنه في الطبقة العليا من البيان، كما قرر العلماء، بل كما أذعن إليه أرباب البيان من العرب حين تلقوه أول مرة.

وإذا نفينا التكرار في القرآن بحجة عيوبه الكثيرة في الأسلوب البشري، فلننفي التشبيه عن القرآن، لأن له عيوبه، وعجزه عن التأثير في بعض الأساليب البشرية، بل لنفي أسلوب التقديم والتقدير والحذف والإطناب وغير هذا من أساليب البلاغة، لأننا نجد الأدباء والمنشئين يُخفقون في عملية توصيل معانيهم إلى المتلقين من خلالها في بعض الأحيان.

ولقد كان علماء البلاغة على صواب حين صنّفوا المبالغة على درجات وأنماط، وأشاروا إلى ما يوجد في القرآن منها، ولكنهم لم ينفوا المبالغة البتة عن القرآن بسبب عيوبها لدى الأدباء شعراء وكتاب.

ولا أعتقد أنّ حسّ الزمخشري الجمالي وفهمه للقرآن ووظائف التعبير فيه وطرائقه على غير صواب حين قال: (وإن قيل: ما فائدة التثنية والتكرير؟ قلت: النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها عوداً من بدء لم يرسخ فيها، ولم يعمل عمله، ومن ثم كانت عادة رسول الله ﷺ أن يكرر عليهم ما كان يعظ به، وينصح ثلاث مرّات وسبعاً ليركزه في قلوبهم، ويغرسه في صدورهم)^(٢).

(١) ينظر، النقد الجمالي، وأثره في النقد العربي، روز غريب، ص ٢٨، عن رسالة الماجستير، لأحمد شيخ علي بعنوان: (النقد الأدبي في كتب التفسير) مخطوطة، جامعة الكوفة، العراق، ١٩٩٨.

(٢) الكشف، ج ٣، ص ٢٩.

وفي عصرنا هذا نجد الدكتورة بنت الشاطيء صاحبة التفسير البياني للقرآن الكريم، تقف عند قوله تعالى:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ [التكاثر]. فتفهم منه أنه خطاب لمن ألهاهم التكاثر، وأن التكرار مبالغة في الزجر، وتأکید للوعيد والنذير، وتذكر أن هذا ما اطمأن إليه الطبري والزمخشري وأبو حيان، ولكنهم يذكرون أقوالاً أخرى في توجيه الخطاب في الآيتين من مثل أن الآية الأولى للكفار فهي وعيد، وأن الثانية للمؤمنين، فهي وعد، أو أن الأولى في القبر، والثانية في البعث. ثم تقول: (وليس النص القرآني في وضوح بيانه بمسؤول عن هذا الخلاف ولا هو بحيث يوجه إلى تفسير الآية الواحدة بالنقيضين، فيستوي خطاب الكفار والمؤمنين، وأسلوب الوعد والوعيد في البيان المعجز^(١)). ثم تشير إلى صدق حس الزمخشري حين قرب المعنى في فهم (ثم) بين الآيتين، وإنها ليست على موضعها الذي للتراضي عند النحاة، وإنما جيء بها مبالغة في الإنذار، كما تقول للمنصوح: أقول لك، ثم أقول لك: لا تفعل هذا^(٢).

وما علينا، بعد هذا أن نقول إن في الأسلوب القرآني وفي مواضع محدودة جداً، تكراراً له هدف وغاية وحكمة. ويكون العيب والنقص في التكرار حين لا يكون ثمة هدف ولا غاية ولا حكمة، بل إن من طوابع إعادة الكلام في القرآن أن يكون له معنى جديد، أو تكون له أسباب

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م، ج١، ص٢٠٢. ولقد أشار علماء الأسلوب القرآني إلى هذه المعاني التي رفضتها بنت الشاطيء، انظر الدرة، للإسكافي، ص٥٣٥، وأسرار التكرار للكرمانى، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار بو سلامة، تونس، ط١، ١٩٨٣، ص٢٢٤.

(٢) ينظر الكشف، ج٣، ص٣٥٦.

مختلفة. ولعله بسبب من هذا نفى بعض العلماء التكرار من الأساس. قال الكرمانى: (إذا أعيد الكلام لأسباب مختلفة، فلا تكرار)^(١).

وخلاصة القول في هذه المصطلحات الأربعة: إنها لا تتدابّر، ولا يلغى بعضها بعضاً، بل يشرح بعضها بعضاً ويبيّنه فالتنوع هو التصريف، والتكرار هو التشابه التام في أجزاء من الكلام، وليس في صدر الكلام وآخره.

وإنه يوجد بين التصريف والتشابه عموم وخصوص، فالتصريف أعم وأشمل من التشابه، إذ هو شامل للمعاني القرآنية وأساليبها. بينما التشابه ينصرف الذهن معه إلى الصور المتقاربة من التعبير، وهذا التقارب يتسع أو يضيق على درجات شتى في القرآن يتسع حتى يكون بين الآيتين شبه تشابه تام، أو تشابه تام، ويضيق حتى لا يكون بين الآيتين إلا نسبة ضئيلة من المفردات أو التراكيب.

ولهذا نرى أن المصطلحين القرآنيين (التصريف والتشابه) هما الأولى بالاستعمال، وأن أحدهما لا يغني عن الآخر، كما أن المصطلحين الآخرين (التنوع والتكرار) يشرح أولهما التصريف وينبه الآخر إلى التشابه التام. وهو جزء محدود من القرآن، مع الإشارة إلى الطابع الخاص له في القرآن مما ذكره العلماء من الحكمة والفائدة، وأنه يأتي بعد سياق متنوع، مما يجعل له وظيفة وهدفاً.

(١) من أسرار التكرار، ص ٥٧.

الفصل الأول

ضوابط فهم التشابه

في أسلوب القرآن الكريم

تمهيد:

تأتي أهمية البحث في التشابه الأسلوبي بين كثير من آيات القرآن الكريم من أنها تبرز هذا التشابه الذي يعد مظهراً من مظاهر الإعجاز في القرآن. ولم يعط البلاغيون هذا الموضوع حقه من البحث. فلم نلاحظ له حيزاً من دراساتهم إلى نهاية القرن الرابع، وكان الفضل في إبرازه والتوفر عليه بالبحث والتدقيق يعود إلى علماء الأسلوب الذين وفقوا أيما توفيق في الكشف عن كثير من هذه الأسرار^(١).

والحق أن بعض القضايا التي يثيرها التشابه بين آيات القرآن من الدقة بحيث يحار فيها الفهم في بعض الأحيان، ولم يقل فيها العلماء كلمتهم الأخيرة، وإن كانت تأويلاتهم الأسلوبية والمعنوية في الغاية من التذوق والفهم. وهذا دليل على التوفيق الإلهي لمن يهب حياته وعلمه لخدمة كتابه العزيز.

إن هذه الكثرة من التشابه بين آيات القرآن التي تفوق الألف آية، وعدم الإجابة الشافية عن بعضها يجعل القول بفكرة التفنن والتوسع في الكلام أمراً مقبولاً، وفي مجال السرد القصصي خاصة. فهذا الزمخشري، على الرغم من عمق فهمه وحسن تأويله لكثير من هذه

(١) الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكواز، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط ١، ١٩٩٧، ص ٣٢٦.

الآيات المتشابهة لا يرى فرقاً بين (انفجرت) و(انبعجت) في آيتي البقرة: ٦٠، والأعراف: ١٦٠، ويقول بأن المعنى واحد، وهو الانفتاح بسعة وكثرة^(١). ويرى بأن التنوع قد لا يؤدي إلى اختلاف المعنى، وهي الفكرة التي وجدت طريقها إلى ما كتبه الزركشي والسيوطي عن التشابه حيث أشار إلى أن ذلك من قبيل تنويع الألفاظ، والتفنن في الفصاحة، وإخراج الكلام على عدة أساليب، والتنقل من أسلوب إلى آخر، كما جرت عادة العرب، وإن كان ذلك لا يخلو من فائدة وحكمة^(٢).

ولكن مبدأ الحكمة والفائدة هذا هو السائد لدى علماء الأسلوب الذين سبقوا الزركشي والسيوطي. يقول الخطيب الإسكافي: (إذا أورد الحكيم تقدست أسماؤه آية في لفظة مخصوصة ثم أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غير فيها لفظة كما كانت عليه في الأولى، فلا بد من حكمة هناك تطلب، فإذا أدركتموها فقد ظفرتهم، وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك، بل جهلتم)^(٣)، وهذا منهج الكرمانلي، وابن الزبير الغرناطي كذلك.

وهذا المبدأ ينسجم مع مبدأ علماء اللغة القدامى والمحدثين، وهو المبدأ القائل بأن زيادة المبنى تؤدي إلى زيادة المعنى، وبالعكس، وأن تغير الأسلوب بالزيادة أو الحذف أو التقديم أو التأخير أو غيرهما من أدوات التنوع في الأسلوب لا بد أن يتبعها تغير في المعنى أو تعميقه، أو إلقاء الضوء على جانب وتكثيف الظل على جانب آخر منه.

وبهذا تتعمق الفكرة القائلة بأنه لا تكرار في القرآن، إذ وراء كل آية

(١) الكشف، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م، ج ٣، ص ٥٨٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ١، ص ١٢٤، والإنتقان في علوم القرآن، للسيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ط، ١٩٧٣، ج ٢، ص ١١٥.

(٣) درة التنزيل، وغرة التأويل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٩٧٩، ص ٢٠.

مشابهة لآية أخرى أو آيات أسرار ونكت يدركها العلماء والمتذوقون لجمال الصياغة القرآنية. وقد ذهبوا إلى القول بأنه حتى الآيات المتشابهة تماماً والمتكررة مرّات عديدة في السورة الواحدة من مثل ﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمن، و﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ في سورة القمر، و﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) في التكاثر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٤) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) في الشرح، وقوله تعالى ﴿فَقَالَ يَتْلُوا آيَاتِ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ على لسان الأنبياء في سورة الأعراف، وهود، وفي غير هذه السور، قالوا: حتى في هذه الآيات لا يوجد تكرار، وإنما وراء كل تعبير متكرر معنى جديد ليس في الآية السابقة. وللعلماء في هذا المجال لفتات رائعة حقاً. قال الكرمانى: (إذا أعيد الكلام لأسباب مختلفة فلا تكرار) (١).

وهكذا تتغلب نظرية الحكمة والفائدة من التشابه بين الآيات على نظرية التفنن والتنوع والتنقل من أسلوب إلى آخر، وهو تغلب له ما يبرره من مقاصد القرآن وأهدافه في التأثير والتبليغ، ومن قوانين اللغة وعلم الأسلوب، وإن كانت فكرة التفنن والتنوع ذاتها لا تخلو من وجه من وجوه الأثر في النفس المتلقية للأدب القرآني.

ولقد سار منهج دراسة الآيات المتشابهة على خمس مراحل:

الأولى: وهي جمع الآيات المتشابهة وعدد المرات التي وردت في القرآن، وهذا ما فعله الكسائي في كتابه أو معجمه القرآني الرائد (متشابه القرآن) (٢)، دون تأويل أو تفسير.

(١) أسرار التكرار في القرآن، دار بوسلامة، تونس، ط ١، ١٩٨٣، ص ٥٧. تحقيق عبد القادر أحمد عطا. وهو كتاب (البرهان في توجيه متشابه القرآن) نفسه.

(٢) منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط ١، ١٩٩٤، تحقيق الدكتور صبيح التميمي.

الثانية: متابعة الآيات المتشابهة في القرآن ابتداءً من سورة الفاتحة حتى سورة الناس، كما فعل الإسكافي والكرماني، تأويلاً وتفسيراً.

الثالثة: الإشارة إلى تشابه الآيات ودلالات هذا التشابه من خلال التفسير الكامل للقرآن، وهذا ما يلاحظ في تفسير الزمخشري والرازي واليسابوري والغرناطي.

الرابعة: الشذرات المتناثرة في كتب البلاغة في أساليب علم المعاني والبديع.

الخامسة: الوقوف عند ظاهرة لغوية أو بلاغية أو نحوية تبرزها الآيات المتشابهة والتعرف على أسرارها. كما فعل الأستاذ سعيد الفاندي في بحثه^(١).

وفي بحثنا هذا لا نريد الوقوف عند نوع معين من مناهج دراسة الآيات المتشابهة، كما مرّ، وإنما نريد أن نرصد الوسائل التي أفاد منها العلماء والأدباء في فهم الآيات المتشابهة وتأويلها، وهي وسائل أشير إلى بعضها في الدراسات السابقة، وإن لم تجمع أو تخصص في بحث واحد، وهذه المحاولة لا تدعي أنها استطاعت أن ترصد هذه الوسائل كلها، وحسبها أن تنبه إليها، وربما يفيد هذا التنبيه إلى استنباط وسائل أو مفاتيح أخرى جديدة.

ولا بد أن نشير ابتداءً إلى أن أعظم وسيلة لفهم الآيات المتشابهة هو السياق العام للآيات ومضمونها العام، وإن مفردات البحث قائمة على هذا المبدأ العام ومستنبطة منه، وقد نبهنا من قبل إلى أن هذا المبدأ كان

(١) (من مظاهر الإعجاز القرآني)، وهو بحث في التقديم والتأخير في الآيات المتشابهة مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ع٩، ١٩٩٢، و(من أسرار الآيات المتشابهات) وهو بحث في الحروف في الآيات المتشابهة، المجلة نفسها، ع١٣، ١٩٩٦.

موضع عناية الأسلوبيين من دارسي القرآن، ولم يكن البلاغيون Lieنوا به إلا في مواضع محدودة باستثناء الإمام عبد القاهر الجرجاني^(١).

ومن هذه المفردات (المفاتيح) ما يلي:

- ١ - التناسب المعنوي.
- ٢ - التناسب اللفظي.
- ٣ - الإيقاع.
- ٤ - نوع المخاطب ومصدر الخطاب.
- ٥ - وحدة السورة ووحدة القصة.
- ٦ - التدرج في الخلق والوجود والزمن.

أولاً: التناسب المعنوي:

وهو أمر مرتبط بالسياق ارتباطاً عضوياً، ويساعد فهمه على فهم التشابه بين الآيتين، ويعني أن هذه الصياغة لهذه الآية تتناسب وتتناسق مع الهدف الذي سيقى من أجله الآية أو المضمون أو المعنى السابق أو اللاحق، وأن الصياغة الأخرى للآية الشبيهة بالأولى كان وراءها هدف آخر أو أن الدلالة المعنوية لسياقها تختلف عن دلالة الآية الأولى. وقد عدّ الباحثون هذا التلاؤم بين المعاني والصياغة القرآنية وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني^(٢)، وسنلاحظ أن هذا التناسب ليس وقفاً على المعاني بل يتعداه إلى الألفاظ والصور والإيقاع.

وباستطاعتنا أن نجد جانباً من العناية بهذا التناسب لدى البلاغيين

(١) ينظر هامش رقم ٨.

(٢) الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ط ١، ١٩٨٠، ص ١٦٤، وما بعدها.

في علم البديع في موضوعات من مثل الاستتباع والاستطراد ومراعاة النظر والتفويت وتشابه الأطراف (ففي هذا النوع من التراكيب اللغوية يلمح القارئ علاقات انسجام وتمائل بين معنى وآخر. فالفكرة تقود إلى أخرى مماثلة لها، أو إلى فكرة تقتضيها على نحو ما يقتضي السبب النتيجة أو العلة المعلول، وعلى نحو ما يقتضي المعنى آخر مجاوراً له أو مرادفاً أو تابعاً^(١). وباستطاعتنا أن نوظف فهم هذه الأساليب من أساليب التعبير في فهم أسرار التشابه بين آيات القرآن، كما سنلاحظ.

ولنضرب أمثلة لهذا التناسب الذي عددناه مفتاحاً من مفاتيح فهم الآيات المتشابهات، وليكن هاتين الآيتين من سورتي الكهف والقصص قال تعالى في الأولى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْخَرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرّاً﴾ [الكهف: ٤٣] وقال في الثانية: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَصْخَرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]. فما من شك في أن هناك تشابهاً بين الآيتين ولكنه ليس تشابهاً تاماً من ناحية الصياغة والأسلوب، والملاحظ أن مظاهر الاختلاف في الواو في الأولى والفاء في الثانية، و(لم) في الأولى و(ما) في الثانية، و(فتنة) في الأولى، و(من فتنة) في الثانية و(منتصراً) في الأولى، و(منتصرين) في الثانية. فما دواعي هذا الاختلاف يا ترى؟ قلنا إننا نجد مفتاحه في تناسب الآية بصياغتها المحددة مع موضوعها، كما نجد تناسب الآية الثانية بصياغتها المختلفة مع موضوعها كذلك.

فموضوع آية الكهف يتعلق بصاحب الجنتين الذي استعلى على صاحبه وهو يحاوره، وقال: (أنا أكثر منك مالاً وولداً)، فقال له

(١) البلاغة العربية، البيان والبديع، د. طالب الزوبعي، ود. ناصر حلاوي، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٩٦، ص ٢١٢.

صاحبه: (أكفرت بالذي خلقتك من تراب ثم سواك رجلاً) وينتهي السياق بقوله تعالى:

﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفْتَهُ عَلَى مَا أَفْتَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] وتأتي الآية بعد هذا مباشرة (ولم تكن...).

والملاحظ أن هذا الرجل على الرغم من كفره واستعلائه ندم على شركه بربه، وإن لم يجد الندم، ولكن الكفر والاستعلاء كانا عند (قارون) أعظم، لأنه لم يبد منه شيء من الندم، ولذلك كانت العقوبة قد حلت ليس به (أشيائه)، جنته أو داره، بل حلت به وبداره معاً، ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَيَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾.

ونتيجة لهذا العتو والاستعلاء والكفر كانت العقوبة أقوى، وكان ذلك يستدعي أدوات لغوية تناسب وتلائم الشدة في العقوبة، (فما كان) أقوى من (ولم تكن) من حيث أداة النفي (ما) والفعل الماضي (كان) الذي يدل على أنه ما كان حقاً له نصير، وزيادة حرف الجر (من) هذه تنفي إطلاقاً أي نصير له من دون الله أيضاً، ومثلها (من المنتصرين) إذ لم يكن من جنس المنتصرين بينما هذه المعاني الزائدة المناسبة لشدة العقوبة لا تتوفر بالدرجة ذاتها في الآية الأولى، والذي وفرها في هذه الآية هو هذه الأدوات الأسلوبية.

وانظر إلى قوله تعالى في سورة المعارج: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج]، تجد الصفة (معلوم) مثبتة، بينما لا يشتمل عليها التعبير في آية الذاريات ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]. ترى فما السر؟ وهل تجد في فكرة التناسب سبيلاً لفهم هذا الإثبات مرة والحذف مرة أخرى؟

يبدو أن صفات المؤمنين التي تتحدث عنها المعارج أنهم يدفعون

الزكاة المقدرة المعلومة، بينما تتحدث آيات الذاريات عن مؤمنين من درجة أعلى، بل إنها تتحدث عن المتقين الذين يقدمون أكثر من الواجب فيدفعون من المال أكثر مما يجب عليهم، إنهم يسلطونه على هلكته، كما جاء في الحديث الشريف^(١)، وإنهم ليصلّون من الليل أكثره ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَأْتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَلَا نَسْأَلُكَ لَهُم بِسَعْفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨].

هذا ما أسعفنا به التناسب بين الآية وما يحذف منها أو ما يزداد على غيرها. وهذا مقياس يعيننا على فهم الحكمة من التغيير في الأسلوب بين الآية وشبيهتها، ويجعل فكرة مجرد التنوع في التعبير والتنقل من معنى إلى آخر أقل وجاهة.

ونتأمل في هاتين الآيتين المتشابهتين:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

فلماذا جاء الفعل (لا تعتدوها) مكان (لا تقربوها)؟ فهل المسألة مسألة ترادف، وأن معنى الفعل هو معنى الفعل الثاني؟

يقول الخطيب الإسكافي مستوحياً قوله من التناسب بين الآية وسياقها: (الأول خرج على أغلظ الوعيد... فلما كانت حالة هذا الموضع الأول نهياً عن مواقعة النساء في حالة الاعتكاف في المساجد، صار فيه تحذير من دواعي المواقع، فافتضى من المبالغة ما لم يقتضيه قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا، فكانه قال

(١) نص الحديث (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها) رواه البخاري ومسلم وأحمد، وابن ماجه.

لا تتجاوزوها، يعني أن المرأة إذا افتدت لمهرها، وخالعت زوجها لم يكن عليها إثم^(١).

وقال السيوطي: (لأن الأولى وردت بعد نواه، فناسب النهي عن قربانها، والثانية بعد أوامر فناسب النهي عن تعديتها وتجاوزها، بأن يوقف عندها)^(٢). وهو معنى أشار إليه الكرمانى بإيجاز^(٣).

وليس غير التناسب بين الآية وما قبلها من سبيل إلى فهم الفرق في التعبير بين الآية الأولى والآية الثانية التي تشبهها.

وتلاحظ أننا لا يهمنا نوع التعبير وتغيره أهو بالحروف أم بالصفات أم بالأفعال، كما مرّ بنا في أمثلة الآيات المتشابهات، ويهمنا هنا أن نشير إلى أن مقياس التناسب هو الوسيلة للفهم. ونعرض لمثال من الأفراد والجمع في الأسماء، وليكن الفرق بين (رسالة) في قوله تعالى في قصة صالح: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ التَّصْحِيحَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وبين (رسالات) في قوله تعالى في قصة شعيب: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٩٣].

ولعل (رسالة) بالأفراد تناسب قصة نبي الله صالح الذي حذر قومه من التعرض للناقة بعد أن أمرهم باتقاء الله وطاعته، وكأن أمر الناقة هذه هو رسالته إلى قومه ليعرف مدى تمسكهم بأمر الله ونهيه، في حين أن سياق قصة شعيب يشير إلى أنه أمرهم بأوامر ونواه كثيرة، فهو نهاهم عن عبادة الأوثان، وقال لهم: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦] يعني أنهم

(١) درة التنزيل، ص ٤٥.

(٢) الإتيان في علوم القرآن، ج ٢، ص ١١٦.

(٣) أسرار التكرار في القرآن، ٤١.

كانوا يتوعدون من يؤمن بالله ويصدونه عن اتباع رسله كما أمرهم بأن يوفوا الكيل... وكان هذه النواهي والأوامر بمثابة الرسالات... فناسب الجمع في قول شعيب، مثلما ناسب الأفراد في قول صالح^(١).

والأمثلة كثيرة جداً، والهدف هو الإشارة إلى هذا المفتاح الهام من التناسب المعنوي. أما التناسب اللفظي فله الفقرة الآتية.

ثانياً: التناسب اللفظي:

حين يكون تناسب معنوي بين الآية وسياقها قد لا يكون تناسب لفظي مما تقتضيه لفظة أو تعبير بالزيادة أو الحذف أو التذكير أو التعريف أو التقديم أو التأخير، أو الإظهار أو الإضمار، أو الأفراد أو الجمع إلى غير هذا من الصياغة اللغوية والاسلوبية، ولكن حين يكون هناك تناسب لفظي بين الآية وسياقها يكون في الوقت نفسه تناسب معنوي وهذا ما لا نلمحه أحياناً، وما لا نستطيع إدراكه إلا بمزيد من التأمل وإعمال الحس النبهي، وهذا ما لا يتوفر إلا لمن حظي بالتوفيق والتسديد. ولهذا ترانا نشير إلى ما يوافق التناسب اللفظي من تناسب معنوي في بعض الأحيان، ونسكت في أحيانٍ أخرى.

ونحن في هذا المجال لا نتحدث عن التناسب بعامة عن اللفظ القرآني أو التعبير أو التصوير أو الإيقاع، بل نحصره في مجال الآيتين المتشابهتين فحسب.

قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) [الانفطار: ١-٥].

قال سبحانه هنا عن البحار إنها (فجرت)، وقال عنها في سورة

(١) درة التنزيل، ص ١٥٨، وأسرار التكرار، ص ٨٤.

التكوير قبلها (سُجِّرَتْ) ﴿وَإِذَا أَلْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير]. فلماذا العدول بالفعل إلى مادة أخرى. مع أن أجواء الآيات في سورتي التكوير والانفطار متشابهة في الظاهر؟.

قيل (فجرت) في آيات الانفطار ليتناسب هذا الفعل مع الأفعال الأخرى. (انفطرت) و(انتشرت) و(بعثرت) وكلها تدل على التغيير والمزايلة والحركة، فهو مشهد تتغير فيه قوانين الأشياء، وتصبح على غير ما عهدت عليه في الحياة الدنيا، فكان مجيء الفعل (فجرت) بهذا المكان أولى وأنسب لأنه يدل على فيضان المياه على وجه الأرض وخروجها عن مقارها. أما الفعل (سجرت) في سورة التكوير، وهو بمعنى أوقدت فصارت ناراً، من قولهم: سجرْتُ التنور، فهو مناسب للفعل (سُجِّرَتْ) في الآية (١٢)، ﴿وَإِذَا أَلْبَحِيرُ سُجِّرَتْ﴾، ليقع الوعيد بتسكير النار وتسجير البحار، كما قال حمزة بن نصر الكرمانى^(١).

فأية عناية هذه بالتناسب بين المشهد وأجزائه، وأقل منه تناسب الرياض بأزهارها وألوانها، والبناء المتناسق بين أجزائه الداخلية وهيكله الخارجي، وأية حكمة هذه التي تغير ما بين آية وآية تشبهها بما يناسب جوّها وهدفها المراد وصوله إلى نفس هذا الكائن التي تهش لجمال التناسق والتناسب بين أطراف الوجود كله، فضلاً عن الكلمة التي تتسلل إلى كيانه فتحدث ما تحدث من اهتزاز واستجابة!!

أنجد هذا في أدب أرضي يعنى بالكلمة والمشهد والجو النفسي هذه العناية، ليس في جزء من آثاره، بل في أثر أدبي متكامل؟! لا نجد منصفاً عالج طبائع اللغات والأساليب، وصلتها بالنفوس البشرية يقول بهذا، حتى انه كان ممن لا يعترف لهذا القرآن بالسماوية!!

(١) الدرة، ص ٥٢٠، وأسرار التكرار، ص ٢١٤.

وانظر إلى الخطيب الإسكافي كيف يجد في التناسب اللفظي سبيلاً لتأويل الاختلاف اليسير بين هاتين الآيتين: قال تعالى:

﴿وَمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. وقال سبحانه:

﴿وَمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

فالفرق واضح، وهو بين (سميع عليم) و(السميع العليم) من حيث التنكير والتعريف. قال عن هكذا مع ترك التوجه إلى الضمير (هو): (إن الأول وقع في فاصلة ما قبلها من الفواصل أفعال جماعة أو أسماء مأخوذة من الأفعال نحو قوله: ﴿تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل]، وبعده يخلقون، وينصرون ويبصرون، والجاهلين، فأخرجت هذه الفاصلة بأقرب ألفاظ الأسماء المؤدية معنى الفعل، أعني النكرة، وكان المعنى استعذ بالله إنه يسمع استعاذتك، ويعلم استخارتك، والتي في سورة فصلت قبلها فواصل يسلك بها طريق الأسماء، وهي ما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٣٤] وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، فقوله: ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ليس من الأسماء التي يُراد بها الأفعال، وكذلك قوله: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [الفصم]، ليس في الحظ معنى فعل، فأخرج ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة] بعد الفواصل التي هي على سنن الأسماء على لفظ يبعد عن اللفظ الذي يؤدي معنى الفعل، فكأنه قال: إنه هو الذي لا يخفى عليه مسموع ولا معلوم، فليس القصد الإخبار عن الفعل، كما كان في الأولى، إنه يسمع الدعاء ويعلم الإخلاص^(١).

(١) الدرة، ص ١٨٢.

وترى معي كيف يتمتع هذا العالم الأديب بحس لغوي عالٍ وظفه في فهم هذا الفرق بين الآيتين. ولو أوكّل الأمر إلينا لما أدركنا هذا. وهذا التناسب الذي وفق الخطيب إلى الإشارة إليه هو تناسب لفظي كما تلاحظ، ويبقى البحث عن صلة هذا بالمعنى، أي التناسب المعنوي الذي يتعاقد والتناسب اللفظي. وهذا يحتاج إلى الاستعانة بالبحث البلاغي للتعرف على الفرق بين دلالات الفعل ودلالات الاسم، وأثر العدول عن كل منهما إلى الآخر على المعنى، وصلة هذا كله بسياق الآيات. ولو توفر اللغوي والبلاغي والعالم بمقاصد القرآن، والعالم بعلوم الحياة على تأمل النص القرآني الواحد، لكان في هذا خير كثير.

وبمثل هذه الاستعانة بالتناسب اللفظي أوّل الكرمانى ورود اللفظة القرآنية اسم فاعل مرة وفعلاً مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى﴾ [الأنعام: ٩٥]. وقوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى﴾ [آل عمران: ٢٧].

فراى أن (مُخرج) وقعت بين أسماء الفاعلين وهما: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ و﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾، بخلاف ما في آل عمران، لأن ما قبله وما بعده أفعال^(١).

وانظر إلى هذا التناسب اللفظي بين ﴿ضَلَّالًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَّالًا﴾ [نوح: ٢٤]، وبين ﴿أَضَلُّوا﴾ وبين ﴿بَارَأَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارَأَ﴾ [نوح: ٢٨]. وبين ﴿دَيَّارًا﴾ في قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْآرِضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. وهذا سبب ختم الآية الأولى بـ ﴿ضَلَّالًا﴾ والثانية بـ ﴿دَيَّارًا﴾ وهو تناسب لفظي ظاهري يعضده التناسب المعنوي لأن الإضلال في الأولى

(١) أسرار التكرار، ص ٧١.

غير الإهلاك والاستئصال في الثانية، أو كأنّ الاضلال في الدنيا، والإهلاك والعذاب في الآخرة عند دخول النار، كما قال الإسكافي^(١).

وهكذا ذكر في كل مكان من الآيتين المتشابهتين من الألفاظ ما اقتضاه معناه. وكان الخطيب الإسكافي في الإشارة إلى مثل هذا التناسب يقول: (فمخالفة كل واحدة من الآيتين للأخرى، إنما هي لموافقة ما قبل كل واحدة منهما من طرح الكلام، وقصد الالتئام)^(٢).

فهذا هو النظم المعجز الذي تتساوق ألفاظه وتراكيبه بما يتضام مع معناه، وينتهي إلى مقصده. وهذا ما وقف عنده كبار البلاغيين بالتأمل والدراسة، والإعجاب. قال الزركشي: (فتأمل هذه المواضع التي هي أعظم اتساقاً من العقود)^(٣).

ثالثاً: الإيقاع:

وهو مبدأ قائم على التناسب والانسجام والالتئام بين أي الذكر الحكيم، بل هو عنصر من عناصر المفردة والجملة والآية القرآنية مستقلة ومتصلة بغيرها من الآيات. وهذا مجال درس في كتب مستقلة وفصول قائمة بذاتها ضمن الدراسات القرآنية للفاصلة القرآنية والإيقاع العام في الأسلوب القرآني. وما نسب العرب القرآن في أول نزوله إلى الشعر إلا لإحساسهم بالتشابه بينه وبين الشعر في هذا الوقع الموسيقي في غير أوزانهم المعهودة، بالإضافة إلى ما فيه من شبه بالشعر في خصائصه الأخرى، وإن لم يكن شعراً، وما ينبغي له^(٤)، بل إن ابن خلدون فهم

(١) الدرة، ص ٥٠١، وأسرار التكرار، ص ٢٠٩.

(٢) الدرة، ص ١٦٧.

(٣) البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٢٣.

(٤) نظريات الشعر عند العرب، د. مصطفى الجوزو، دار الطليعة، بيروت، ط ١،

١٤٠٢ هـ، ١٩٨١ م، ص ٧٩.

من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، إنه (تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، ويشني في غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية)^(١). ومع أن هذه الفاصلة لا تلتزم سجعاً ولا قافية، ولكنها أثر واضح في الإيقاع العام للسورة وللمشهد والآية لا يخطئه الحس الذي مرن على سماع الأدب العالي. (وقد عدت الفواصل في وجوه إعجاز القرآن، لأنها تسهم في حسن إفهام المعاني)^(٢).

وما هذا الحديث الموجز إلا توطئة للحديث عن الفاصلة وإيقاعها في مجال الآيات المتشابهة فقط، على أنه من الضروري الإشارة أن كثيراً من العلماء القدامى والباحثين المحدثين لا يرون في مراعاة الإيقاع أو رؤوس الآيات وحدها سبباً في التغير الذي يلاحظ على الآيتين أو الآيات المتشابهات. قال السيوطي: (لا يمتنع في توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى، مع وجه المناسبة، فإن القرآن العظيم كما جاء في الأثر لا تنقضي عجائبه)^(٣)، ويقول الدكتور بكري شيخ أمين: (إن الفاصلة ترد، وهي تحمل شحنتين في آن واحد: شحنة من الوقع الموسيقي، وشحنة من المعنى المتمم للآية)^(٤). وإن كان ابن الأثير من أشد المتحمسين إلى القول بأن الوقع الموسيقي هو هدف بذاته، وجعل

(١) نفسه، ص ٨٠، عن المقدمة، ص ١٠٠٤.

(٢) الأسلوب في الإعجاز البلاغي، ص ٣٣٩.

(٣) معترك القرآن في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ج ١، ص ٣١. وينظر الأسلوب في الإعجاز البلاغي، ص ٣٢٦، والتفسير البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطيء، دار المعارف، القاهرة، ط ٥، ص ٣٥.

(٤) التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ط ٢، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م، ص ٢٠٣.

من تفهم هذا الوقع في الكلام البليغ دلالة على علو كعب الناقد والمتذوق للأسلوب البياني الرفيع^(١).

ولننظر في هذا التشابه وصلته بالوقع الموسيقي وصلة هذا الوقع بالمعنى نفسه. قال تعالى:

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾
[النساء: ١٤٩]. وقال سبحانه: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٤].

للعلماء حديث عن التغير بين (خيراً) و(شيئاً) في الآيتين، وهذا لا نتوقف عنده الآن، لأنه يتعلق بمجال التناسب المعنوي واللفظي الذي وقفنا عند بعض نماذجه^(٢). ونريد أن نقف عند الفاصلة وصلتها بالمعنى فأنت تلاحظ ورود (عفواً) التي جاءت متساوقة من ناحية الحروف ووقعها في الأذن مع (تعفوا)، وهذا يرتبط بتعميق الإحساس بالمعنى والجو الذي يتحدث عن حرية اختيار العفو في بعض المواقف. وقد أشار دارسو الفاصلة القرآنية إلى شيء من هذا سموه التناسق بحسن التذييل حيناً^(٣)، وبالتوشيح والتصدير حيناً آخر^(٤).

أما في الآية الثانية فقد ورد ما يشبه للآية الأولى من حيث ورود لفظة في عجز الآية ذكرت مادتها في صدرها، وهي كلمة (شيء)، وهذا بالإضافة إلى أن وقعها الموسيقي مرتبط بالمعنى أيضاً، حيث إن الحديث

(١) ينظر، دلالات التراكيب، د. محمد حسنين أبو موسى، منشورات جامعة بنغازي، ط١، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ص٣٣٢، وكذلك، علم البديع د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص١٥٦.

(٢) أسرار التكرار، ص٥٨، والدرة، ص٨٥.

(٣) الاعجاز الفني في القرآن، ص١٨٦.

(٤) التعبير الفني في القرآن، ص٢٠٦.

السابق للآية فيه تحذير من إضمار ما لا يحسن إضماره في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥١]، وقوله : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ..

ونتدرج في توفر الإيقاع وتناسبه مع ما قبله وأثره في النفس، مع توفر الصلة بالمعنى وتناسبه وتلاؤمه معه، نتدرج من الواضح إلى الأقل وضوحاً. ولنستحضر هاتين الآيتين:

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

ولقد وقف العلماء عند (تبع) و(اتبع) في الآيتين، وهو ليس موضوع فقرتنا هذا والتساؤل هو لماذا ختمت الآية الأولى بـ (يحزنون) والثانية بـ (يشقى)؟ والإجابة التي نتوقعها من العلماء هي مناسبة رؤوس الآي، لأن آيات البقرة القريبة من هذه الآية تنتهي بالنون، بينما تنتهي آيات (طه) كلها بحرف مد كالألف والواو والياء، وبالألف المقصورة هي الآيات السابقة لهذه الآية على الخصوص. وهذا أمر متحقق، ويبقى البحث عن صلة رأس الآية بالمعنى. والملاحظ بالنظر إلى ما يحيط بالآيتين أن الآية الثانية محاطة بآيات فيها حديث مفصل وشديد عن العذاب والشقاء الذي ينتظر المكذبين والذين لا يتبعون هدى الله، ولذلك ناسبه نفي الشقاء (ولا يشقى) عن المؤمن المتبع هدى الله. أما آية البقرة، فلم تعقبها إلا آية واحدة تتحدث عن عذاب المكذبين، فلم تستدع نفي الشقاء والعذاب الشديد عن المؤمنين، بل نفت عنهم الخوف والحزن. والله أعلم.

ونتدرج إلى ما لا نستطيع التعرف على الحكمة المعنوية من تغير رؤوس الآي، سوى مناسبتها لما قبلها، وسوى أثرها النفسي لدى المتلقي. ولنقف عند هاتين الآيتين:

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُوا يَكُونُ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ تَكُونُ نَحْنُ الْمَلْفَيْنِ﴾ [الأعراف: ١١٥].

وقال سبحانه في سورة طه: ﴿قَالُوا يَكُونُ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥].

فقد ناسب رأس الآية ما قبله في كل من الآيتين، وهذا ما أشار إليه العلماء ولكنهم أحجموا عن ذكر الحكمة المعنوية، أو صلة تغير رأس الآية بالسياق المعنوي أو اللفظي. بل إن الخطيب يقول إن المعنى واحد، والتغيير سببه مناسبة رؤوس الآي لما قبلها. وهو أمر روعي كذلك في الآيتين الأخريين: ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١]، و﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، بل المراعاة تبدو واضحة جداً في ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ و﴿فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ في آيتي الأحزاب: ٦٦، ٦٧، لتناسبا ما قبلهما وما بعدهما نحو: تقتيلاً وتبديلاً وقريباً وسعيراً وبصيراً، مع أن زيادة الألف في الرسول والسبيل غير ملزمة^(١).

ومن هنا يبدو أن لرأي ابن الأثير جانباً من الوجاهة، وهو أن مراعاة الوقع الموسيقي وأثره النفسي وحسن اتساقه مع الكلام البليغ، بحيث إننا لو غيرنا التعبير بما لا يتسق مع الجانب الموسيقي وما يناسب رؤوس الآي، لذهبت من الكلام حلاوته^(٢). وتبقى هذه الوجاهة لرأي ابن الأثير

(١) الدرر، ص ١٧٣.

(٢) ينظر هامش ١، ص ٣٦.

حتى يتوفر العلماء والأدباء على البحث عن صلة رأس الآي بالمعنى مع وظيفته الموسيقية في كل آية، وخاصة بين الآيات المتشابهة. والحق أنهم أجابوا عن كثير من هذه الآيات ووفقوا أيما توفيق، ولكن بعض الآيات ما زالت بغير إجابة. على أنه ما من أحد يقول بأن المعاني تابعة لرأس الآية في القرآن الكريم، على خلاف من بعض النماذج البشرية، التي تكون المعاني فيها تابعة للأسجاع أحياناً.

رابعاً: نوع المخاطب ومصدر الخطاب:

وهذا يرتبط بما يطلق عليه مراعاة مقتضى الحال الذي يقوم عليه علم المعاني من البلاغة، فلكل مخاطب نوع من الكلام يناسبه، ويناسب أحواله، فلاهل العلم خطاب، ولأهل الجهل خطاب آخر، وللأمير كلام، وللسوقي كلام آخر يناسب اهتمامه وطبيعة تفكيره... وهكذا... ولهذا نرى القرآن الكريم يخاطب أهل مكة بغير ما يخاطب به أهل المدينة، ويخاطب الكافرين بلغة والمنافقين بلغة أخرى، كما يخاطب النصارى واليهود بنبرة تختلف عن نبرة الخطاب للمؤمنين. وهذا ما نستفيد منه في هذه الفقرة من النظر في الآيات المتشابهات.

قال تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [التوبة: ٩٤]. وقال: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]. فلماذا اختلف التعبير بزيادة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ في الآية الثانية؟

قال الخطيب: (إن المخاطبين في الآية الأولى هم المنافقون، والمخاطبون في الثانية هم المؤمنون، لأنه قال في الأولى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ﴾، والثانية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ

إِنَّ صَلَوتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ^(١). فالله سبحانه - في الآية الأولى - يرى عمل المنافقين ويُري رسوله ذلك، وأما في الثانية فالله ورسوله والمؤمنون يرون صدقات المؤمنين، وهي مما ترى بالعين، خلاف أعمال المنافقين المضمرة. ومن الملاحظ أن مفتاح نوع المخاطب هذا ليس بعيداً عن فكرة التناسب والسياق التي تأملنا أجواءها في الأمثلة السابقة.

ولنشهد نوعاً آخر من المخاطبيين حيث يساعدنا على فهم التشابه بين الآيات في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

يقول العلماء الذين عنوا بموضوع الآيات المتشابهة إن الآية الأولى ختمت بقوله تعالى: ﴿فَقَدْ افْتَرَىٰ﴾، وختمت الثانية بـ ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ لأن الأولى أنزلت في اليهود الذين افتروا على الله الكذب، فكان ضلالهم أشد من الكفار الذين لم يكن لهم كتاب. فالافتراء أولى باليهود والضلال أنسب للكفار^(٢).

وقد يساعد في هذا المجال معرفة أسباب نزول الآية أو الآيتين المتشابهتين، لأنها ستحدد الأشخاص أو الجماعات الموجه إليها الخطاب الإلهي، مع ضرورة التأكيد على فكرة أن القرآن يرمي إلى عموم المعنى وتوجيهه إلى الإنسان في كل زمان ومكان، وإن كان النزول في حادثة أو شخص معين. وهذا هو معنى القول بأن العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب.

(١) الدرة، ص ٢٠٢.

(٢) أسرار التكرار، ص ٥٥، مع هامش المحقق.

أما التغير الذي نلاحظه في هذين التركيبين القرآنيين: ﴿وَلَا تَقْنُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمْلَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

﴿وَلَا تَقْنُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً أَمْلَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

فما العلة في تقديم ضمير المخاطب في ﴿نَرْزُقُكُمْ﴾ في الأولى، وتأخيره في الآية الثانية؟

الإجابة نجدها إذا عرفنا أن الخطاب في الأولى للفقراء، وفي الثانية للأغنياء، لأن الإملاق واقع بهم الآن، فالتفكير منصب على رزقهم في حين أن الآية الثانية تشير إلى فقر متوقع، حيث إن رزق هؤلاء الأولاد القادمين سيكون مكفولاً من عند الله^(١).

وقد يكون مصدر الخطاب أو المتكلم بالاضافة إلى المخاطب وسيلة لفهم التشابه في بعض الآيات، كالفرق بين ﴿يَذِّبُونَ﴾ بالتشديد و﴿يَذْهَبُونَ﴾ بالتشديد وبالواو، في آيتي البقرة: ٤٩، وإبراهيم: ٦، إذ الأولى من الله تعالى فلم يعدد عليهم المحن تكريماً في الخطاب، والثانية في كلام موسى، فعدها^(٢).

وهكذا، فإن معرفة وجهة الخطاب ومصدره تساعدنا على تأويل التشابه الذي يكثر بين الآيات في القرآن الكريم، فقد يكون في إحدى الآيتين المتشابهتين إيجاز وفي الأخرى إطناب، وهذا يكون في مجال الحذف والذكر والزيادة، وذلك بناءً على طبيعة المخاطب ومقتضى حاله، أو مصدر الخطاب الذي يكون من كلام الله، أو من كلامه تعالى على لسان نبي أو بشر من المؤمنين أو المعاندين.

(١) نفسه، ص ٧٥، والدرة، ص ١٣٥، والإتقان، ج ٢، ص ١١٦.

(٢) نفسه، ص ٢٧، والإتقان، ج ٢، ص ١١٥.

خامساً: وحدة السورة ووحدة القصة:

من المبادئ التي تقررها الدراسات القرآنية أن هناك ترتيباً للقرآن حسب نزوله، وترتيباً آخر كما هو معلوم في المصحف المتداول بين المسلمين، وأن لكل من هذين الترتيبين حكمته الإلهية، وأن ترتيب المصحف إنما هو ترتيب توقيفي بناءً على توجيه النبي ﷺ^(١).

ويتبع هذا ترتيب الآيات والعلاقات الموضوعية بين الآيات، وبين السور في كثير من الأحيان، وبناءً على هذا فإن لكل سورة هيكلًا عامًا، تنتظمه بداية تمهيدية وخاتمة مركزة على محتوى السورة^(٢). وسوف يفيدنا هذا الفهم على تأويل الآيات المتشابهة، فالتركيب الذي يرد آخر السورة ربما يفسره أولها، والطابع العام للسورة يعدُّ كلاً يفسر أجزاء السورة. وقد تكون الوحدة الموضوعية للقصة أحسن إطار لتفسير التشابه القائم بين بعض آياتها، كما سنلاحظ.

فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمُ﴾ [الأنعام: ٥]، وقوله سبحانه في الشعراء: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ [الشعراء: ٦]. بحذف ﴿بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾، لأن سورة الأنعام متقدمة في المصحف على سورة الشعراء، وتقييده في الأولى يغني عن ذكره في الثانية^(٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ [هود: ٨١]. وفي الحجر: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ [الحجر: ٦٥]، بدون الاستثناء ﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾. فالاستثناء الذي لم

(١) ينظر أسرار ترتيب القرآن للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار بوسلامة، تونس، ط ١، ١٩٨٥، ص ٣٣ (من دراسة المحقق).

(٢) التعبير الفني في القرآن، ص ٢١٣.

(٣) الدرر، ص ١٠٧.

يقع مثله في سورة هود أغنى عن الاستثناء في سورة الحجر، كما قال الخطيب^(١).

وإذا كان للسورة وحدتها، فإن هذه الوحدة أكثر تماسكاً في القصة سواء أكانت تشتمل على السورة كلها، كما في سورة يوسف، أو تشتمل على جزء منها، كما هو الحال في السور الأخرى. ففي سورة هود مثلاً ترد قصة صالح، وقصة شعيب عليه السلام. وجاء التعبير القرآني في الأولى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٦٧]، بتذكير الفعل، وفي الثانية: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٩٤] بتأنيث الفعل. لأن في قصة شعيب ذكرت ﴿الرَّجْفَةَ﴾ و﴿الْظَّلَّةَ﴾ و﴿الصَّيْحَةَ﴾ فازداد التأنيث حسناً، كما قال الخطيب^(٢)، ومعلوم أن تذكير الفعل وتأنيثه في هذين التركيبين جائز، ولكن وحدة القصة مع النبي شعيب ناسبت أن يأتي التعبير بالتأنيث، دون مناسبته مع قصة صالح.

وتتجلى وحدة القصة في قصة سيدنا موسى على الرغم من توزعها على سور كثيرة من القرآن، فهي ترد موجزة مرة، ومفصلة مرة أخرى. ولكل موضع خصائصه وطوايعه مما يساعد على تنوع التعبير في الآيات المتشابهة. فسورة الشعراء أكثر اختصاراً - بتعبير الخطيب - لشأن موسى مع بني إسرائيل ومع فرعون وملئه، وهذا ما سيكون مفتاحاً لنا في فهم الزيادة ﴿لَا ضَيْرٌ﴾ في سورة الشعراء في قوله تعالى على لسان السحرة: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرٌ لَّنَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]. أما في سورة الأعراف فالآية: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥]، بحذف ﴿لَا ضَيْرٌ﴾،

(١) نفسه، ص ٢٢٦.

(٢) نفسه، ص ٢٢٤، ولكن الكرمانى قال: إن التأنيث في قصة (شعيب) وافق ما بعده، وهو (كما بعدت ثمود)، ص ١٠٩. وينظر بحث الأستاذ سعيد الفاندي مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ع ١٣، ص ٢٦٨.

فناسبت الزيادة جو القصة التفصيلي في سورة الشعراء، وكان التعبير الموجز في الأعراف فيه كفاية وإبانة عن المعنى^(١).

وبالأمر نفسه يفسر اختلاف التركيب بين ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣] و﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩]، و﴿ثُمَّ لَأُصَلِّتَنَّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٤] و﴿وَلَأُصَلِّتَنَّكُمْ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩]. حيث كان الاختصاص الأكثر والبسط الأوسط. كما قال الخطيب. في الشعراء يناسب تركيبه الخاص، مثلما يناسب الإيجاز تركيبه الخاص، حسب جو القصة ووحدتها الموضوعية^(٢).

وهكذا كان واضحاً كيف يستعان بوحدة السورة وطابع القصة على فهم التشابه بين الآيتين أو الآيات.

سادساً: التدرج في الخلق والوجود والزمن:

هذا مفتاح آخر في محاولة البحث عن أدوات الباحث في الآيات المتشابهة أو وسائله وفهمها وتأويلها، وقد أثبتته العلماء القدامى والمحدثون في أبحاثهم القيمة، ولكنهم لم يفرّدوا حيزاً مستقلاً إلا في مجال التقديم والتأخير خاصة، وهو ليس وقفاً عليه، بل يتعداه إلى صور التشابه الكثيرة، فهو في مجال أنواع الأفعال وأزمنتها، وفي التعريف والتنكير، وغيرهما.

فحين نبحت عن العلة في تغيير نوع الفعل بين ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ و﴿يَعْقِلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣] و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، لا نجد المفتاح في الإيقاع لأن الفاصلتين تنتهيان بالنون معاً، كما أن العلماء لم يسيروا إلى

(١) نفسه، ص ١٨٠.

(٢) نفسه، ص ١٧٩.

شيء من التناسب المعنوي أو اللفظي في تفسير هذا الاختلاف، بل أشاروا إلى التدرج في طبيعة معنى الفعلين. قال الخطيب: (إن التفكير هو المؤدي إلى معرفة الشيء والعلم بالآيات التي تدل على توحيد الله تعالى، وهو قبل، فإذا استعمل على وجهه عقل ما جعلت هذه الأشياء أمانة له ودلالة عليه. فبدأ في الأول بما يحتاج إليه أولاً من التفكير والتدبر المفضيين بصاحبهما إلى إدراك المطلوب، وخص الآخر بما يستقر عليه آخر التفكير من إدراك سكون النفس إلى عرفان ما دلت الآيات عليه^(١)).

ويبدو التدرج في الوجود واضحاً في هذا التشابه بين قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، وبين قوله في سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، واختلافهما من حيث التأكيد والتعريف. قال النيسابوري: (لأن هذا الدعاء صدر منه قبل جعل المكان بلداً فكأنه قال: واجعل هذا الوادي بلداً آمناً، وذاك الدعاء صدر، وقد جعل بلداً، فكأنه قال اجعل هذا المكان الذي صيرته بلداً ذا أمن)^(٢).

ولهم في مجال التقديم والتأخير تخريجات منطقية قائمة على أساس التدرج في الرتبة أو الخلق أو الزمن. فتقديم النصارى على الصابئين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٢] وتأخيرهم في قوله: ﴿وَالصَّابِئِينَ وَالصَّابِئِينَ﴾ [الحج: ١٧]، (لأن النصارى مقدمون على الصابئين في الرتبة، لأنهم أهل كتاب،

(١) نفسه، ص ٢٤٩.

(٢) غرائب القرآن، ورغائب الفرقان، على هامش تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، د. ط، ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨ م، ج ١، ص ٣٩٧. وأسرار التكرار، ص ٣٥، والدرة، ص ٢٩.

فقدمهم في البقرة، والصابئون مقدمون على النصارى في الزمان، لأنهم كانوا قبلهم، فقدمهم في الحج^(١).

أما تقديم الجن على الإنس في قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فلأن خلق الجن كان قبل الإنس، أما تأخير الجن وتقديم الإنس في آية أخرى (الإسراء: ٨٨)، فلأن التحدي وقع على الإنس، بل إن تقديم الجن - بمثل ما قدموا في الذاريات - في سورة الأنعام ١٣٠، كان لأن التحدي فيها وقع على الجن، ومثلها في سورة الرحمن: ٣٣.

ولهم مبحث طريف في تقديم اللهو على اللعب مرة، وتقديم اللعب على اللهو مرة أخرى، وفي صور متعددة في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]. و﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١]. قال الزركشي: (وإنما قدم اللعب في الأكثر لأن اللعب زمان الصبا، واللهو زمان الشباب، وزمان الصبا متقدم على زمان اللهو... . وقدم اللهو في الأعراف، لأن ذلك يوم القيامة، فذكر على ترتيب ما انقضى، وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالين)^(٢). وقد يرد ذكر اللهو واللعب بتقدم أحدهما على الآخر، والعكس دون أن يراد منه المعنيان السابقان، بل يُراد منه الإشارة إلى زمان الدنيا، وأنه سريع الانقضاء، قليل البقاء، كما في العنكبوت: ٦٤.

خاتمة:

هذه هي المفاتيح الكبرى التي يُستهدى بها إلى التعرف على مداليل الآيات المتشابهة، رصدنا اعتماد العلماء عليها، وهم يتعمقون في البحث عن أسرار كتاب الله وكنوزه.

(١) البرهان، ج ١، ص ١٢١، والدرة ١٢٠.

(٢) أسرار التكرار، ص ٦٥، وبإيضاح المحقق، ص ٢٤٨.

علماً بأن هناك مفاتيح أخرى ربما كان العلماء أقلّ تعديلاً عليها، من مثل حالات العموم والخصوص والأصل والفرع، أو تعدد صفات الأشياء ذاتها مما يكون لها تعبيران مناسبان أو أكثر، بل إن الباري سبحانه قد يقرر حكماً يناسب حقيقة من حقائق الحياة والوجود، وحكماً آخر يناسب حقيقة أخرى، فيأتي لكل بما يناسبه، وقد يوجهنا توجيهاً تربوياً، فينوع بالتركيب على ضوء الهدف من ذلك التوجيه، كأن يقول لنا سبحانه: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [النحل: ٣٦]، ليوجهنا إلى النظر المباشر إلى آثار السابقين والاعتبار بما حل بهم، ويقول قولاً آخر من مثل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا﴾ [الأنعام: ١١]، ليوجهنا إلى النظر المتأمل، والبحث الناقد الذي يستقرئ السنن الاجتماعية في الحياة البشرية. وهذا هو الفرق ما بين (الفاء) و(ثم) من حروف العطف، في الأسلوب العربي^(١). ويوجهنا في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الذين هم في صلاتهم خاشعون] [المؤمنون: ١-٢]، إلى الخشوع في الصلاة ذاتها وأدائها أحسن أداء، فجاء بها مفردة ﴿صَلَاتِهِمْ﴾، أما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ يَخَافُونَ﴾ [المؤمنون: ٩]. بالجمع، (لتفاد المحافظة على أعدادها، وهي الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة، وصلاة الجمعة والعيدين والجنائز والاستسقاء) كما أولها الزمخشري بتأمله الموفق.

ومثل هذه التأويلات للآيات المتشابهة لا تعتمد على المفاتيح الستة التي أشرنا إليها سابقاً، بل تعتمد على مقاييس أخرى من الفهم المحيط بتعاليم الإسلام، وبقوانين الحياة. وخصائص الأشياء، يعضد ذلك ذوق راقٍ بأسرار اللغة العربية وخصائصها.

(١) الكشف، ج ٣، ص ١٤٠.

وقد يلتفت الباحثون في سفر الله الخالد إلى قوانين أخرى في مجال فهم الآيات المتشابهات، ولقد قيل بأن خير مفسر للقرآن هو الدهر بما تستحدث فيه من علوم، وبما تستنفر فيه من همم المخلصين الراغبين في ثواب الله وأجره.

الفصل الثاني التشابه في الأفعال

ميادين التشابه في الأسلوب القرآني كثيرة، فهي تكون في الكلمات المفردة، وفي الجمل الاسمية والفعلية، وفي العطف والحذف والذكر والتقديم والتأخير، والاسم النكرة والمعرفة، وفي الفاصلة القرآنية، وفي الحروف وفي القصة وفي غير هذا من المواضع.

وستكون وقفنا هنا في ميدان (الفعل) من حيث التناوب في الأسلوب القرآني بينه وبين الاسم، ومن حيث الترادف أو التنوع بين الأفعال ذات الدلالات المختلفة قليلاً أو كثيراً على ما سوف نقرره من آراء في موضوع الترادف، ومن حيث زمن الفعل وتنوع صيغه في المادة الواحدة. وهذا كله سيكون في إطار الآيات المتشابهة في موضوعها وأسلوبها. وليس في مجال ورود الفعل في القرآن بشكل عام، فهذا بحث واسع ويحتاج إلى منهج آخر وجهد كبير.

ومن الحق القول بأن أية قضية من هذه القضايا سيكون لدراستها في إطار التشابه دلالات ومقاصد بلاغية ربما لا تكون هي ذاتها فيما لو درست مستقلة عن هذا التشابه، كما لو درسنا الفعل وحده في القرآن، أو النكرة والمعرفة، أو الحروف، أو غيرها خارج إطار التشابه الأسلوبي.

أولاً: بين الفعل والاسم:

يقرر علماء الأسلوب العربي أن الاسم يفيد الثبوت والفعل يفيد التجدد والحدوث، (وسر ذلك أن الفعل مقيد بالزمن. فالفعل الماضي

مقيد بالزمن الماضي، والمضارع مقيد بزمن الحال والاستقبال في الغالب، في حين أن الاسم غير مقيد بزمن من الأزمنة، فهو أشمل وأعم وأثبت^(١).

وبمعنى آخر فإن (الاسم له دلالة على الحقيقة دون زمانها، فإذا قلت (زيد منطلق) لم يفد إلا إسناد الانطلاق إلى زيد. وأما الفعل فله دلالة على الحقيقة وزمانها). كما يقول الفخر الرازي^(٢).

هذا في أصل الوضع، أما حين يكتنف السياق أو الجملة قرائن أخرى، فقد تخرج الاسم أو الفعل عن دلالتهم الأصلية. ولقد نعلم مدى حساسية الصياغة العربية وتغير دلالتها بتغير علاقاتها وترتيبها. فنحن إذا عبرنا بالجملة الفعلية وقلنا: أذهبت أنت، كان الشك في الفعل، وإذا قدمنا الاسم وقلنا: أنت ذهبت، كان الشك في الاسم، وهكذا^(٣).

ويشير ابن الأثير إلى أن العدول من الجملة الفعلية أو الاسمية أو العكس، إنما يتم لضرب من التأكيد والمبالغة. فقولنا: (قام زيد) معناه الإخبار عن زيد بالقيام، وقولنا: (إن زيدا قائم)، معناه الإخبار عن زيد بالقيام أيضاً، إلا أن في الثاني زيادة ليست في الأول، وهي الإثبات والتأكيد^(٤).

وفي الأمثلة القرآنية متسع لتأكيد هذه الفكرة، كمثّل قوله تعالى:

(١) معاني الأبنية في العربية، د.فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد؛ ط١، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ص١١.

(٢) نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، ص٤٠، ٤١، عن المصدر السابق ص١١.

(٣) في الأسلوب الأدبي، د.علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٩٥، ص٢٠.

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نهضة مصر، د.ت، القسم الثاني، ص١٩١.

﴿وَإِذَا لَعُزُّوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾
 [البقرة: ١٤]. فإنهم خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، وخاطبوا شياطينهم
 بالجملة الاسمية لما في الخطاب الثاني من ثبات واعتقاد بالكفر راسخ،
 ولما في الأول من تكلف ومداجاة وكذب.

وفي قصة قابيل وهابيل، يؤكد هابيل ثبوت استعداده بما لا يدع مجالاً للشك في نفي بسط يده لقتل أخيه، فكان التعبير بالجملة الاسمية ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ [المائدة: ٢٨]، بينما هذا الثبات فيه اضطراب وتردد بالنسبة إلى القاتل قابيل ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾، في صياغته بالجملة الفعلية.

وقيل الحمد لله أبلغ من (حمداً لله). ولهذا حيا إبراهيم الملائكة بقوله: ﴿سَلِّمٌ﴾، بأبلغ مما حيوه به: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ [مود: ٦٩]. ومعلوم أن هذا مرده إلى العدول من الفعلية الاسمية لما في التعبير بالاسمية من ثبات وتأكد^(١).

هذا حديث عام عن خصوصية الاسم والفعل في السياق العربي،
لم يتعد إلى نماذج من التشابه الأسلوبي في القرآن وفي مجال الاسم
والفعل خاصة، أو تناوبهما والعدول من أحدهما إلى الآخر. ولننظر في
بعض هذه النماذج.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىَّ ﴿[الأنعام: ٩٥].

وقال - سبحانه - في سورة آل عمران: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَاءُ بِضَرِّحَسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧]، ومثلها في سورة الروم: ١٩، ويونس:

(١) معاني الأبنية في العربية ص ١٧.

٣١، في تشابه الصياغة بالجملة الفعلية ﴿وُخْرِجُ﴾، بينما في سورة الأنعام ﴿يُخْرِجُ﴾ بالفعل مرة، و﴿وُخْرِجُ﴾ بالاسمية فما السر وراء ذلك؟.

أمامنا لفتان الأولى للقدامى والثانية للمحدثين. الأولى أن التعبير بالاسم ﴿وُخْرِجُ﴾ في الأنعام وقع بين أسماء الفاعلين ﴿فَالِقُ الْكَلْبِ وَالنَّوَى﴾ ثم ﴿فَالِقُ الْأَصْلَحِ﴾ واسم الفاعل يشبه الاسم من بعض الوجوه، في حين أن التعبير بالفعل في آل عمران والروم ويونس وقع لأن ما قبله وما بعده أفعال^(١). وهذا لتحقيق التناسب في الصياغة. أما الثانية فهي تتجاوز هذا التناسب اللفظي إلى نوع من الدلالة المعنوية، وهي تشير إلى أن التعبير القرآني استعمل الاسم ﴿وُخْرِجُ﴾ مع الميت، واستعمل الفعل ﴿يُخْرِجُ﴾ مع الحي، لأن أبرز صفات الحي الحركة والتجدد، في حين أن الميت في حالة همود وسكون، وتناسبه الصيغة الاسمية الدالة على الثبات^(٢). كما أن السياق في آل عمران هو التعبير عن الحدوث والتجدد عموماً، فالله . سبحانه . يؤتي ملكه من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويغير الليل والنهار ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي. فالسياق كله حركة وتغيير وتبديل، فجاءت الصيغ الفعلية مناسبة للدلالة على التجدد والحدوث، في حين أن السياق في الأنعام مختلف من حيث دلالته على صفات الله . سبحانه وتعالى . وقدرته، وهي صفات ثابتة غير متغيرة^(٣).

(١) درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الاسكافي، دار الآفاق، بيروت، ط ٤، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ص ١٢٤، وأسرار التكرار في القرآن، للكرماني، دار بوسلامة، تونس، ط ١، ١٩٨٣، ص ٧١. وينظر تفسير الكشاف للزمخشري، ج ١، ص ٥١٨.

(٢) التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد، ط ١، ١٩٨٦، ص ٣٤.

(٣) نفسه، ص ٣٤.

وهذا التعاضد ما بين اللفظي والمعنوي نجده ظاهراً مرة في التعبير القرآني وخفياً مرة أخرى، ولا ينبغي التوقف عند الملحظ الشكلي فقط، لأنه لا ينبغي للبيان العالي أن يُعنى بالملاحظ الشكلي ولا تكون وراء أسلوبه مقاصد معنوية، كما ترى الدكتورة بنت الشاطيء^(١) على أننا نرى أنه حتى الملحظ الشكلي - في بعض الأحيان - يكون أداة للتأثير في نفسية المتلقي من حيث الوقع الموسيقي أو الجرس اللفظي، فيكون ذا دلالة معنوية خاصة، وبهذا يكون قد حقق مقصداً معنوياً، وإن كان ظاهره تناسباً لفظياً، أو ملحظاً شكلياً.

لنشهد هذا التعبير بالفعل مرة وبالاسم أخرى، في تشابه واضح بين هاتين الآيتين:

- ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّكَ وَأَنَّكَ لَتَكُونُ نَاصِحًا﴾ [الأعراف: ٦٢].

- ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّكَ وَأَنَا لَتَكُونُ نَاصِحًا أَمِينًا﴾ [الأعراف: ٦٨].

الأولى في حوار (نوح) مع قومه، والثانية في حوار (هود) مع قومه. وقد جاء التعبير في الأولى بالفعل ﴿أَنْصَحُ﴾، وفي الثانية بالاسم ﴿نَاصِحٌ﴾ وقد علل الإسكافي التعبير بالفعل بأنه جاء بعد قولهم لنوح: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، والضللال من صفات الفعل غير الثابتة التي يمكن معها الانتقال إلى أضدادها في الزمن القصير مراراً. في حين أن التعبير بالاسم جاء بعد قولهم لهود ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، والسفاهة من صفات النفس، وهي ضد الحلم، وهو معنى ثابت يولد الخفة والعجلة المذمومتين، والحلم معنى ثابت يولد الأناة المحمودة.

فقوله ناصح (أي ثابت لكم على النصيحة) في النفس لا تنتقل

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، ط ٥، ١٩٧٧، ص ٣٥.

لكم عن النصح إلى الغش ولا تبدل خيانة بالأمانة . وكان جواب كل من الكلامين ما لاق به واقتضاه^(١) . وهذا هو مدار حديثنا في العدول من الاسمية إلى الفعلية أو العكس ، على أساس الثبات في الاسمية ، والحركة والتغير والحدوث في الفعلية .

وهذا ما نلاحظه في هذين النموذجين المتشابهين :

- ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف : ٨] .

- ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة : ٣٢] .

مع فارق أن التعبير ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ قد جاء بالاسمية ، والتعبير ﴿إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ﴾ جاء بالفعلية ، ولعله من باب الثبات والوعد الجازم أول الأمر . هذا إذا عددنا آية الصف قبل التوبة ، سواء أكانت مكية . على رأي . أو مدنية . حيث قالوا بأن هذا القرآن سحر ، فمثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه . وما هو بقادر^(٢) !! ، ثم كانت مرحلة سورة التوبة ، وبعد أن أطفأ الله نار المشركين ، وفتحت مكة ، وضرب الإسلام بجرانه ، وكسرت شوكة الشرك ، جاء التعبير بالفعلية ﴿أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ﴾ لأنه أقل حاجة في النفوس إلى التأكيد ، بينما كانت هذه النفوس أول الأمر متطلعة إلى الثبات الجازم الذي عبرت عنه الاسمية ﴿مُتِمُّ نُورِهِ﴾ . والله أعلم .

(١) درة التنزيل ، ص ١٥٣ ، وأسرار التكرار ، ص ٨٣ . وقال الزمخشري عن الفعل نصح : (يقال نصحته ، ونصحت له ، وفي زيادة اللام مبالغة ، ودلالة على إمحاض النصيحة ، وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبه) الكشف ، ج ١ ، ص ٥٥٣ .

(٢) الكشف ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ .

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]
﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ﴾ [المعارج: ٢٤].

بالاسمية في الأولى والفعلية في الثانية. قال الزمخشري: (فإن قلت: كيف قال ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، ثم ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ﴾؟ قلت: معنى دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها لا يخلون بها، ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، . . . ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقبتها، ويُقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم. فالدوام إلى أنفس الصلوات، والمحافظة على أحوالها)^(١).

وقال باحث معاصر إن الاسمية في قوله تعالى: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ جاءت بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) [المعارج]، فذكر العلة التي تنزل الإيمان، ثم عقب بأنه: (لا ينجو من تلك العلة إلا من تمكنت الصلاة والخشوع من قلبه، ودام عليها حتى دام له معنى الصلاة فيها وفي غيرها من الأوقات، ذكراً لربه وصلة دائمة به)^(٢)، وكأن هذا الدوام والثبات الذي جاء بعد صفات راسخة في خلق الإنسان، يلاؤمه هذا الدوام في الصلاة دواماً تتمكن معه من قلبه، ويدوم معناها في قلبه.

ومع هذه الدلالات المعنوية التي تلازم تغير الأساليب في القرآن ضمن إطار من التشابه بين الآيات، وهو موضوع بحثنا، أو خارج إطار هذا التشابه، فإن الملاحظ اللفظية قد تعين على تعميق الدلالة المعنوية وتعاوض معها، كما أشرنا. ومن هذه الملاحظ اللفظية يمكن الإشارة إلى

(١) نفسه، ج ٣، ص ٢٦٩.

(٢) الأستاذ عبد القادر أحمد عطا، في تحقيق أسرار التكرار للكرماني، ص ٢٠٩.

أسلوب (الالتفات) الذي يوقظ السامع ويطره بنقله من أسلوب إلى آخر استمالة له على الإصغاء والاستجابة، حتى سمي هذا الأسلوب بـ (شجاعة العربية): لأن المتكلم يقدم فيه على ثقة منه بنفسه وأنه بالغ مقصده من نفس السامع بهذا التناول الشجاع^(١).

ثانياً: تنوع الفعل:

الفقرة التي نحن بصدها هي التشابه في الآيتين من القرآن الكريم في موضعين متباعدين في الغالب، ولكن الاختلاف يقع بين نوعي الفعل في الآيتين، فقد يكون في الأولى «خُلِقَ» وفي الثانية «أُنشَأَ»، وقد يكون في الأولى (ألفى) وفي الثانية (وجد) . . . وهكذا.

وقد نظر اللغويون والنحويون قديماً إلى هذا التشابه في الأفعال وأدرجوه ضمن ما سمي بـ (الترادف) في اللغة العربية، غير أنهم اختلفوا في قضية الترادف هذه، فمنهم من غالى فيها فعَدَّ للجمل آلاف الأسماء، وعدَّ مئات الأسماء لغيره^(٢). ومنهم من أنكر هذا الترادف. وقال بـ (أن) اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني لأن الاسم كلمة تدل على معنى دلالة الإشارة، وإذا أشير إلى الشيء مرة واحدة فعرف بالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة^(٣). وذهب بعض المحدثين إلى التوسط بين غلو الجانبين وأقر بوجود الترادف ولكن ليس بالصورة التي يغالي بها المتحمسون له^(٤).

(١) انظر المثل السائر، ج ٢، ص ١٣٥.

(٢) في الأسلوب الأدبي، ص ٢٨.

(٣) الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٧، ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م، ص ١٣.

(٤) دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٦، ١٩٨٠، ص ٣٠٠، ٣٠١.

والذي نريد أن نقرره في هذا التمهيد أن الكتاب العزيز لا يقوم فيه لفظ مقام غيره^(١). وأن الأفعال التي نحن بصدد عرضها وإن بدت مترادفة ولكنها في البيان القرآني المعجز ليست كذلك، ففي كل واحد منها سر أو ملمح لا يوجد في الآخر. وقديماً قال الجاحظ: (فقد يستخفُّ الناسُ ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحقَّ بذلك منها. ألا ترى أنَّ الله . تبارك وتعالى . لم يذكر في القرآن «الجوع» إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر... وكذلك ذكر «المطر» لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر «المطر» وذكر «الغيث»)^(٢).

ومرة أخرى نؤكد أن اختلاف الدلالة بين الفعلين (المترادفين) في ظاهريهما سيكون أكثر وضوحاً إذا درس من خلال الآيات المتشابهة. ومن خلال التعرف على سياق كل آية، كما سنلاحظ فيما يلي من الأمثلة.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُوا أَتِجَةٌ وَآخَاهُ وَارْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١].

وقال في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا أَتِجَةٌ وَآخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦].

وهذا تشابه تام في غير الفعلين (أرسل) و(بعث). وقد قيل إن اللفظتين نظيرتان، وأن قریشاً كانت تستعمل في بيئتها الخاصة أحد

(١) ظاهرة الترادف في ضوء التفسير البياني للقرآن الكريم، د. طالب محمد الزوبعي، منشورات جامعة قار يونس، ط١، ١٩٩٥، ص٨.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ، مكتبة الخانجي، القاهرة، تحقيق عبد السلام هارون، ٣، ١٩٦٨، ج١، ص٢٠. وينظر أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، د. شلتاغ عبود، دار المعرفة، دمشق، ط١، ١٩٨٧، ص٧٢.

اللفظين مكان الآخر دونما فرق بعد أن اقتبست كثيراً من المفردات من اللهجات العربية التي احتكت بها، ثم تُنوسيت الفروق بين دلالة المفردتين في لهجاتها الأصلية^(١). غير أن علماء الأسلوب ومن أنكر الترادف وعلماء المتشابه يلتفتون إلى ملاحظ دقيقة لم يلتفت إليها أصحاب نظرية الترادف.

فالعسكري يلحظ الفرق بين (أرسل) و(بعث)، في أن الإرسال لا يكون إلا برسالة أو ما يجري مجراها، وليس في (بعث) هذه الدلالة تقول: بعثته، ولا تقول أرسلته، للصبي الذي تبعته إلى المكتب^(٢). وفي أساس البلاغة للزمخشري (بعثه من منامه، وبعثه على الأمر... وبعثه لكذا فانبعث له ﴿كَرِهَ اللَّهُ أَنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾^(٣)، وفلان كسلان لا ينبعث^(٤)، والبعث: النشور. وفي هذا ملمح للسرعة واضح. وفي الرّسل والترسل الرفق والتؤدة، وأرسل الكلام على رسيلاته، تهاون فيه. والترسيل في القراءة: الترتيل، وترسل في قراءته: اتأد^(٥).

ولقد قادت نظرية السياق متأملاً في متشابهات القرآن مثل الخطيب الاسكافي إلى ملحظ دقيق في الفرق بين (أرسل) و(بعث) في آتي الأعراف والشعراء، وهو أن فرعون في سورة الأعراف قد تعالى على الناس ولم يخاطبهم بنفسه، وجعل الملاً وسيطاً بينه وبينهم، فكان جوابهم باللفظ (أرسل) لأن الإرسال أصله تنفيذ من فوق إلى أسفل، وكأن السياق راعى هذا الترتيب في المنزلة. أما في سورة الشعراء فقد

(١) دراسات في فقه اللغة، ص ٣٠٠.

(٢) الفروق في اللغة، ص ٢٨٣.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٦.

(٤) دار الفكر، بيروت، ب. ط، ٢٠٠٠، مادة بعث.

(٥) نفسه، مادة أرسل.

تولى فرعون بنفسه مخاطبة قومه بإسقاط الحجاب بينهم وبينه؛ وتسوية قدرهم بقدره لقوله: قال للملأ حوله، فخص هذا الموضع بالفعل (بعث) لأنه مخالف للموضع الأول، ففي الأول تعظيم وتفضيم ناسبه (أرسل)، وفي الثاني ترخص في العلاقة، وسقوط في الحجاب فكان (ابعث) مناسباً لمقتضى الحال^(١).

وحين نتأمل الفعلين (جاء) و(أتى) نجد أن القرآن قد استعملهما بكثرة يصعب معها التعرف على الفروق الدقيقة بينهما، ولكن مزيداً من التأمل، وخاصة في الآيات المتشابهة، يهدي إلى بعض الملاحظ التي تؤيد عدم الترادف التام، وإن كانت فكرة الترادف ما تزال تحظى بالقبول لدى بعض الناظرين في هذين الفعلين^(٢).

ومن هذه الملاحظ أن (جاء) لا يستعمل في القرآن إلا دليلاً على القرب، سواء أكان مكانياً أم زمانياً أم نفسياً، وأن (أتى) لا يستعمل في القرآن إلا دليلاً على البعد سواء أكان مكانياً أم زمانياً أم نفسياً. انظر إلى قوله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]
فما يأتي به الكافرون من اتهام للرسول بالسحر والكهانة والشعر يعدُّ بعيداً عن الحق، وإسفافاً في الرأي، أما ما يجيء به القرآن فهو الحق والصدق^(٣). ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩].

(١) الدرة، ص ١٧٠. وأسرار التكرار، ص ٨٩.

(٢) أسرار التكرار، ص ١٣٨.

(٣) أطروحات أسلوبية في الخطاب القرآني. محمد إقبال عروي، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط ١، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م، ص ٢٩.

فالمدة التي أودى فيها بنو إسرائيل قبل مجيء موسى ﷺ كانت طويلة، وبعيدة. أما وقد جاءهم فقد كان الإيذاء معانيناً مباشرةً وقريباً.

وقد لاحظ العلماء أن أغلب ما يرد في القرآن من الفعل (جاء) يدل سياقه على الأمور المادية المحسوسة (الجواهر والأعيان) من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَن جَاءَهُ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢]. وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٨٩]. كما أن أغلب ما يرد في القرآن من الفعل (أتى) يدل على الأمور المعنوية والروحية وخاصة المتصلة بوحداية الله وما يتعلق بها من عدل وحق وعقاب وثواب^(١)، من ذلك قوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]، ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٦٤].

ويلاحظ - كذلك - على الفعل (أتى)، سواء في دلالاته القاموسية. أو استعمالاته القرآنية، أنه غالباً ما يعبر عن المجيء بسهولة ويسر^(٢).

ولننظر إلى هذين الفعلين (انفجر) و(انبجس) من خلال سياق الآيتين المتشابهتين، فهل الترادف والتساوي في الدلالة أقوى أو أن لكل منهما دلالته وإيحاءه من خلال السياق.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

لم ير الزمخشري فرقاً بين (انبجس) و(انفجر)، فالمعنى واحد،

(١) ينظر هذه الآراء في ظاهرة الترادف، ص ٥٢، ٥٣.

(٢) أساس البلاغة، مادة (أتى).

وهو الانفتاح بسعة وكثرة^(١)، ولكن محمود بن حمزة الكرمانى يستشعر انصباب الماء بكثرة من انفجر، بينما الانبجاس ظهور الماء فقط. ويرى أن (انفجر) في آية البقرة ذكر ليتناسب مع ما سبق من ذكر النعم وهي الأكل والشرب معاً، في حين أنه جاء التعبير غير مبالغ فيه بـ (انبجست) لأن النعم ليس فيها (واشربوا)^(٢). ووافقه السيوطي على ذلك^(٣).

وقد يكون. والله أعلم. أن التعبير بـ (انفجرت) جاء مع طلب موسى ﷺ الماء برجاء وقوة من خلال صيغة (استفعل) الدالة على الطلب بالبحاح، إذ (استسقى) هو بنفسه، بينما مع آية الأعراف جاء التعبير بـ (انبجست) لأن طلب الماء والاستسقاء جاء من قومه ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾، فكانت الاستجابة بالماء الكثير مع طلب النبي المقرب الكلیم، وكانت الاستجابة بالماء الأقل مع طلب قومه، وإن كان الضارب بالحجر هو موسى، وإن كانت العيون اثنتا عشرة عيناً كذلك.

وقريب من الفعلين (انفجر) و(انبجس) في آيتي البقرة والأعراف الفعلان (سجر) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَلْبَاؤُ سَجَرَتْ﴾ [التكوير: ٦]. و(فجر) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَلْبَاؤُ فُجِرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]. وقد جاء التعبير في التكوير بـ (سجرت)، لأن معنى (سجرت) عند أغلب المفسرين: أوقدت، فصارت ناراً، من قولهم سَجَرْتُ النَّوْرَ. وقيل: هي بحار جهنم تملأ حميماً فيعاقب بها أهل النار، فخصت هذه السورة بـ (سجرت) موافقة لقوله: ﴿سَجَرَتْ﴾ [التكوير: ١٢]، من السورة نفسها، ليقع الوعيد بتسجير النار وتسجير البحار.

(١) الكشف، ج ١، ص ٥٨٢. وينظر أساس البلاغة، مادة بجس وفجر.

(٢) أسرار التكرار، ص ٣٠.

(٣) الاتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ط ١، ١٩٧١، ج ٢، ص ١١٥.

وفي الانفطار جاء التعبير بـ ﴿وَإِذَا الْيَحَاؤُ فُجِرَتْ﴾، أي سالت مياهها ففاضت على وجه الأرض، ليناسب جو هذه السورة التي تزايلت فيها الأشياء عن أماكنها ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ [الانفطار] أي تساقطت، ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ [الانفطار] أي قلبت وأثيرت^(١). وهذا تناسب عجيب لا يكون إلا في البيان العالي والأدب الرباني الموحى به من السماء. ولقد قيل عن عناصر الجمال في الأدب الأرضي، ولدى الاتجاه الموضوعي في فلسفة الجمال أن التناسب والتناسق أمران ضروريان في تقويم الجمال وفهمه^(٢). ومع التناسب هذا يكون لفت الأنظار إلى الكيان الكلي وإلى المشهد العام الذي تتضام أجزاؤه ويتوحد في تنوعه، وليس الاهتمام في الأجزاء منفردة منفصلة بعضها عن بعض كما يلاحظ في النظرة التجزيئية للأشياء الجميلة.

إن اللفظة القرآنية عموماً، والفعل هنا خاصة، تتلبس ظلال الجو العام سواء أكان قصصاً أو حكماً شرعياً، أو توجيهاً إلهياً، فلا يمكن أن ننظر إلى الكلمتين أو (الفعلين) في سياقين مختلفين على أن دلالتها واحدة تماماً. خذ مثلاً هذين الفعلين وتأمل سياقهما أو موقعهما من الحكم الشرعي والتوجيه الإلهي.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

فما الفرق - يا ترى - بين (لا تقربوها) و(لا تعتدوها)؟

لا شك أن هناك تقارباً في الدلالة وهو النهي عن اقتراف الحدود واجتراح الذنوب، لكن ثمة فارق بين التعبيرين فالنهي في الأولى مغلظ

(١) أسرار التكرار، ص ٢١٤، ٢١٥.

(٢) في الأسلوب الأدبي، ص ٤٧.

في الوعيد، فليس المراد معه النهي عن اقتراف الحد، بل المنهي عنه الاقتراب منه، فما بالك بفعله!! أما في الآية الثانية، والفعل الثاني ﴿فَلَا تَعْتَدُوها﴾ فالأمر ليس معه ذلك التغليب في النهي، فكان النهي عن القيام بالعمل نفسه، وليس الاقتراب منه^(١).

ولنتظر إلى هذين النموذجين القرآنيين:

- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ الْأَشْجُرُ﴾ [الملك: ١٥].

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّى لِّلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

فما الفرق بين (امشوا) و(اسعوا) فيهما؟

يرى الأستاذ محمد إقبال عروى أن (امشوا) في آية الملك ارتبطت بالرزق والحصول عليه، فهو مضمون بالمقادير الربانية، و(اسعوا) في آية الجمعة مرتبط بالعمل للآخرة، فهو يحتاج إلى سعي وهمة نفسية ونشاط ورغبة شديدة، وهذا ما تعبر عنه الحركة السريعة في (اسعوا)^(٢). وقد يكون المشي دونما هدف أو خطة، بينما السعي معه هدف وقصد وإرادة مثلما هو (السعي) في الحج بما فيه من نية وإخلاص وتنفيذ عبادة.

على أن هذه الدلالة للسعي من هدفية وقصد يجذدها السياق كما في آية الجمعة وفي آيات أخرى من مثل ﴿وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]. هدفية ربانية وقصد صالح، وقد يكون الهدف والقصد في الشر والفساد، كمثّل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ [الحج: ٥١]. وربما كان

(١) الدرة، ص ٤٥، وأسرار التكرار، ص ٤١، والاتقان، ج ٢، ص ١١٦.

(٢) أطروحات أسلوبية في الخطاب القرآني، ص ٣٣.

السعي حركة ودأباً دون قصد من مثل ﴿فَالْقَنَآءُ فَاِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠]. ولكن أغلب ما يكون السعي في اللفظ القرآني مع الدأب الهادف، والعمل الجاد خيراً كان أم شراً.

ونمط آخر من الآيات المتشابهة مع اختلاف خاص في الأفعال نلاحظه في المشاهد التي تعرض للطبيعة باعتبارها مجلى لعظمة الله وحسن خلقه وكمال نعمه وفضله على الخلق، كما في هذين النموذجين:

١ - ﴿اللّٰهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَاَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَاَخْرَجَ بِهٖ مِنَ الشَّجَرٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

٢ - ﴿اَمَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَاَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَاَنْبَتْنَا بِهٖ حَدَاقٍ ذٰلِكَ بِهَاجَتِكُمْ مَّا كُنْتُمْ لَكُمْ اَنْ تُنْبِتُوْا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠].

ويلفت نظرنا الفعلان (أخرج) في آية إبراهيم، و(أنبت) في آية النمل. فنرى أنه حين يكون الحديث عن القدرة الإلهية يكون التعبير بالفعل (أخرج)، وحين يكون الحديث عن النعمة الإلهية يكون التعبير بالفعل (أنبت). ونضرب مثلاً للأول في سورة البقرة: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْاَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَاَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَاَخْرَجَ بِهٖ مِنَ الشَّجَرٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]. ولها شبيهه في آيات أخرى في البقرة: ١٦٤، والأنعام: ٩٩، والرعد: ١٧، وغيرها.

كما نضرب للثاني (الحديث عن أنبت للنعمة) بقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْاَرْضَ هَآئِدَةً فَاِذَا اُنْزِلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اَفْتَرَزَتْ وَرَبَّتْ وَاَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَّهِيْجُ﴾ [الحج: ٥]. ومع النعمة هنا إحياء بالجمال والزينة وهما نعمة ونعيم كذلك.

ونلاحظ هذين الفعلين (ردّ) و(رجع)، فنرى أن معناهما واحد ولكن استعمال كل واحد منهما في مقام يليق به ويناسبه.

﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

الرد عن الشيء - كما يرى الاسكافي - يتضمن معنى الكراهية للمردود، وهو معنى غير متضمن في رجع^(١). ولما كانت آية الكهف جاءت في سياق وصف النعمة التي رزقها صاحب الجنتين، وكان متعلقاً بها أشد التعلق مدلاً بها على صاحبه المؤمن الفقير، فكانت عودته إلى الله بعد الموت خلاف محبته لجنتيه في الدنيا. ولما كان الأمر كذلك، جاء التعبير بـ (رُدِدْتُ) الدال على الكراهة. أما آية (فصلت) فلم يتقدمها مثل ما تقدم آية الكهف، بل تقدمها قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ أَلْسٌ فَيُؤَسُّ قَنُوطٌ﴾ ﴿٤٩﴾ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠].

ولكننا نواجه بقوله تعالى في سورة القصص في الحديث عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أَبِيهِ كَيَّ فَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنُ﴾ [القصص: ١٣] وليس فيه كراهة المردود كما مر، فنجد الجواب عند تاج القراء الكرمانى^(٢) بأن (فرددناه) جاء تصديقاً لقوله تعالى قبله في الآية: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ يُخَالِفُ بِمَا جَعَلْنَا مِنْهُ لِقَايَهِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، أي أن التعبير بـ (فرددناه) جاء على وجه المجانسة والمشاكلة التي نجد لها وجوهاً كثيرة في القرآن، وهو صنيع له وقع في النفس من خلال جوس الألفاظ، ومعه الغرض المعنوي الذي هو تثبيت قلب أم موسى وتصديق وعد الله لها باللفظ نفسه.

(١) الدرة، ص ٢٨٢.

(٢) أسرار التكرار، ص ١٣٨.

ويستعمل القرآن الفعل (عقل) في دلالة غير ما يستعمل بها الفعل (علم)، فانظر معي هذين النموذجين المتشابهين:

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

فالقول الأول على لسان الكفار لا يمنع أن يرجعوا من اتباع آبائهم فهم لم يؤكدوا، أو لم يبالغوا في عقيدتهم وإيمانهم بالأوثان. وبهذا استعمل الله تعالى في نفي هدايتهم لفظاً لا يبلغ النهاية في اليقين (لا يعقلون)، لأن فوق العقل في اليقين (العلم). أما في المائدة فقد بالغ الكفار في ثقتهم بالأوثان، وقطعوا على أنفسهم طريق العودة عنها بقولهم: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، ولهذا استعمل المولى - جل شأنه - في نفي هدايتهم نفي العلم الذي هو أبلغ درجات اليقين فقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، والدليل على أن العلم أرفع من العقل أن الله - سبحانه - لا يوصف بالعقل^(١).

وهذا ما سماه الأستاذ عبد القادر أحمد عطا في دراسته لإعجاز القرآن بـ (التركيب الكيميائي للقرآن)، أي أن القرآن يبلغ من وجهة التشابهات أو المتكررات مبلغاً دقيقاً تقرب منه التركيبات المعملية التي توزن على مقادير في غاية الدقة^(٢).

ولي ملاحظتان في هاتين الآيتين وهما: الأولى في الفعلين (لا

(١) الدرة، ص ٣٩، والأسرار، ص ٣٨، والتفسير البياني للقرآن، ص ٢٠٣.

(٢) في خاتمة الأسرار، ص ٢٤٧.

يعقلون) و(لا يعلمون)، حيث جاءت الآية السابقة لآية البقرة، وهي الآية ١٦٩ مختومة بـ (لا يعلمون)، فلم تتكرر ثانية في آية ١٧٠. كما أن الآية ١٠٣ السابقة لآية ١٠٤ من المائدة ختمت بـ (يعقلون) فلم تتكرر ثانية مع الآية التي تلتها.

والثانية في الفعلين (ألفى) و(وجد) في الآيتين، وهما وإن كانت دلالتهما واحدة، ولكن (وجد) أغلب ما يستعمل مع الحضورية العينية المادية، وقد يستعمل مع الأمور المعنوية، وجاءت مع سياق ثقة الكفار بأوثانهم لتعبر عن جو تمسكهم بتلك الأوثان. أما (ألفى)، فيغلب استعمالها في المعنويات وهما مما يلزم أخذ المفعولين، وقد ناسب مجيئها مع الجو الأقل تمسكاً بدعوى الإيمان بالأوثان، كما مر.

وقد تجد في القرآن لفظة واحدة تتكرر في آيتين متجاورتين، وهي تعبر عن الجو أو الدلالة العامة للسياق، كما في الفعل (سيق) في آيتي الزمر: ٧١، ٧٣.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ قال الزمخشري: (فإن قلت كيف عُبر عن الذهاب بالفريقين جميعاً بلفظ السوق؟ قلت: المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبسٍ أو قتل. والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، وحشها إسراعاً إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يُشرف ويُكرم من الوافدين على بعض الملوك. فشتان ما بين السوقين)^(١).

وبين أيدينا الآن الكثير من الآيات المتشابهة مع اختلاف في نوع

(١) الكشف، ج ٣، ص ٤١، ٤٢.

الفعلين الموجودين فيهما مع دلالة خاصة لكل فعل ضمن سياقه والهدف من توظيفه من التبليغ والتأثير، ولا نريد أن نسترسل مع هذه المواضع، بل نختم هذه الفقرة بما يقرره علماء اللغة القدماء والمحدثون من (أن اللغة ذات مفردات وألفاظ محدودة مطلوب منها أن تعبر عن أشياء غير محدودة. فالألفاظ يمكن حصرها، أما المعاني فلا يمكن حصرها على الإطلاق. ولهذا وجب على اللغة أن تكتيف نفسها لتفي بغرض المتكلم، ولا يمكن ذلك إلا بتحميل اللفظ الواحد أكثر من معنى)^(١).

وهذا هو الذي كان من اللفظ القرآني، والفعل الذي وقفنا عنده بخاصة، حيث تعددت الدلالة وتلوّنت بلون السياق لتتناسب وتتواءم معه، ولتشاكل تعبيراً فيه سابقاً أو لاحقاً وتجانسه، أو لتتفادى تكراراً هنا، أو التباساً هناك. إلى غير هذا من المساقات التي يساق إليها التعبير القرآني عموماً، وفي الفعل خاصة.

ثالثاً: صيغة الفعل:

نحن مع الفعل في البيان القرآني، ولكن ليس من حيث مقابلته للجملة الاسمية، ولا من حيث تنوعه، ولكن من حيث هيئته، وتجريده أو زيادته، وذلك من خلال المتشابهات القرآنية التي نحاول أن نفهم فيها الاختلافات التي تطرأ على الفعل، معتمدين على معالم عامة نسميها مفاتيح أو ضوابط لفهم هذا التشابه من مثل السياق ووحدة السورة ونوع المخاطب وغيرها، وذلك طابع خاص من طوابع الأدب القرآني الذي يقع من النفس موقع المؤثر الفاعل، وحقّ له ذلك لأن مصدره خالق هذه النفس وبارئها.

(١) ينظر، مقال الدكتور محمد خليفة الأسود (اقتران الفعل ودلالته)، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ع ٨، ١٩٩١، ص ٣٦٥.

والفكرة التي ننطلق منها أساساً لهذه الفقرة من البحث أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر، أو زيد عليه حرف أو حرفان تضمن من الدلالة ما لم تتضمنه هيئته قبل الزيادة، ويذهب ابن الأثير إلى القول بأن: (الزيادة في الألفاظ لا توجب زيادة في المعاني إلا إذا تضمنت معنى الفعلية، لأن الأسماء التي لا معنى للفعل فيها إذا زيدت استحال معناها)^(١). ومن قبله كان أبو هلال العسكري. وهو من البلاغيين واللغويين الذين لا يؤمنون بالترادف التام. يقول: (لا يجوز أن تختلف الحركتان في الكلمتين ومعناهما واحد، قالوا فإذا كان الرجل عدة للشيء قيل فيه مفعّل مثل مرحم ومحرب، وإذا كان قوياً على الفعل قيل فعول مثل صبور وشكور، وإذا فعل الفعل وقتاً بعد وقت قيل فعّال مثل عَلام وصَبّار. وإذا كان ذلك عادة له قيل مفعّال مثل: معوان ومعطاء ومهداء. ومن لا يتحقق المعاني يظن أن ذلك كلّهُ يفيد المبالغة فقط، وليس الأمر كذلك بل هي مع إفادتها المبالغة تفيد المعاني التي ذكرناها)^(٢).

والحق أن علماء الصرف وقفوا كثيراً عند دلالات الصيغ المزيّدة للفعل مثل (فَعَّل) و(فاعِل) و(تفاعِل)، و(استفعل) وغيرها، وبيّنوا الضوابط أو العوالم التي تنحصر فيها هذه الصيغ أو تعبّر عنها. وهذا ما سوف يساعدنا على فهم الصيغ المتبادلة في المتشابه الأسلوب في البيان القرآني الكريم.

إن الاستعمال القرآني للفظ بعامة وفي الفعل - مجال بحثنا - بخاصة، له شفافية عالية وميزان دقيق، فالحرف له ظلال وإيحاء، وزيادته

(١) المثل السائر، ج ٢، ص ١٩٩.

(٢) الفروق في اللغة، ص ١٥.

في هذا اللفظ، أو ذاك تضيفي على الدلالة شعاعاً خاصاً قد يستوحى من اللفظ ذاته أو من خلال سياقه القبلي أو البعدي .

خذ هذه التاء التي ظهرت مع الفعل مرة، وحذفت منه مرة أخرى في آية واحدة من سورة الكهف، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَا أَسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْباً﴾ [الكهف: ٩٧]، في قوم يأجوج ومأجوج والسد الذي جعله ذو القرنين حاجزاً بينهم وبين القوم الذين يعتدون عليهم. فما الفرق بين الصيغتين؟

من المعلوم أن صعود الجبل لا يتطلب جهداً كما يتطلب ثقبه واختراقه، فكان (استطاعوا) بدون التاء مع العمل الأقل جهداً، وكان الفعل (استطاعوا) مع التاء حيث العمل الأكثر جهداً. والفعل نفسه يواجهنا في آيات سابقة من سورة الكهف في موقف سيدنا موسى مع الخضر العبد الصالح، مرة قبل أن ينبئه بتأويل أفعاله الثلاثة: (خرق السفينة، وقتل الغلام، وهدم الجدار)، فكان التعبير بقوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّتُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]. بهذه التاء المصورة لمعانة موسى واستغرابه وتمييزه غيظاً من أفعال الرجل غير المبررة في ظاهرها. أما وقد فسر له الرجل أفعاله، وعرفه بعله كل فعل، وذهب كمد موسى وحيرته جاء التعبير بدون التاء: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢] والله أعلم.

وتواجهنا الصيغ المزیدة للفعل في صور عديدة في إطار الآيات المتشابهة، من مثل نزل، وأنزل، ونزل. فنزل بالصيغة المجردة، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [١٩٦] عَلَى قَلْبِكَ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، وأنزل الله الكتاب مرة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الإسراء: ١٠٥]. ونزل القرآن على دفعات منجماً حسب الحوادث من السماء إلى الأرض ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]. وهذا في سور

عديدة وآيات كثيرة. ولكننا نريد أن نقف أمام آيتين متشابهتين مع تغيير صيغة الفعل (نزل):

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ﴾ [يس: ١٥].

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك: ٩]

بصيغة (أفعل) في الأولى، وصيغة (فعل) في الثانية.

وكان حديثهم في آية (يس) في الدنيا، حيث واجه أصحاب القرية المرسلين مكذبين، ونفوا أن يكون الله قد أنزل أي شيء، في حين أن حديث الكافرين في آية الملك، كان يوم القيامة، وكان كل فوج منهم - على كثرتهم - يقول: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾، بما في (فعل) من دلالة على التكثير، فهم لم يؤمنوا بأولئك الرسل الذين نزلوا عليهم، ولا بأولئك الرسل الكثر الذين نزلوا على من قبلهم من الأقسام والأمم.

ففي (يس) قوم معينون، وفي (الملك) أقوام وأفواج يتردد كلامهم ويكثر بنبرة واحدة (ما نزل).

وفي مثالين آخرين متشابهين يرد فيهما الفعل مرة بصيغة (فعل) وأخرى بصيغة (أفعل):

﴿أَتَجِدُلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١].

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

فيرى الكرمانى فيهما أن (فعل) للتعدي والتكثير، و(أفعل) للتعدي فذكر في الموضع الأول بلفظ المبالغة ليجري مجرى الجملة والتفصيل، وذكر الجنس والنوع، فيكون الأول كالجنس، وما سواه كالنوع^(١). وهذا

(١) الأسرار، ص ٨٥.

الضابط في التعامل مع المتشابهات يراعي صورة الآيات وترتيبها في المصحف وكأن ما جاء أولاً يكون بصيغة العموم، وما يليه يجيء بصورة الخصوص وإن لم يكن هذا المبدأ عاماً في المتشابهات.

هذه الدلالة لـ (فَعَلَ) و(أَفْعَلَ) نجدُها مع فعل آخر هو (نَجَا) في

المثالين التاليين:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: ٥٨].

﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣].

فالآية تشير إلى أن هوداً كان مع قومه فنجاهم الله معاً، والثانية تشير إلى القوم المتقين منفردين عن نبيهم صالح. قال الأستاذ سعيد الفاندي: (فالمبالغة في الانجاء أكثر تعلقاً بالرسول الداعية وقومه المؤمنين من تعلقها بمؤمنين منفردين عن نبيهم عن الذكر)^(١).

ولكن عالماً قديماً من علماء المتشابهات يعالج المبالغة في (فَعَلَ). نَجَا، من زاوية لغوية وأسلوبية حين تكون الآيتان المتشابهتان تتحدثان عن موقف واحد لنبي واحد هو سيدنا نوح عليه السلام وذلك في قوله تعالى:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾

[الأعراف: ٦٤].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ الَّذِينَ

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [يونس: ٧٣].

فهو يرى أن التشديد في الثانية (فنجيناه) يدل على الكثرة والمبالغة، وذلك من اسم الموصول (من) الذي هو أعم من (الذين) لأنه يصلح

(١) ينظر بحث (من أسرار الآيات المتشابهات)، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ع ١٣،

١٩٩٦، ص ٢٦٢.

للواحد والتثنية والجمع والمذكر والمؤنث بخلاف (الذين) فإنه لجمع المذكر فحسب، فكان التشديد مع (من) أليق^(١).

وتلاحظ أن مدخل الأستاذ الفاندي مدخل معنوي بينما مدخل الشيخ الكرمانى - في هذا الموضوع - مدخل لفظي وأسلوبى نحتاج معه إلى ملحظ معنوي يفسر لماذا (أنجى) الله - سبحانه - نوحاً مرة، و(نجاه) مرة أخرى؟ ولعل في تعبير ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ مع (نَجَّيْنَاهُ) ما يتلاءم مع هذه الصيغة (فَعَلَ) الدالة على الكثرة والمبالغة، وهو تعبير يضيف بُعداً معنوياً للموضوع.

ويعدل التعبير القرآني من (فَعَلَ) إلى (فاعل) للدلالة على المشاركة وأن الفعل يصدر من جهتين، كما في قوله تعالى:

﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩].

و﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَذِّعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

فصياغة (خادع) تدل على المشاركة، في حين أن (خدع) بدون الألف تكون في حالة خداع النفس ذاتها، وهذا لا يقتضي حصوله من طرفين. وفي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو بإثبات الألف^(٢).

أما العدول من (فعل) إلى (افتعل) فنجد في هذين النموذجين المتشابهين: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

و﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:

١٢٣].

(١) الأسرار، ص ٨٤. وانظر الدرة، تجد رأياً للإسكافي خلاف رأي الكرمانى، ص ١٥٤.

(٢) بحث (من أسرار الآيات المتشابهات)، ص ٢٦٢.

نجد الكرمانى يستهدي بالتناسب اللفظي^(١)، فيرى (اتبع) في سورة طه جاء موافقاً لقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ من السورة نفسها آية ١٠٨، ودائماً نحاول أن نعصد التخريج اللفظي بتخريج معنوي يفسر لماذا اختلفت الصيغتان. والذي نراه أن آية (طه) جاءت بعد إطناب وتفصيل في العقاب الذي يلحق من أعرض عن هدى الله وهو: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١١٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْنَدْنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي (١٢٦) [طه: ١٢٤ - ١٢٦]. أما آية البقرة، فلم تأت بعدها إلا آية واحدة تتعلق بالسياق، ثم انتقل الحديث عن موضوع آخر، وهو خطاب بني إسرائيل.

ومن أمثلة (فَعَلَ) و(افْتَعَلَ) صبر، واصطبر في الآيات القرآنية وفي هذين المثالين خاصة:

- ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨].

- ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

فالصبر في الثانية غير الصبر في الأولى، ففيه جهد ومجاهدة ليس مثله مجاهدة اقران القتال، لمن أراد أن يؤذيها حق أدائها. قال الزمخشري في تفسير الآية: (وأقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة، واستعينوا بها على خصاصتكم، ولا تهتم بأمر الرزق والمعيشة، فإن رزقك مكفي من عندنا، ونحن رازقوك، ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك، ففرغ بالك لأمر الآخرة)^(٢).

وإذا انتهينا مع كبار اللغويين والبلاغيين أن فَعَلْتَ وأفَعَلْتَ لا تكونان

(١) الأسرار، ص ٢٦.

(٢) الكشف، ج ٢، ص ٣١٩.

بمعنى واحد، وكذلك فعل وفاعل، وفعل وافتعل، وفعل واستفعل إلا أن يجيء ذلك في لغتين، فإن تجرد الأفعال أو تعدّيها بحروف الجر لا تكون بمعنى واحد كذلك، فليس نصحته ونصحت له بمعنى واحد، ولا سمعت فلاناً يتحدث، وسمعت إليه يتحدث، ولا صبر، وصبر نفسه، واصطبر عليها، واصطبر لها سواء كذلك^(١)، قال الزمخشري: (المعدى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدى بآلى يفيد الإصغاء مع الإدراك)^(٢). هذا بخصوص الفعل سمع.

ولننظر مصداق هذا في هذين النموذجين المتشابهين في الكتاب العزيز:

١ - ﴿فَوَسَّوسَ لَهَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠].

٢ - ﴿فَوَسَّوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ [طه: ١٢٠].

فوسوس له، معناه لأجله، وفوسوس إليه: أنهى إليه الوسوسة كقولك حدث إليه وأسر إليه^(٣).

هذا فيما يتعلق بالفعل والزيادة فيه، ويشبه الفعل كذلك مشتقاته كاسم الفاعل واسم المفعول. ومما يجعل للفعل أو ما في معناه قيمة في هذا المجال أنه يختلف عن الأسماء التي إذا زيد عليها تغير معناها كلياً، وقد أشرنا من قبل إلى رأي ابن الأثير في هذا، ونزيد هنا رأيه في أن الفعل وما يجري مجراه إذا زيد فإنما يعمد إليه لضرب من التوكيد والمبالغة، كقدر واقتدر، وغافر وغفار^(٤).

(١) ينظر، الإعجاز القرآني أسلوباً ومضموناً، د. شلتاغ عبود، دار المرتضى، بيروت، ط ١، ١٩٩٣، ص ١٠٦.

(٢) الكشف، ج ٢، ص ٥٩٨.

(٣) نفسه، ج ٢، ص ٣١٦.

(٤) المثل السائر، ج ٢، ص ١٩٧، ١٩٨.

ونضيف هنا - أيضاً - أنَّ أيَّ تغيّر في الفعل يدفع بالمتلقي إلى أن يستوحي منه دلالة أخرى قريبة أو بعيدة، معنوية أو نفسية أو إيقاعية، حتى لو كان هذا التغير في الفعل المجرد نفسه، كأن ننقله من باب (فعل) بضم العين، إلى باب (فعل) بكسر العين، مثل (بُعِد) في هذين النموذجين:

- ﴿وَلَكِنَّ بُعِدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢].

- ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدَيِّنَ كَمَا بُعِدَتْ ثُمُودُ﴾ [هود: ٩٥].

فعلى الرغم من أن اللغويين يقولون إن لهذا الفعل بايين، باب فعل مثل كرم، وباب فعل مثل فرح، ولكنَّ الإحساس إزاء الفعلين في النموذجين القرآنيين قد يميل إلى اعتبار (بُعِد) بضم العين في النموذج الأول مناسباً للعناء والمشقة في السفر البعيد الذي يهرب منه المنافقون. في حين أن السياق الثاني والدعاء بالهلاك على قوم ثمود لا يولد الإحساس بالعناء والمشقة. وقيل: (إنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك، وبين غيره، فغيروا البناء، كما فرقوا بين ضمان الخير والشر، فقالوا: وعد وأوعد)^(١). علماً بأنَّ هناك قراءه للأولى بكسر العين، وقراءة للثانية بضم العين.

وفي نهاية هذه الفقرة من البحث نقرر ما قرره علماء المتشابهات بأنه (ليس هناك تكرار في القرآن الكريم، وإذا تكرر اللفظ فيكون معناه

(١) الكشف، ج ٢، ص ١١٤، ويمكن أن نستهدي بقول سيبويه إن معاني (فعل) تكاد تنحصر في الطبائع والسجاياء، في حين أن (فعل) تنحصر في الأعراض والأدواء والعلل. وهذا يعني أن تلك الصفة (بُعِدَتْ) كانت فيهم بمثابة الطبيعة والسجية، وهو ما يقوي الإحساس الذي المعنا إليه. ينظر، بحث (اقتران الفعل ودلالته)، د. محمد خليفة الأسود، ص ٣٥٨.

في كل مرة مختلفاً عن معناه في المرة السابقة^(١). هذا إذا كان اللفظ واحداً دونما تغيير، فإذا كان ثمة تغيير في نوع الجملة أو نوع الفعل أو صيغة الفعل أو زمنه، فالاختلاف في المعنى أولى.

رابعاً: زمن الفعل:

مدار البحث هنا عن الأفعال المتشابهة إلا من حيث زمنها في موضعين متجاورين من النص القرآني أو متباعدين. وليس من هدف البحث أن يقف طويلاً عند دراسة زمن الفعل في التراكيب العربية، فهذا مبحث متشعب الأطراف في الكتب النحوية خاصة، فهناك حديث عن الفعل بشكل عام من حيث اشتماله على الحدث وعدم اشتماله على الحدث، وهناك وظائف خاصة لكل زمن من أزمان الأفعال الثلاثة الماضي والمضارع والأمر^(٢). ويهمنا أن نقف بشكل خاص عند تناوب أزمنة الأفعال بمعنى أنه قد يعبر عن الماضي بالمستقبل، وقد يعبر عن المستقبل بالماضي، إلى غير ذلك من الأزمنة. فقد جاء في أمالي الشجري (أن العرب قد أوقعت بعض أمثلة الأفعال موقع بعض مع حصول العلم بما يقصدونه، فأوقعوا الماضي في موضع المستقبل، والمستقبل في موقع الماضي)^(٣). شريطة أن يقترن بالفعل ما يدل عليه من لفظ أو حال. كما أن اقتران الفعل بحروف المعاني المعروفة يغير من دلالاته ووظيفته، وهذا ما يساعدنا على فهم اختلاف أزمنة الأفعال في الآيات المتشابهات.

(١) تفسير الشعراوي، ص ٤٧ عن بحث الأستاذ سعيد الفاندي (من أسرار الآيات المتشابهات) ص ٢٦١.

(٢) ينظر بحث (التحليل الدلالي للفعل في اللغة العربية)، د. محمد خليفة الأسود، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ع ٧، ١٩٩٠، ص ٣٥١.

(٣) عن بحث (تناوب الصيغ في التعبير العربي) الأستاذ بشير زقلام، ع ٤، ١٩٨٧، ص ٣٢٦.

ولنتأمل هذين النموذجين المتشابهين إلا من حرف الجر وزمن الفعلين :

١ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ٧].

٢ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧].

فما السر وراء مجيء الفعل بالمضارع مرة وبالماضي أخرى؟
إن استعمال الفعل المضارع (يضل) في الأنعام جاء مناسباً لسياق الكلام الدائر حول المستقبل لبيان مبدأ عام فيما يتعلق بالاتجاه السائد في موقف البشر من الرسل ومن الرسائل السماوية، كما يلاحظ من معنى الآية السابقة لآية الأنعام، وهي: ﴿وَلَنْ تُلَاقَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]. أما سورة القلم فإنها تتحدث عن قوم ضلوا بالفعل، وقالوا عن الرسول بأنه مجنون وعن القرآن بأنه سحر^(١).

هذا ملحظ معنوي هام يعين عليه السباق السابق، وهناك ملحظ معنوي آخر تعين عليه طبيعة التركيب في لغة العرب، وهو أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ بالفعل المضارع معناه أن الله - سبحانه - يعلم أي المأمورين يضل عن سبيله: أزيد أم عمر؟ وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ معناه أنه أعلم بابتداء ضلاله وانتهاء أمره، وهل يقيم على كفره، أم يقلع عن غيه لرشده^(٢).

ولقد أشرنا إلى عناية اللغويين والبلاغيين بفكرة التناوب بين أزمان

(١) الأسرار، ص ٧٤، وانظر خاتمة الكتاب للمحقق، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٢) الدرة، ص ١٢٩.

الأفعال، والعدول من بعضها إلى الآخر. وقال المفسرون بأن قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]، بمعنى سوف يأتي، وبالعكس فإن قوله سبحانه: ﴿فَلَمَ تَقْتُلُونَ أُنْيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٩١]، بمعنى قتلتم^(١)، وهو التعبير بالماضي عن المستقبل، وبالمستقبل عن الماضي ونلاحظ صورة من هذا في التشابهات في مثل:

١ - ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧].

٢ - ﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

فجاء التعبير بالماضي في الأفعال الثلاثة (فزع، ونفخ، وصعق) للإشعار بأن ما سوف يقع يشبه ما هو ثابت في الماضي، أو لصدق المخبر بما أخبر به، كما يقول الطبرسي^(٢). وهذا أمر يطرده كثير من الأفعال الماضية المتحدثة عن المستقبل في مشاهد يوم القيامة خاصة. وجاء التعبير بالمضارع (ينفخ) في آية النمل على الأصل في الحديث عما سيقع.

وليك هذه النماذج من التنوع في الأزمنة في التشابهات القرآنية:

١ - ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الاعراف: ٥٧].

٢ - ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨].

(١) بحث (تناوب الصيغ في التعبير العربي) ٣٢٦، كما ينقل عن القرطبي ج ٥، ص ٢٠٥. وينظر: (مجمع البيان في تفسير القرآن)، للطبرسي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج ١٤، مج ٤، ص ٥٢.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، الموضع نفسه.

٣ - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: ٤٨].

٤ - ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ مَحَابِلًا﴾ [فاطر: ٩].

بالمضارعة في آيتي الأعراف والروم، وبالمضَيّ في آيتي الفرقان وفاطر. ونجد التناسب المعنوي واللفظي في آيتي الأعراف والروم، لأن ما قبل آية الأعراف ذكر للخوف والطمع، وهو قوله: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وهما يكونان في المستقبل لا غير، فكان يُرسل بلفظ المستقبل أشبه بما قبله. والمعنى نفسه أو يقرب منه في السياق السابق لآية الروم وفي آية رقم (٤٦) خاصة.

أما في آيتي الفرقان وفاطر حيث جاء الفعل بالزمن الماضي (أرسل)، فلأن الأفعال السابقة لهما جاءت بالماضي كذلك، فكان الماضي هنا أليق بالمقام، وهو في مقام تعداد النعم التي من الله بها على عباده، وكان إرسال الرياح من جملتها، وأخبر عنه بعدما تقدم من جنسه^(١).

ويبدو لي أن الفعل المضارع يتسم بخاصية تكسبه الدلالة على العموم الزمني الذي يشمل الماضي والحاضر والمستقبل، وذلك حين يتحدث عن حقائق ثابتة، أو صفات راسخة، أو يستحضر حالة، أو يشير إلى عادة تتكرر. فإذا قلت: الشمسُ تشرق صباحاً وتغيب مساءً، أو يطيب العيش مع الناس الكرام، والله يمنُّ على عباده الصالحين بالخيرات. أحسست أنَّ دلالة الفعل المضارع على الحدث تشمل الأزمان كلها، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. وكأن (يرسل) في آيتي الأعراف والروم ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ تتحدث عن قدرة الله الدائمة على إرسال الرياح وليس عن لحظة زمنية ارسل فيها الرياح نعمة منه على قوم

(١) الأسرار، ص ٨١، والدرة ١٤٨.

معينين . وفي القرآن صور للمضارع كثيرة تعبر عن هذه الدلالة من مثل ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] . و﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨] . فسجود الشجر لله طبيعة في الأشياء سخرها له ، واتباع الكفار والضالين للظن طبيعة ونازع مركب فيهم ، وإن الظن حقيق به ألا يغني من الحق شيئاً ، وهو أمر طبعي فيه . . . وهكذا .

ولننظر إلى مثال من المتشابه يحقق لنا هذه الإشارة في الفعل المضارع :

١ - ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ [الشورى: ٧] .

٢ - ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى: ٣] .

والظاهر أن التعبير بالماضي في الآية الأولى إشارة إلى حدث وقع في الماضي وهو بداية الوحي للنبي (عليه الصلاة والسلام) ، أما المضارع في الآية الثانية فكأنه إشارة إلى نعمة الوحي التي يمن الله بها على الأنبياء من لدن سيدنا آدم إلى سيدنا محمد ﷺ . وهي نعمة استمرت قبل عصر النبوة المحمدية وكانت تتوالى في زمن النبوة كذلك .

وتجد هذا الإيحاء في الفعل المضارع (يصدّون) في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الحج: ٢٥] .

فكفرهم كان ، ووجد ، ولم يستجدوا كفراً ثانياً ، وصدهم عن سبيل الله متجدد على الأيام ، وإنما هو مستمر في كل حين ، وبذلك تستحضر صورة الفعل وهيئته ليكون السامع كأنه يشاهدها ويتملاها عياناً . أما في الآية المشابهة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٦٧] . فدلالته على مضي الكفر والصدود واضحة ، خاصة وأن السياق التالي قد

أكد هذا الماضي ﴿قَدْ صَلَّوْا صَلَلاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١٦٧]، بينما سياق آية الحج يحذف فيه خبر (إِنَّ) بدلالة جواب الشرط عليه، أي نذيقهم من عذابٍ أليم^(١)، وهذا التقدير بصيغة المضارعة التي عرفت من مرونة زمنها ما عرفت.

ويبدو أن الفعل الذي يأتي ماضياً في آية ومضارعاً في آية أخرى، يعتبر عن دلالة أخرى وهي من معطيات السياق، كما نلاحظ في هذين النموذجين:

١ - ﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

٢ - ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر: ٢٥].

وهي أنه جاء في حالة الماضي، كما في آية آل عمران، لأنه أحضر من المضارع. وأخف في النطق وجاء الجزاء مبنياً للمجهول مراعاة للاختصار، لأن الآية نزلت في قوم من اليهود كذبوا رسلهم، فجاءت الآية تسلية للرسول وحثاً له على الصبر والتحمل، في حين أن آية فاطر نزلت في حق مشركي قريش الذين كذبوا الرسول في حال مجيئه لهم بالدعوة إلى الله، فعبر بالمضارع حكاية للحال، والمضارع أكثر حروفاً من الماضي، فناسب ذلك بسط الكلام في الجزاء فجاء مبنياً للفاعل وهو أطول من المبني للمجهول^(٢)، وكان هذا تناسباً ومراعاة لحال المخاطب من خلال زمن الفعل، وبنائه للفاعل أو المفعول، فضلاً عن تكرار حروف الجر في آية دون أخرى كما هو في السياق التالي لآية فاطر.

نتهي من هذا إلى القول بأن مبحث الفعل في الكتاب الكريم متعدد

(١) ينظر مجلة (هدى الإسلام)، مجلة كانت تصدرها وزارة الأوقاف في ليبيا، مقال التشابه في القرآن، الشيخ عبد العزيز شرف، عدد ٤، ١٩٦٨. والمقال ضمن سلسلة طويلة من المقالات حول الموضوع.

المناحي، وقد تناولناه من حيث نوعه وصيغته وزمنه، ولاحظنا تنوع دلالاته، وقد مرّ بنا أنه قد يتكرر بنفسه، ولكن دلالاته تتنوع، وذلك من خلال ما يكسبه السياق من إحياء. ولهذا نستطيع أن نقرر أن التنوع وليس التكرار هو الطابع العام لأسلوب القرآن، وقد لاحظنا صورة منه في الفعل نموذجاً، وما بدا منه تكراراً فهو ليس كذلك في حقيقته، وذلك لمن تمعن النظر فيه وألهم الذوق وأكرم التسديد.

الفصل الثالث

التشابه في التقديم والتأخير

تمهيد:

لا نريدُ أن ندرس كلَّ تقديم وتأخير ورد في القرآن، فبهذا مبحث طويل، بل نريد الوقوف عند الأساليب المتشابهة في القرآن في مجال التقديم والتأخير، بحيث يرد الأسلوب مرتين: الأولى بالتقديم والثانية بالتأخير. وهذا المقدم أو المؤخر متنوع، كما سنلاحظ، فقد يكون في مجال الإسناد بين ركني الجملة من المبتدأ والخبر، أو في مجال متعلقات الفعل، أو في المعطوفات من المفردات والجمل، أو في الصفات، أو في مفردات وجمل أخرى لا تخضع لهذه المجالات.

وإننا نرى أن دراسة التقديم والتأخير أو غيره من الأساليب في إطار المتشابهات يساعد على استجلاء الفكرة والأسلوب بشكل أكثر دقة وعمقاً مما لو درسنا الأسلوب بدون شبيهه أو ضده.

إن الدراسة الأسلوبية تؤكد لنا أن تحولات الصياغة ذات أثر هام في تغيير المعنى أو اكتسابه دلالات جديدة، أو إحياءات جديدة. فالأصل أن يكون المقدم مقدماً والمؤخر مؤخراً، ولكن دواعي فكرية ونفسية كثيرة تطرأ على كيان المنشئ فتجعله يقدم مؤخراً، أو يؤخر مقدماً، وليس ذلك من قبيل الترف أو تلوين الكلام وتزيينه. وينقل أبو هلال العسكري عن العتابي قوله: (الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما نراها بعيون

القلوب، فإذا قَدِّمَتْ منها مؤخراً، أو أَخَرَتْ منها مُقدِّماً، أَفسدت الصورة، وَغَيَّرَتْ المعنى، كما لو حَوَّلَ رَأْسُ إِلَى مَوْضِعِ اليَدِ، أو يَدٌ إِلَى مَوْضِعِ رِجْلِ، لَتَحَوَّلَتِ الخَلِيقَةُ، وَتَغَيَّرَتِ الحَلِيَّةُ^(١). وَهُوَ بِهَذَا يَشِيرُ إِلَى التَّغْيِيرِ الَّذِي لَا يُرَادُ مِنْ وَرَائِهِ هَدَفٌ، أَمَّا مَا أُرِيدُ وَرَاءَهُ هَدَفٌ، فَيَعُدُّ مِيدَاناً مِنْ مِيَادِينَ فِرْسَانَ الْبَلَاغَةِ، وَحَلْبَةً مِنْ حَلِبَاتِ سِبَاقِهِمْ وَتَفَنَّنِهِمْ. وَلَقَدْ نَوَّهَ بِهِ كَبَارُ عِلْمَاءِ الْبَلَاغَةِ ابْتِدَاءً مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ مَعْمَرِ بْنِ الْمَثْنَى الَّذِي عَدَّهُ مِنْ مَجَازَاتِ الْقُرْآنِ، وَتَوَالَى هَذَا التَّنْوِيهِ حَتَّى وَصَلَ قَمَّتَهُ عَلَى يَدِ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيِّ الَّذِي قَالَ عَنْهُ إِنَّهُ (بَابُ كَثِيرِ الْفَوَائِدِ جَمُّ الْمَحَاسَنِ، وَاسِعُ التَّصَرُّفِ، بَعِيدُ الْغَايَةِ، لَا يَزَالُ يَفْتَرُّ لَكَ عَنْ بَدِيعَةٍ، وَيُفْضِي بِكَ إِلَى لَطِيفَةٍ...)^(٢).

وَلَقَدْ تَحَدَّثَ الْعُلَمَاءُ عَنْ دَوَافِعِ التَّقْدِيمِ فَعَدُّوا مِنْهَا الْكَثِيرَ مِنْ مِثْلِ الشَّرَفِ وَالتَّعْظِيمِ وَالِاخْتِصَاصِ وَتَقْوِيَةِ الْحُكْمِ، وَالْكَثْرَةِ، وَالتَّدرِجِ الزَّمَنِيِّ، وَالسَّبَبِ، وَالتَّعَجُّبِ وَالِاسْتِلْذَاذِ^(٣). ثُمَّ أَضَافَ إِلَيْهَا الْمُحَدَّثُونَ وَجُوهاً كَثِيراً^(٤)، وَلَيْسَ هُنَاكَ حَصْرٌ ثَابِتٌ لَوْجُوهِ الْكَلَامِ وَدَوَاعِيهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْأَثِيرِ أَنَّهُ فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ يَكُونُ التَّقْدِيمُ هُوَ الْأَوْجِبُ لِأَنَّهُ مَعَ التَّأخِيرِ تَكُونُ الْمَعَاضِلَةُ وَاضْطِرَابُ الْمَعْنَى، وَهُنَاكَ قِسْمٌ

(١) الصناعتين، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط ٢، ١٩٨٩، ص ١٧٩.

(٢) دلائل الإعجاز، تحقيق الشيخ محمد عبده وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط. ١٩٨٨، ص ٨٣.

(٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، د. ت. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٣، ص ٢٧٩.

(٤) البلاغة العربية، قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان، ط ١، ١٩٩٧، ص ٢٥١.

من هذا التقديم يكون هو الأبلغ في التعبير بحسب سياق الكلام وضروراته^(١)، كما سنلاحظ.

وما من شك في أن التأمل في صور التقديم والتأخير ودوافعه ينتهي بنا إلى القول بأن هذه الألوان من التعبير إنما تقوم على أسس نفسية كلما تعمقناها زاد إحساسنا وتأثرنا بهذه الألوان.

ويهمنا أن نقف عند معالم محدّدة من صور التقديم والتأخير في القرآن في حالات تكرارها المتشابه، علماً بأنه ليس هناك تكرار تام في القرآن إلا في حالات قليلة، وحتى هذه الحالات لا تعد تكراراً لاختلاف المراد منها في كل مرة.

ركنا الإسناد:

لا يبدو أن في الأسلوب القرآني أمثلة لتقديم أحد ركني الإسناد على الآخر إلا في حالات قليلة في حدود النماذج المتشابهة، اقصد الأصل الذي يكون المقدم مقدماً، والمحوّل الذي يكون فيه المؤخر مقدماً.

فمن أمثلة تقديم المسند على المسند إليه قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢]، وفي الجاثية: ﴿فَلِلَّهِ الْمُنَادُ﴾ [الجاثية: ٣٦]. فجاء التعبير الأول على الأصل، والثاني على تقدير الجواب، فكأنه قيل لمن الحمد؟ فجاء الجواب: لله^(٢)، ومثله قوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ ثم قال: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وإذا تجاوزنا التقدير المنطقي الذي يلجأ إليه النحاة، والبصريون

(١) المثل السائر، نهضة مصر، د. ط، د. ت، ج ٢، ص ١٧٢. تحقيق د. الحوفي، ود. طبانة.

(٢) البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٢٨٤.

منهم خاصة، فإنَّ ركني الإسناد الفعل والفاعل يتناوبان في هذين التعبيرين من حيث التقديم والتأخير كما يلي:

١ - ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

٢ - ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨].

ولا يفوت العلماء هذا التغير في التعبير، فيرون أنَّ الآية الأولى تضمّنت مشروعية التوبة، والثانية أخبرت عن قبولها^(١).

قلت إن تغيير ركني الإسناد بالتقديم والتأخير لا يرد إلا قليلاً في القرآن، لما في هذا التغير من أثر دلالي كبير لا يكون المتلقي مرشحاً لقبوله إلا بعد قرائن ممهدة ودالة على أولوية هذا التغير. وربما كان الأمر أهون مع التقديم لمتعلقات الفعل أو المعطوفات أو الموصوفات إذ يبقى ركنها الجملة من المبتدأ والخبر والفعل والفاعل كما هما، وإنما يحدث التغير في «الفضلات»، أو ما هو خارج ركني الإسناد اللذين هما عماد الجملة وأساسها التوصيلي للأفكار.

المتعلقات:

يكثّر في الكتاب العزيز تقديم متعلقات الفعل عليه في غير صور الآيات المتشابهات، من مثل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] في سورة الفاتحة، وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحْسُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨]. وقوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [٢٠] ﴿ثُمَّ لِنَجْعِمَ صَلْوَهُ﴾ [الحاقة: ٣٠، ٣١]. وهذا ما يكون للاختصاص، وإن ذهب العلامة ابن الأثير إلى أنه قد يكون للفضيلة السجعية، وللمحافظة على رؤوس الآي^(٢)، ولكن هذا لا يمنع

(١) ينظر بحث الأستاذ سعيد سالم الفاندي، من أسرار الآيات المتشابهات، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ع ١٣، ١٩٩٦، ص ٢٦١، ومصدره تفسير ابن عرفة، مخطوط.

(٢) المثل السائر، ج ٢، ص ١٧٣.

من أن يكون هذا التقديم للاختصاص، ومراعاة الوقع الصوتي في الفواصل القرآنية، لأن من نهج القرآن في الغالب أن يتعلق بالجانب المعنوي، وإن لم يهمل الجانب الشكلي الذي يغني المعنى ويثريه.

أما تقديم بعض المتعلقات على بعضها فنجد أمثله في المتشابهات أكثر من المتعلقات المتقدمة على عاملها من الفعل. وما من شك في أن هذا لا يخلو من غرض، مثله مثل الحالة الأولى من تقديم المتعلق على عامله.

إن تقديم بعض متعلقات الفعل على بعضها (يجري على نسق دقيق من مراقبة المعاني وأحوال النفس) كما يقول الدكتور محمد حسين أبو موسى^(١). فمن الأسس التي يبنى عليها. ترتيب هذه المتعلقات، أنهم يقدمون منها ما هو أوثق صلة بغرض الكلام وسياقه، كقوله تعالى في هاتين الآيتين المتشابهتين:

١ - ﴿وَلَا تَقْنُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ أَمْلَقَ تَحْنُ نَزُّقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

٢ - ﴿وَلَا تَقْنُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَزُّقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

فقد تقدم ضمير المخاطبين على الأولاد في الأولى، لأن الخطاب موجه للفقراء، والحديث عن ضمان رزقهم أولى من الحديث عن رزق أولادهم. أما في الثانية فالحديث عن الأغنياء الذين لا يخشون من الإملاق في يومهم، ولكنهم يخشونه غداً على أولادهم، فكان الضمير المقدم هو العائد على أولادهم الذين سيرزقهم الله وإياهم، وهو هين عليه.

(١) دلالات التراكيب، منشورات جامعة بنغازي، ليبيا، ط١، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ص٣٣٣، وينظر أسرار التكرار في القرآن، للكرماني، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار بوسلامة، تونس، ط١، ١٩٨٣، ص٧٥.

وللعلماء إشارات أسلوبية لطيفة في تقديم بعض المتعلقات على الأخرى، من ذلك قولهم في هاتين الآيتين المتشابهتين إلا من حيث تقديم متعلق على آخر:

١ - ﴿قَالَ يَنْفُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْفَرٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِيهِ﴾ [هود: ٢٨].

٢ - ﴿قَالَ يَنْفُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْفَرٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣].

قال الإسكافي في الجمع بين المفعولين في الآية الأولى دون فاصل ﴿وَأَتَنِي رَحْمَةً﴾ مراعاة للأفعال الثلاثة السابقة لهذا السياق، وهي أفعال متعدية إلى مفعولين، وتعدت إلى مفعوليهما بدون حائل من الجار والمجرور^(١)، وهي قوله تعالى: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشْرًا نَثْلْنَا﴾، ﴿وَمَا نَزَّلَكَ أَبْعَلَك إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَذَّبُوا﴾ [هود: ٢٧] أما في الثانية في قصة صالح عليه السلام، فقد جاء قبلها: ﴿يَصْلِحْ فَذَكَرْتُ فِينَا مَرْجُوءًا﴾ [هود: ٦٢]، وقد تقدم الجار والمجرور (فينا) على خبر كان الذي هو كالمفعول لكان، فجرى جواب صالح على نمط ندائهم من حيث تقديم الجار والمجرور (منه).

أما الكرمانى فيرى أن (عنده)، وإن كان ظرفاً، فهو اسم، فذكر في الآية الأولى بالتصريح، ثم ذكر بالثانية بالكتابة أي بالضمير، لأن الضمير يتقدمه الظاهر^(٢)، ومثل الآية الثانية ما جاء بعدها من ذكر الضمير اعتماداً على الظاهر السابق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨].

(١) درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الاسكافي، دار الآفاق الجديدة، بيروت،

ط ٤٤، ١٤٠١ م، ١٩٨١ م ص ٢٢٠.

(٢) أسرار التكرار، للكرمانى، ص ١٠٧.

ومثل هذا قوله تعالى في هذين النموذجين من الآيات:

١ - ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَآخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤].

٢ - ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ﴾ [فاطر: ١٢].

فقد جاءت الأولى على الأصل من حيث تقديم المفعول الأول (مواخر)، وتقدم الجار والمجرور في الثانية ليناسب التقديم الذي سبقه في الآية نفسها: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيبًا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢] ويبدو أن تقديم (مواخر) في الآية الأولى يوجه الأنظار إلى الفلّك نفسها من حيث إنها هي السبيل إلى استثمار البحر وتسهيل السير فيه. وفي الثانية حيث تقدم الجار والمجرور المفعول ﴿فِيهِ مَوَآخِرَ﴾، يسوقنا التعبير إلى نعمة البحر نفسه من حيث إنه آية من آيات الله، في فوائده الجمّة، وفي اللحم الذي فيه، والحلي التي تستخرج منه، والسفن التي تجري فيه. والله أعلم.

وتتعدد أغراض هذا التقديم للمتعلقات حسب السياق الذي وردت فيه، ففي قوله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، تأخر المتعلق ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ على شبه الفعل ﴿شُهَدَاءَ﴾؛ (وذلك لأن الغرض من الأولى إثبات شهادتهم على الأمم، وليس فيها معنى الاختصاص، وفي الثانية اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم، وليس مجرد إثبات شهادته عليهم)^(١)، ولذلك قدّم المتعلق ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على شبه الفعل ﴿شَهِيدًا﴾.

وتتكرر صياغة هذه الآية، ولكن في سياق آخر وغرض آخر من التقديم والتأخير، وذلك في هاتين الآيتين المتشابهتين:

(١) دلالات التراكيب، ص ٣٣٠.

١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾

[المائدة: ٨].

٢ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ﴾ [النساء:

١٣٥].

ففي آية المائدة يتقدم لفظ الجلالة المتعلق ﴿لِلّٰهِ﴾ ويرتبط بالقوامة لأن السياق كان وارداً في التذكير بميثاق الله، فكان الأولى أن يكون المقام الأول للحض على القيام لله^(١). أما آية النساء، فقد وردت في سياق العدل في الشهادة، وعقب القضاء في الحقوق، والخطاب فيها للولاء بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: ٨] في الآية نفسها، ولذلك كان المتعلق الجار والمجرور هذه المرة هو ﴿بِالْقِسْطِ﴾ وليس لفظ الجلالة ﴿لِلّٰهِ﴾، لأن القوامة هنا مرتبطة بالعدل الذي جاء السياق موظفاً لخدمته^(٢). وهكذا ترى الضوء يُسلط في كل مرة على المتعلق (الجار والمجرور) لارتباطه بالفعل أو شبهه، الذي سيق الكلام من أجله. وهذا معنى قول الزمخشري: (التقديم دليل على أنَّ المقدم هو الغرض المعتمد بالذكر، وأن الكلام إنما سيق لأجله)^(٣).

وشبيه لهذه الآيات قوله تعالى:

١ - ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣، والإسراء:

٩٦].

٢ - ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ [العنكبوت: ٥٢].

(١) بحث (من أسرار الآيات المتشابهات)، مجلة الدعوة، ص ١٧٦.

(٢) درة التنزيل، ص ٨٤، وأسرار التكرار، ص ٥٨.

(٣) الكشف، ط البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٤٨، ج ٢، ص ٤٦٠.

ولهذا نظير في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز^(١).

في المعطوفات: لا نتحدث هنا عن مواضع العطف وعدمه، أو ما يسمّى في مباحث علم المعاني بالوصل والفصل، بل نتناول المعطوفات من حيث تقديم بعضها على بعض في إطار من الآيات المتشابهة، موضوع بحثنا، ونبدأ بالحديث عن العطف بين الجمل ونثني بالحديث عن العطف بين المفردات.

أولاً: العطف بين الجمل:

ترد في القرآن الكريم آيات متشابهة غير أنها تختلف في بعض الأحيان من حيث التقديم والتأخير بين الجملتين الفعليتين اللتين تتكون منهما الآية. ولا يكون ذلك إلا لهدف معين من أهداف التوجيه القرآني، وغرض من الأغراض التي يساق إليها التقديم، وهي كثيرة.

من ذلك أننا نلاحظ أن التعبير القرآني يكثر من تقديم الفعل (يضل) على (يهدي) في مثل قوله تعالى:

﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣، وفاطر: ٨].

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وذلك للدلالة على أن الابتداء بالضلالة هنا، إنما تمّ بعد الهداية التي كانت قبل الخلق في الفكرة الأولى، أي أن الإنسان ينحرف عن منهج الله فيضله الله. فالإضلال هو الحادث الأول بعد الهداية الأولى،

(١) من مثل ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ إِلَّا لِيُغَيِّرَ اللَّهُ بِهٖمُ أَوَّلَٰهُمْ لِيُظْهِرَ لَهُمُ أَهْلَٰهُمُ﴾ [البقرة: ١٧٣]، و﴿وَمَا أُولَٰئِكَ إِلَّا لِيُغَيِّرَ اللَّهُ بِهٖمُ أَوَّلَٰهُمْ لِيُظْهِرَ لَهُمُ أَهْلَٰهُمُ﴾ [المائدة: ٣، والأنعام: ١٤٥، والنحل: ١١٥] وينظر قوله تعالى: ﴿وَلِيُظْهِرَ لَهُمُ أَهْلَٰهُمُ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقوله: ﴿وَلِيُظْهِرَ لَهُمُ أَهْلَٰهُمُ﴾ [الأنفال: ١٠].

وهذا في تقدير الله لمن يستحق هذا الإضلال في علمه القديم . ولما كان هذا هو الغالب في بني آدم أي أن أغلبهم ينحرف عن منهج الفطرة، كان الغالب في التعبير القرآني هذا التقديم للإضلال على الهداية .

أما تأخير الجملة الفعلية (يضل) عن (يهدي) في مثل قوله تعالى : (وهو الأقل) ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىُّ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨] . فذلك للدلالة على أن القليل من البشر هم الذين يستمرون على حالة الهداية الفطرية الأولى التي فطر الله الناس عليها جميعاً . ثم إن هذه الآية، ومثلها في الكهف: ١٧ ، جاءتا داليتين على معنى قائم بنفسه ، وهو أن من يهده الله ، فلن تستطيع أية قوة في الكون أن تضله ، ومن يضلله فهو كذلك . وليستا - كما يبدو - في مجال بيان فكرة التغيير الأول الذي يحدث بعد الهداية الفطرية ، كما أشارت آيات تقديم الجملة الفعلية (يضل) على جملة (يهدي)^(١) .

وعلى هدى هذه الآيات المتشابهات من حيث مراعاة الكثرة والقلة في جانب منها، نتأمل كثرة تقديم الجملة الفعلية (يغفر) على (يعذب)، وقلة تقديم (يعذب) على يغفر . فعلى النموذج الأول قوله تعالى :

١ - ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] .

٢ - ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران، ١٢٩، والمائدة:

[١٨] .

وذلك للدلالة على كثرة المغفرة من الله تعالى ، رحمة منه وتفضلاً ، وترغيباً للعباد في المسارعة إلى موجبات المغفرة . أما في الشكل الثاني من تأخير المغفرة ، وتقديم العذاب في مثل قوله تعالى :

(١) ينظر كتابنا، الاعجاز القرآني، أسلوباً ومضموناً، دار المرتضى، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، ص٩٤.

١ - ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ﴾ [المائدة: ٤٠].

٢ - ﴿إِنْ تُمَذِّبْهُمْ فَاِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنْتَ الْمَرْزُقُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فلأن الآية الأربعين من المائدة نزلت في حق السارق والسارقة، وعذابهما يقع في الدنيا^(١). أما في الآية الثامنة عشرة بعد المائة في المائدة نفسها، فقدم العذاب لأنه جاء بعد ذنب وظلم عظيم، وهو الشرك بالله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. وتلك المراعاة الدقيقة للمعاني من دقائق اعجاز القرآن ومن أسرارها التي تراعي التناسب المعنوي بين السوابق واللاحق، على خلاف الكلام البشري الذي يكثر فيه التجوز ونسيان هذه السوابق واللاحق، كما قال الأستاذ عبد القادر أحمد عطا^(٢).

ولمراعاة السياق والتوجيه التربوي والنفسي الهادف، دخل في التقديم والتأخير في مثل هذين النموذجين المتشابهين:

١ - ﴿وَلَيْنِ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

٢ - ﴿وَلَيْنِ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨].

فقد قدمت الجملة الفعلية (قتلتم) على (متم) في الآية الأولى، ثم أخرجت في الآية الثانية، وقدمت لاحقتها، لأن في الأولى تشريفاً وتعظيماً للقتل في سبيل الله، وأنه أعظم من الموت الطبيعي، خاصة أن ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وردت في الأولى دون الثانية، وهي إشارة إلى الجهاد في

(١) أسرار التكرار، ص ٤٥.

(٢) نفسه، ص ٤٥، الهامش.

سبيله وإعلاء كلمته . وفي الآية الثانية إشارة إلى أن الموت واقع على الجميع ، وأنهم يُحشرون إلى الله ، لا تخفى منهم عليه خافية^(١) .

ويختلف العلماء في الهدف من تقديم بعض الجمل على بعضها في إطار المتعاطفات من الآيات المتشابهات من مثل قوله تعالى :

١ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] .

٢ - ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١] .

فيرى الخطيب الإسكافي أن ما أخبر عنه الله - سبحانه - عن قصص الأنبياء لم يقصد به حكاية الألفاظ بأعيانها ، وإنما قصد منها حكاية معانيها ، ولهذا جاز فيها التقديم والتأخير ، وحذف بعض الكلمات أو التعبير عن المعنى بأي لفظ كان^(٢) ، ويرى الزركشي أن هذا من قبيل التفنن في الفصاحة وإخراج الكلام على عدة أساليب^(٣) . بينما يقول باحثون معاصرون إن هذا الكلام لا معنى له ، لأن التفنن في الأساليب إذا لم يكن وراءه فائدة بلاغية معنوية كان تكراراً لفظياً لا يليق بكلام الله عز وجل ، ويرون أن الذي جعل الصياغتين تردان مرة بالتقديم ومرة بالتأخير في الآيتين السابقتين هو توكيد (القرآن على وجوب اهتمام بني إسرائيل بدعاء الله ، في طلب المغفرة ومحو الذنوب على كل حال كانوا

(١) الإعجاز الفني في القرآن ، عمر السلامي ، مؤسسة عبد الكريم بن سلامة ، تونس ، ط ١ ، ١٩٨٠ ، ص ١١٧ .

(٢) درة التنزيل ، ص ١٠٦ .

(٣) البرهان ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ .

عليها^(١)، أي في حال دخولهم الباب أولاً، أو في حال قولهم حطة، أي يا ربنا أسقط عنا ذنوبنا.

أما في تقديم جملة الركوع على جملة السجود في هاتين الآيتين:

١ - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧].

٢ - ﴿يَمْرِمُ أَفْنِي لِرَبِّكَ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣].

فلأن الركوع يكون من حيث الترتيب قبل السجود، ولأنه يقع أكثر من السجود، في حين أن تقديم السجود على الركوع في الآية الثانية جاء في سياق الحديث عن مريم، وهي نموذج إنساني متميز في التبتل والعبادة والسجود، فناسب أن يرد ذكر السجود مع ذكرها.

ثانياً: عطف الأسماء:

يكثر التنوع بين التقديم والتأخير في عطف الأسماء في إطار التشابه بين آيات الكتاب الحكيم، بدرجات تفوق العطف بين الجمل كما لاحظنا في الفقرة السابقة للأغراض السابقة التي مرّت علينا، ولأغراض جديدة أخرى، كما سنلاحظ.

اللهو واللعب:

يرد هذان الاسمان مرة بتقديم اللهو على اللعب، ومرة بتقديم اللعب على اللهو، ولكن الأكثر وروداً اللعب مقدماً على اللهو، كقوله تعالى:

١ - ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢].

٢ - ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

(١) بحث (من أسرار الآيات المتشابهات)، ص ١٨٤.

وإنما قدم اللعب على اللهو في الأكثر لأن اللعب زمان الصبا، واللهو زمان الشباب، وزمان الصبا متقدم على زمان الشباب^(١).

وأما تقديم اللهو على اللعب في مثل قوله تعالى:

١ - ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

٢ - ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَوةُ﴾

[الأعراف: ٥١].

ف(لأن الأزمنة التي يقصرها اللهو أكثر من الأزمنة التي يقصرها اللعب، لأن التشاغل به أكثر)^(٢).

وقد أشير إلى الفروق في المعنى بين اللهو واللعب إلى أن كل لهو لعب، وليس كل لعب لهو، لأن اللهو مَشغلة بغير نفع وبما لا يُجدي، وقد يكون اللعب بما هو مفيد ومجد^(٣). وقيل إن اللهو أكثر ما يتعلق بمتع النساء، واللهو بلغة اليمن المرأة^(٤).

وخلاصة الأمر أن الحديث هنا عن اللهو أولاً جاء في المقارنة بين هذه الدنيا السريعة الانقضاء في لهوها القليل البقاء، وبين الآخرة ﴿وَلَا الدَّارَ الْآخِرَةَ لِهِيَ الْحَيَوةُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أي التي حياتها تبقى أبداً، ولا تعرف أمداً، وبدأ هنا بما هو كثير فيها، أقصد اللهو، للدلالة على أنه في حقيقته قليل إذا قيس بدوام نعيم الآخرة.

(١) أسرار التكرار، ص ٦٨، والبرهان، ج ١، ص ١٢١.

(٢) درة التنزيل، ص ١٢٤.

(٣) الفروق اللغوية، أبو الهلال العسكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٧، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، ص ٢٤٨، وينظر ظاهرة الترادف في ضوء التفسير البياني للقرآن الكريم، د. طالب الزوبعي، منشورات جامعة قارونس، ليبيا، ط ١، ١٩٩٥، ص ١٧٢.

(٤) درة التنزيل، ص ١٢٣.

الأب والأخ والابن:

يرد ذكر الآباء مقدماً على ذكر الأبناء بصيغة الجمع في القرآن في جميع الآيات، وهي كثيرة، في سياق إنكار ما يقلد به الأبناء الآباء في الشرك والضلال، من مثل:

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وفي إطار سلطة الآباء على الأبناء وحملهم على تقاليدهم، وقليل من الآيات يرد فيها ذكر الآباء مقدماً على الأبناء في إطار الطاعة والتفضيل والود في مثل قوله تعالى:

﴿قَدْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [التوبة: ٢٤].

ومثل قوله تعالى:

﴿لَا تَحْجِدُوا قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ولم نجد آية واحدة يتقدم فيها ذكر الأبناء على الآباء.

وفي صيغة أخرى للتقديم والتأخير بين الأخ والابن والابن في هاتين المتشابهتين:

١ - ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۖ (٣٥) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ۖ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۖ (٣٧)﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

٢ - ﴿يَوْمَ الْمُجِزِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ ۖ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۖ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۖ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۖ (١٤)﴾ [المعارج: ١١ - ١٤].

في الآية الأولى بدأ بالأخ ثم انتهى بالأبناء، لأن المقام مقام فرار فالتخلي يتم عن الأبعد وينتهي بالأقرب، أو الأقل ثم الأكثر... وفي

الآية الثانية بدأ بذكر الأبناء وانتهى بذكر الأخ والفصيلة، لأن المقام مقام استغاثة وبحث عن المفدي والمعين والمنقذ، وفي هذا المقام يكون الأبناء مظنة قدرة على ذلك، بينما يكون الآباء أقل قدرة في هذا لمظنة العجز والشيخوخة.

إن الإنسان هنا في مقام اللهفة والحيرة والبحث عن المنقذ (مثل هذا الإنسان يلجأ أولاً إلى أقرب الناس إليه، وهو ابنه، فإن لم يجد، فصاحبتُهُ، فأخوه، فعشيرته، ثم كل من في الأرض إذا كان في ذلك سبب لنجاته. وترتيب المتعاطفات على هذا النسق، بالإضافة إلى أنه تعبير يناسب من حيث تدرجُه حركة الكافر النفسية في ذلك اليوم، فإنه أيضاً تعبير عن اشتعال الحيرة واتساعها بقلب الكافر، وتفاقم التشتت الذي يعتريه. وهذا ما يرمز إليه الانتقال من الأدنى إلى الأبعد عاطفياً ومكانياً في ترتيب المتعاطفات، كما يدل عليه أيضاً العجز عن طلب المعين والاضطراب في التماسه اضطراباً شديداً باتساع دائرة البحث عنه درجة بعد درجة حتى تشمل كلَّ الموجودات في هذا اليوم العظيم^(١).

ومن عَجَب أن علماء المتشابهات لم يشيروا إلى هذا السر في التقديم بين المتعاطفات المفردة من مثل الأسكافي والكرماني. أما المفسرون فقد شغلهم الوقوف عند العطف بين الجمل، وما سمي بالفصل والوصل من المباحث البلاغية في علم المعاني. وإذا كان الزمخشري قد وقف عند تقديم الأخ في آية (عبس)، ولكنه لم يُشير إلى مغزى التباين في ترتيب النسق في المعارج^(٢).

(١) بلاغة العطف في القرآن الكريم، د. عفت الشرقاوي، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨١، ص ١١٠.

(٢) ينظر الكشف، ج ٣، ص ٣١٤.

اليوم الآخر والملائكة:

وفي آيات متشابهات يتقدم ذكر اليوم الآخر كثيراً على الملائكة، وتتقدم الملائكة قليلاً على اليوم الآخر، فمن أمثلة الصورة الأولى:

- ﴿لَيْسَ إِلَهٌ أَن تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِيلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ إِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومن أمثلة الصورة الثانية:

- ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وذلك لأن الإيمان باليوم الآخر بعد الإيمان بالله، كما جاء في السياق القرآني، إيمان بكل ما أخبر الله عنه، وبكل ما أمر وما أرسل من رسل، وما خلق من كائنات خفية. وهذا اليوم يسميه القرآن (يوم الدين) وكأنه الدين كله، وذلك لأن فيه تصفية حسابات للآثار العملية التي أوجدها الدين في الحياة من إخلاص وعمل وعبادات ومعاملات، فأنت إذا أردت أن تُبَكَّتْ إنساناً منحرفاً عن جادة الصواب، أو جاء بعمل منافٍ للتوجيهات الإسلامية، تقول له: أما تؤمن بالله واليوم الآخر... ولا تتحول له أما تؤمن بالله والملائكة، لأن ذكر اليوم الآخر يعني الوقوف بين يدي الله والمآل إليه وتوفيته تعالى لحسابات البشر، ثم رضاه والجنة، أو غضبه والنار!!

أما في النموذج الثاني، تقديم الملائكة على اليوم الآخر، فإن السياق ليس مجالاً لإثبات الرتبة والمنزلة لليوم الآخر، كما مر في النموذج الأول، بل مجال للحديث عن الرسالة والرسول والوسائط التي تنقل الرسالة إلى الرسول وهم الملائكة، حيث نقرأ قوله تعالى قبل النموذج الثاني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ

وَرُسُلِهِ ﴿[النساء: ١٣٦]﴾. بل إن القرآن في بعض الأحيان يذكر الإيمان بالله والملائكة ولا يذكر اليوم الآخر، لأن المشهد مكثف للحديث عن الرسل والكتب والملائكة لهم صلة حميمة بهذا الموضوع، كمثله قوله:

﴿ءَامَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ولا يذكر الملائكة في مواضع كثيرة مع ذكره لفظ الجلالة واليوم الآخر، لأن في السياق استشارة لمكانين الخوف والرجاء في الفطرة الإنسانية، وفيه توجيه تربوي للسلوك والعمل، من مثل قوله:

- ﴿ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢].
- ﴿لَا يَحْجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الأموال والأنفس:

ورد ذكر الأموال مقدمة على الأنفس عشر مرات، ولم ترد الأنفس مقدمة على الأموال إلا مرة واحدة في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [الآية: ١١١].

ففي هذه الآية الوحيدة التي يتقدم فيها ذكر الأنفس على الأموال دلالة على أَنَّ الأموال التي يُحبها البشر حباً جماً لا قيمة لها عند الله إذ قيسَت بالأنفس التي كرمها وجعلها أقدس شيء عنده. فالمشتري هنا هو الله سبحانه وهو لا يشتري إلا الأعزَّ الأجلَّ، ثم إن السياق يتحدث عن القتال والجهد في سبيل الله، والتنافس هنا بالأرواح وطريق ذات الشوكة في سبيل الفوز بالجنة والرضوان، والجود بالأنفس أغلى غاية الجود. أما الآيات الأخرى التي يقدم فيها المال، فالاختيار اختيار الإنسان، وهو بفطرته يقدم المال ويعطيه من الأهمية ما يبلغ به التفضيل على الأنفس،

بل إنه ليرتكب من أجله المحرمات ويعصي الله ويتجاوز حدوده^(١). ولهذا ترى آيات الكتاب العزيز تكثر من تقديم الأموال على الأولاد من مثل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمُولُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. لأن الافتتان بالمال أوخل من الافتتان بالأولاد لما فيه من تعجيل اللذة والوصول إلى كل مسرة والتمكن من البسطة والقوة^(٢).

الجن والإنس:

فيرد تقديم الجن على الإنس تارة، ويرد تقديم الإنس على الجن تارة أخرى، ويبدو أنه لا توجد قاعدة ثابتة في تفسير هذا وإنما لكل موضع غرضه الذي سيق لأجله، وإن كانت حالات تقديم الجن على الإنس أكثر.

فقد تقدم ذكر الإنس على الجن مراعاة للرتبة الشرفية، فالتكليف منوط بهم في الدرجة الأولى. وقد تقدم لفظ الإنس كذلك في مقام التحدي بالقرآن في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ويتقدم الجن على الإنسان عند مراعاة الرتبة الزمنية، فهم أقدم خلقاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَبَّائًا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، بعد ذكر خلق الإنسان من صلصالٍ من حمأ مسنون.

ومن المواضع التي تقدم فيها ذكر الجن على الإنس قوله تعالى في الحديث عن قوة سليمان: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [النمل: ١٧]، لتفوقهم في ذلك، والأمر نفسه يُقال في تقديمهم في قوله تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ لِلْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾

(١) الإعجاز القرآني، أسلوباً ومضموناً، ص ٩٧.

(٢) دلالة التراكيب، ص ٣٣٦.

لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿١﴾ [الرحمن: ٣٣]. فالمقام مقام التحدي الإلهي للثقلين ولا شك أن الجن أقدر على اختراق الأجسام من الإنسان، فبدأ بهم^(١). فالتحدي هنا واقع على الجن والإنس. وأنَّ أيَّ واحد منهم لا يستطيع أن يخترق أقطار السماوات، وإن حاول، كما كانت الجن تفعل في استرقاق السمع من السماء الدنيا، وإن السلطان الذي ذكر هو القانون الإلهي الذي تحدى المولى عباده به، ولكنه أبطل مفعول هذا القانون بالسماح لنبى محمد ﷺ أن يخترق السماوات والأرض برحلة المعراج. فليس من المناسب القول إن الآية تدل على غزو الإنسان للفضاء، فكيف يحجر الله على الخلق أن يتجاوزوا أقطار السماوات ثم يستطيعون بعد ذلك، وإذا قيل إنه سمح لهم بسلطان العلم، فأى علم هذا الذي يبطل تحدي خالق السماوات والأكوان؟!^(٢). ولعلَّ هذا التفسير واقع تحت تأثير الاتجاه العلمي في تفسير الآيات الكونية، وهو تفسير فيه فوائد كثيرة، وفيه شطط كثير كذلك.

الليل والنهار:

ويتقدم الليل على النهار في آيات كثيرة جداً، من مثل:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وهناك عدة أوجه لفهم هذا التقديم، فهو إما مجازاة لعادة العرب في تقديم الليالي على الأيام في الحساب^(٣)، أو لأنه الأسبق في الخلق، لأنه لم يكن نهار قبل خلق الشمس، ولهذا تتقدم في القرآن الظلمات

(١) بحث (من أسرار الآيات المتشابهات)، ص ١٨٢.

(٢) نفسه، ص ١٨٢.

(٣) نفسه، ص ١٨٠.

على النور^(١). أو ربما يكون من قبيل الإلفات إلى آية الليل التي تقترن بالقيام والعبادة بعيداً عن أعين الناس.

ولكننا نجد القرآن في موضعين يقدم النهار على الليل انسجاماً مع توجيه السياق، فقد قدم الصبح، وهو جزء من النهار على الليل في قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرُكُمْ لِنُكْرٍ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ ۖ ﴿١٣٧﴾ وَيَأْتِلُ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]؛ لأن مشاهدة الآثار بالنهار أوضح للمازِينَ من مشاهدتها بالليل، كما قدّم الإصباح على الليل لأنه في سبيل تعداد النعم، ونعمة الصبح أعظم في حياة الناس^(٢)، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿فَالْأُصْبَاحُ يَكُونُ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَبَدَأُوا الصَّابِحِينَ ۖ ﴿٩٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۖ وَالنَّجْمِ إِذَا تَوَلَّىٰ ۖ﴾ [الأنعام: ٩٦].

الشمس والقمر:

ويتقدم ذكر الشمس على القمر في ثماني عشرة آية. من مثل:

- ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣].

لأنها أكثر ضياءً من القمر، بل هي مصدر نوره.

ولا يتقدم القمر على الشمس إلا في آية واحدة، هي:

- ﴿خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ بِرَاجًا ۖ ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٥-١٦].

ولعله من باب التناسب مع ما قبلها من آيات سورة نوح حيث قدم الليل على النهار، وربما مراعاةً للفاصلة الممدودة (طباقاً)، (سراجاً)، (نباتاً)^(٣).

(١) انظر ﴿أَمْ هَلْ سَوَّيْنَا الظُّلُمَتِ وَالنُّورَ﴾ [الرعد: ١٦].

(٢) بحث (من أسرار الآيات المتشابهات)، ص ١٨٦.

(٣) نفسه، ص ١٧٨.

السموات والأرض:

يغلب تقديم السماوات على الأرض في كتاب الله ، ويقل تقديم الأرض على السماوات أو السماء . ففي قوله تعالى :

- ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٨].

تقدم ذكر السماوات ، لأن ما يغيب عن علم البشر فيها أكثر من الأرض .

ثم قدم الأرض على السماوات في الآية التي بعدها :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [فاطر: ٤٠] ؛ لأنه في سياق تعجيز المشركين عن الخلق ، وأمر الأرض في ذلك أيسر من السماء بكثير ، فبدأ بالأرض مبالغة في بيان عجزهم ؛ لأن من عجز عن أيسر الأمور كان عن أعظمهما أعجز . ثم قدم سبحانه السماء في الآية : ٤١ بعدها :

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] تنبيهاً على عظم قدرته سبحانه ، لأن خلقها أكبر من خلق الأرض ، ومن قدر على إمساك الأعظم كان على إمساك الأصغر أقدر^(١) .

وقانون التناسب يكاد يكون عاماً سواء في هذا التقديم أو في غيره .

قال ابن الأثير في تقديم الأرض على السماء في قوله تعالى :

- ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١] . (فإنما قدم الأرض في الذكر على السماء ، ومن حقها التأخير ، لأنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم ، ووصل ذلك بقوله : ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ لاءم بينهما ، لِيَلِيَ المعنى المعنى)^(٢) .

(١) البرهان ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ .

(٢) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ، وينظر أسرار التكرار ، ص ١٠٤ .

الضرُّ والنفع:

يغلبُ تقديم الضر على النفع في القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩].

لأنه أصل الفطرة التي نزل بها هذا الكتاب، فالعابدون يعبدون معبودهم خوفاً من عقابه أولاً، وطمعاً في ثوابه ثانياً، وعلى هذا دلت الدلائل في فطرة البدائيين، وفي وجدان الموحدين. وقد سجل الله تعالى هذه الفطرة البشرية في قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] أما قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُوكُنَا رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. فقد جاء معبراً عن نوع راقٍ ومتطور من الفطرة أَلْفَ العبادة حتى تحوَّلت إلى معرفة وحب لله ورسوله^(١).

وفي سبع آيات متشابهة وفي مواضع متعددة من الكتاب العزيز، يتقدم النفع على الضر، بصيغة الاسم مرة، وبصيغة الفعل مرة أخرى. ويهمنا منها ما كان بصيغة الاسم. ويكون هذا التقديم للنفع خلاف الآيات التي يتقدم فيها الضر، كما أشرنا، لأهدافٍ معنوية وسياقية، أي أن التراكيب السابقة تدعو إلى هذا التقديم، وهذا من أسرار القرآن وطوابع بيانه المعجز البديع.

أما في الأعراف: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فلتقدم قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِّ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

فقدم الهداية على الضلال، وبعد ذلك ﴿لَا تَسْتَكْبِرُتُ مِنَ الْغَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءِ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فقدم الخير على السوء، ولذلك قدم النفع على الضر.

(١) أسرار التكرار، ص ٢٥١، من كلام المحقق الأستاذ عبد القادر أحمد عطا.

وفي الرعد: ﴿قُلْ أَنَا تَخَذْتُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَشْفِيهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦]، فلتقدم الطوع على الكره في الآية التي قبلها مباشرة ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥].

وأما في سبأ: ﴿قَالِیَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [سبأ: ٤٢] فلتقدم البسط في قوله تعالى: ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ: ٣٦]، وتستطيع أن تجد هذا في كل حالة يتقدم فيها النفع، حيث تجد سابقة تتضمن نفعاً^(١).

موسى وهارون:

الأغلب في القرآن أن يرد ذكر موسى ثم هارون لأفضلية موسى من مثل: ﴿سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠].

ولكن يتقدم هارون على موسى في آية طه: ﴿قَالَتِ السَّحَرَةُ سُبْحًا قَالُوا ءَآمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]. إما لمراعاة الفاصلة القرآنية التي تنتهي كلها بالألف المقصورة في سورة طه، كما يرى ابن الأثير^(٢)، أو (لأنَّ إعادة ذكر القصة الواحدة بالفاظٍ مختلفة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة وتبين به البلاغة. وأعيد كثير من القصص في مواقع كثيرة مختلفة على ترتيبات متفاوتة للتنبيه على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدعاً ومكرراً، كما يرى أبو بكر الباقلاني)^(٣).

وهكذا تستطيع أن تقيس على هذه النظائر والأغراض المختلفة للتقديم والتأخير، فتفهم تقديم النصارى على الصابئين مرة وتأخيرهم

(١) الدرر، ص ١٨٠، والبرهان، ج ١، ص ١٢٠.

(٢) المثل السائر، ج ٢، ص ١٧٤.

(٣) إعجاز القرآن، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د. ط، ١٩٩٣، ص ٢١.

عنهم مرة أخرى^(١)، وتقديم الصم على البكم، وتأخيرهم عنهم^(٢)، وتقديم الهدى على النور مرة، وتقديم النور على الهدى مرة أخرى^(٣). دون أن تخطئ الاستهداء والتعرف على اطرادات القرآن وعادته في تقديم لفظ على آخر، فالأمر يتعلق بالتناسب ومراعاة المعالم المعنوية واللفظية.

صور أخرى من التقديم:

هناك صور من التقديم لا نستطيع إدراجها ضمن صيغ أسلوبية مثل (ركني الإسناد) أو (المتعلقات) أو (المعطوفات)، أو غيرها، وإنما تتعلق بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك. وهذا النوع كثير ذكره في القرآن، ولكنه قليل في إطار الآيات المتشابهات، نذكر منها هذين النموذجين.

١ - يرد تقديم ذكر الجنة ومشاهدها يوم القيامة أكثر من تقديم ذكر النار ومشاهدها كما يغلب أن يرد ذكر المؤمنين وصفاتهم، ثم يرد ذكر صفات الكفار والمنافقين، فقد ورد في سورة الواقعة ذكر السابقين، ثم أصحاب اليمين، ثم أصحاب الشمال، ولكن هناك مواقع يرد فيها ذكر أهل النار قبل أهل الجنة في مثل قوله تعالى:

- ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَيَنَادُونَ﴾ [هود: ١٥ - ١٠٨].

قال ابن الأثير: (إنه لما كان الكلام مسوقاً في ذكر التخويف والتحذير وجاء على عقب قصص الأولين؛ وما فعل الله بهم من التعذيب

(١) انظر البقرة: ٦٢، والحج: ١٧.

(٢) البقرة: ١٨، والإسراء: ٩٧.

(٣) المائدة: ٤٤، والأنعام: ٩١.

والتدمير، كان الأليق أن يوصل الكلام بما يناسبه في المعنى، وهو ذكر أهل النار، فمن أجل ذلك قدموا في الذكر على أهل الجنة^(١).

٢ - قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقال في سورة غافر: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر:

٦٢].

لأن في الأولى جاء ذكر الشركاء والبنين والبنات قبل السياق، فكان تقديم التوحيد ودفع الشركاء أليق. وفي الثانية جاء ذكر الخلق وهو ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فكان تقديم ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [غافر: ٦٢] أليق، فقدم في كل سورة ما يقتضيه ما قبله من الآيات^(٢).

هذه صور من التقديم والتأخير في التشابه الأسلوبي في القرآن، لم يكن القصد منها الإحصاء والاستقصاء، ولكن ذكر جانب منها للتنبيه إلى فائدة دراسة هذا الأسلوب أو غيره في إطار التشابه، لأن في المتشابهات دلالات معنوية ولفظية قد لا نجدها في غيرها. ولعل الصورة تتضح بدراسة صور أخرى من المتشابهات في غير أسلوب التقديم والتأخير.

(١) المثل السائر، ج ٢، ص ١٨٤.

(٢) أسرار التكرار، ص ٧٣.

الفصل الرابع التشابه في أسلوب العطف

تمهيد:

حروف العطف جزء هام من حروف المعاني مثل: حروف الاستفهام والنفي والاستثناء والتعريف والجر. وسُميت بحروف المعاني لمجيئها مع الأسماء والأفعال وتأديتها لمعنى الجمل مع الإيجاز. فحرف العطف بمعنى أعطف، والاستفهام بمعنى استفهم والاستثناء بمعنى استثنى وحرف الجر حسب نوعه وسياقه^(١).

ومعنى العطف الميل والثني والارتفاق، والعطف في الكلام أن يردّ أحد المفردين إلى الآخر في الحكم أو إحدى الجملتين في الحكم أو الإيحاء^(٢).

والوقوف عند حروف المعاني بعامّة والعطف بخاصّة يحتاجه النحوي والبلاغي والعالم بأصول الفقه، لأن هذه الأصول متوقفة على معرفة اللغة العربية الفصحى لورود القرآن والسنة النبوية الشريفة بهما.

ونحن في وقفنا هذه عند حروف العطف لا نريد أن نعيد ما قاله علماء النحو والبلاغة فيها، لما لا نرغب في دراستها في القرآن الكريم

(١) حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه، د. محمود سعد، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط١، ١٩٨٨، ص١٢.

(٢) ينظر، أساس البلاغة للزمخشري، ومختار القاموس، مادة عطف.

عموماً، لأن هذا العمل من التشعب والسعة بحيث يحتاج إلى عمل متخصص مستفيض، بل نريد أن نرصد أسلوب العطف في إطار من متشابهات القرآن، إدراكاً منا أن هناك ملاحظ بلاغية ونفسية قد لا تتحقق في غير هذا الإطار. فأنت في إطار التشابه الأسلوبي القرآني تذكر النموذج خلواً من العطف، وتذكره نفسه مع العطف، وتستشف ما وراء هذا التنوع من دلالات وأهداف.

ومن المعلوم أن أسلوب العطف كان موضع عناية النحويين والبلاغيين في آن واحد، ولكن كل جماعة وقفت عند جانب منه، وعينت به أكثر من عنايتها بالجانب الآخر. فقد كان وقوف النحويين عند حروف النسق وعطف البيان بينما كانت وقفة البلاغيين عند عطف الجمل أو ما سُمي في المباحث البلاغية بالفصل والوصل. ولهذا سيكون اهتمامنا بالفقرات التالية من البحث:

١ - عطف المفردات.

٢ - الفصل.

٣ - الوصل.

وذلك في إطار من متشابهات القرآن، كما أشرنا.

أولاً: عطف المفردات:

ويسمونه عطف النسق (لأنه ينسق الكلام بعضه على بعض، بحيث يأخذ المعطوف نسق المعطوف عليه في أحكام معينة)^(١). وهذا ما عني به النحويون أيما عناية، ولكن البلاغيين، وعلى رأسهم عبد القاهر

(١) التطبيق النحوي، د. عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص ٣٩٤.

الجرجاني، قد أهملوا هذا الجانب من عطف المفردات؛ لأن فكرة الاشتراك النحوي قد سيطرت عليهم، فانصرفوا إلى دراسة عطف الجمل، كما سنلاحظ.

والمتمامل في الدراسات النحوية للأساليب القرآنية في مجال العطف، يجد أنها قد أوغلت في اتجاه التحليل الإعرابي وأمعنت في التقديرات النحوية حتى يستقيم لهم تطبيق النص القرآني على ما حدّده من قواعد النحو، أي أنهم يخضعون المطلق والنصوص العليا من الأدب الرّباني إلى القواعد المحدودة التي لا تستطيع أن تضبط المعاني اللانهاية في التعبير^(١). ولم يكن من خطة البحث رصد هذا الاتجاه النحوي وما تابعه من اتجاه بلاغي، إلا بالقدر الذي يساعد على توجيه الآيات المتشابهة في مجال العطف التوجيه الصحيح، والإفادة من الدراسات الإسلامية والنفسية الحديثة التي تتجاوز فكرة «التشريك» النحوي في دراسات السابقين لأسلوب العطف.

تضعنا الدراسات الإسلامية الحديثة أمام فكرة (تراسل ماهيات المعاني) في دراستنا لأسلوب العطف في القرآن الكريم، وفي الأساليب الأدبية بعامة. وهي فكرة تقوم على أساس من النظريات النفسية والسلوكية التي تنظر إلى المعنى الوجودي للأشياء من خلال (كل) عام يفسر جزئيات الوجود ويفهمها. و(الكل) هذا قد يكون الكون أو العالم كله، وقد يكون مشهداً طبيعياً، أو يكون لوحة فنية أو قصيدة، أو علاقة ما بالوجود.

(١) بلاغة العطف في القرآن الكريم، د. عفت الشرقاوي، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٨١، ص ٦٣، ٧٧. وينظر الإعجاز القرآني أسلوباً ومضموناً، د. شلتاغ عبود، دار المرتضى، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، ص ١٢٠، مبحث القرآن والدراسات اللغوية والأدبية.

وعلى ضوء هذا المعنى الوجودي يمكن فهم التضاييف أو التعاطف بين الأشياء في النص الأدبي، بما تفيض به أو تتراسل به ماهيات المعاني لهذه المسميات. وهذا شيء يختلف عما شغل به النحويون والبلاغيون أنفسهم، حيث انصب اهتمامهم على فكرة الاشتراك بين المعطوفات، أو على فكرة الجامع العقلي أو حتى الوهمي أو الخيالي بين المتعاطفات^(١). وقد يتبع هذا فصل للجزء عن سياقه أو لوحته الكلية أو وحدته العضوية، وفي هذا ما فيه من هدر لقيمة جمالية كبرى تُستفاد من النظرة الكلية للتضاييف بين الأشياء، أو انعطاف بعضها على بعض، بما يوحيه الانعطاف من رفق وحنو وانسجام بين الأشياء. إن صيغ العطف بهذا المعنى تكون تعبيراً لغوياً عن هذه العلاقة الكلية بين الأشياء أو المسميات.

ولندخل عالم المتعاطفات من الأسماء في القرآن الكريم، أو ما سمي بعطف المفردات، وسنرى نصيب دراستها لدى القدماء من البلاغيين أو المفسرين، وحظها من هذه النظرة الجديدة، وفي إطار من التشابه بين الآيات حسب خطة البحث، ولندكر هذا السياق الذي يربط بين عقيدة التوحيد، وطاعة الوالدين:

١ - ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

٢ - ﴿قُلْ تَمَاوَا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

(١) بلاغة العطف في القرآن الكريم، ص ١٤٣، ١٨٦، ٢٠٨. وينظر الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت، ص ١٦٥.

يكاد المفسرون القدامى وبعض المحدثين يُجمعون على الإشارة في هاتين الآيتين وأمثالهما على فكرة الجهة الجامعة بين المتعاطفين (عبادة الله وطاعة الوالدين) على أساس الرتبة في الفضيلة والشرف، وكأنهم يقولون إن أعظم أعمال الإنسان هو التوحيد. ثم يليها في الرتبة والثواب تكريم الإنسان للوالدين^(١). وهكذا تبدو المسألة منطقية، ومقارنة عقلية بين حقيقة التوحيد وفضيلة تكريم الوالدين، غير أنَّ باحثاً معاصراً يستهدي بالنظرة الكلية أو المنظومة الكاملة للعبادة في الإسلام، وهي عبارة عن كل فعل أو ترك يؤتى به لمجرد أمر الله تعالى ونهيه، وهذا يشمل أعمال القلوب والجوارح جميعها، وذلك يتضمن التوحيد وما يقتضيه من الإخلاص، كما يتضمن الإحسان إلى الوالدين وما تقتضيه خدمتهما، فضلاً عن الأوامر والنواهي الأخرى التي يشتمل عليها نظام الإسلام عقيدة وسلوكاً.

وهذا (الكل) تتراسل من داخله ماهيات المعاني، بين المعنى الإيحائي المتصل بمنطق الفطرة الذي يجمع بين الاعتراف بحقيقة التوحيد، وممارسة تكريم الوالدين. وربما يكون تكريم الوالدين بشكل دائم تمريناً روحياً على تمثل هذه الحقيقة. أي أنَّ الذي يمرن روحياً على شكر نعمة والديه منذ الصغر يكون أقدر على شكر المنعم الأكبر^(٢)، ويعضد هذه الإيحاءات الآيات القرآنية التي تسوق الحديث عن شكر الله، ثم تعقب عليه بكفران النعمة. وبهذا يكون الكفر هو النقيض الصريح لواجب الشكر لله سبحانه، وذلك في مثل قوله تعالى:

(١) ينظر الكشف للزمخشري، طبعة الحلبي، ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م، القاهرة، ج ٢، ٢٢٩، وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ج ٨، ص ١٨٣.

(٢) بلاغة العطف، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

﴿أَفِإِلْبَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْصَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

وغيرها من الآيات المشابهة لهذه الآية التي تشير إلى أن النفس التي تجانب أوامر الخالق ونواهيه، وهي أوامر ونواهٍ تتسق ومنطق الفطرة، إنما هي تستر حقيقتها بالمعنى اللغوي للكفر، أو تتجاوز ذلك إلى الجحود والشرك في حالات أخرى.

وفي هذا السياق الكلي يكون الشكر للوالدين شكراً لله، كما يكون عقوقهما كفراً للمنعم الأصغر الذي هو الرب الثاني كما نقول في توجيهاتنا التربوية للنشء.

وهناك نمط آخر من المفردات المتضايقة في إطار من التشابه، ويتمثل في الآيات التي تقرن الإيمان بالعمل الصالح بصورة مطردة؛ من مثل:

١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾

[يونس: ٩].

٢ - ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

[الفتح: ٢٩].

وهي مقترنة بالأجر الكريم والعقبى الحسنة والرزق والمغفرة وزيادة الفضل والاستخلاف في الأرض.

ولقد شغلت الفرق الإسلامية في العصر الأموي والعباسي بهذه الصيغة المتلازمة بين الإيمان والعمل الصالح، بين فاصل للإيمان عن العمل كالمرجئة وبين مكفر للمسلم إذا اكتفى بالإيمان بمفهومه المجرد وارتكب الكبائر، كما هي الحال عند المرجئة... وفي هذا المجال كان للشيعة مذهبهم في النظر إلى هذه القضية هم والمعتزلة، كما كان لأهل السنة رأيهم كما مثله الأشاعرة ومن استهدى بمقولاتهم. وهذا أمر له

وجوه سياسية وعقدية ليس هذا موضع بسطها، ولكن من الجدير بالملاحظة أن هذا النظر إلى الموضوع كان قد نشأ بسبب النظرة التجزئية للمتعاطفات في بنية العطف، والبحث عن وجه العلاقة بينهما على أساس من الجهة الجامعة، وإن النظر الصحيح هو فهم هذه المتعاطفات في إطارها الكلي المرتبط بالفطرة التي تعمر أعماق الإنسان، وبتكاملها من خلال العمل الصالح، فيكون التلازم بينهما حميماً، فكلما ذكر الإيمان تجاوزت معه أصداء الشكر والصدق والعمل، بكل ما للعمل من صور ومساحات^(١).

وستجد هذا التلازم بين مفردتين أخريين هما الصلاة والزكاة واطرادهما يكاد يكون تاماً في القرآن الكريم. ونعرض لنموذجين من نماذجهما، مثلما نفعل في أغلب وقفاتنا لنذكر أننا في عالم من المتشابهات في مجال المفردات كما هو الحال في هذه الفقرة من البحث، أو في مجال التراكيب كما سنلاحظ في الفقرتين الآتيتين.

١ - ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

٢ - ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

وفي الوقت الذي يقول فيه كثير من المفسرين القدامى بالرتبة والشرف يعنون بذلك تقارب فريضتي الزكاة والصلاة شرعاً ومكانة وأهمية في التقرب إلى الله تعالى، ولكن نظرة حديثة تتعمق هذا الأسلوب من العطف وتستوحي منه الإشارة إلى شمول الإسلام لجانبي الحياة الإنسانية: الغيبي والمادي كليهما. (فإذا كانت الصلاة مناجاة للرب، ووقفاً بين يديه... فإن الزكاة أو أبناء المال عموماً، تربط المسلم من

(١) نفسه، ص ٢٢٥.

جهة أخرى بالواقع الاجتماعي من حوله، فيرى في صلاحه وسد حاجة المحتاج فيه كملاً في التعبد للواحد الحق... وربما كان في الإخلاص في الصلاة مران للنفس البشرية الشحيحة على العطاء، لأن هذا التجرد المطلق الذي يحاول المصلي أن يتحقق به في صلاته هو الذي يرتفع به فوق قيود المادة، وبعده من جهة أخرى لسمو آخر فوق غريزة التملك^(١).

وهكذا يتم فهم التعاطف من خلال بنية شاملة تنظر إلى الإسلام على أساس كونه حقيقة لا تنفصل فيها قضايا الإنسان عن الحقيقة الدينية، وما صور العبادات المختلفة والمعاملات التي يتقلب بينها الإنسان في حياته إلا انعكاس لمقدار تعمق فكرة التوحيد في أعماقه وتحريكها لقلبه وجوارحه كلها نحو مقاصد الشرع الإلهي، والوظيفة الاستخلافية التي أناطها به، وانتدبه للقيام بها.

وفي هذا السياق يأتي الحديث الإلهي متشابهاً على هذا النسق في كثير من الآيات:

- ١ - ﴿لَيْسَ إِلَهِمُ إِلَّا أَن تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].
- ٢ - ﴿كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

بهذا التدرج من الغيب إلى الشهادة من الخالق الباري الذي لا تدركه الأبصار إلى اليوم الآخر الذي يؤمن به المؤمنون وإن لم يروه بعد، إلى الملائكة الذين لا يرونهم وإن كانوا خلقاً يعيش في هذا الكون معهم، ثم تأتي الشهادة الحسية من خلال الكتاب المنزل من الغيب والأنبياء والرسل المنزلين من عالم الغيب. وهذا النسق من المعطوفات

(١) نفسه، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

لا يكتفي بالإشارة إلى ترتيبها على أساس المنزلة والرتبة، وإن كان الله أعظم وأكبر وأجل، ولكن ينظر إليها من باب شمولية هذه العقيدة لعاملي الغيب والشهادة، مصدر الغيب وتجلياته في الخلق والرحمة والمآل. ولذلك تجد أكثر ما يتكرر الاقتران بين اثنين من هذه المتعاطفات: الإيمان بالله واليوم الآخر.

١ - ﴿ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق:

.٢]

٢ - ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩].

ومن يؤمن بالله، لا شك أنه يؤمن بיום الدين الذي جعله نهاية للرحلة البشرية في الحياة الدنيا لتحقيق وعده وعدله، ويؤمن كذلك بالملائكة والكتب المنزلة والرسل الذين جاءوا بها. إن التوحيد الصادق النقي يستتبع مفرداته من التصورات والمعتقدات والأعمال، هو الأصل الذي ترد إليه الفروع كلها.

ويأتي تجاور المتعاطفات في القرآن الكريم على الرغم من تباعد دلالتها وأجوائها لتعبر عن الوحدة الباطنة بينها. ولننظر إلى قوله تعالى في سورة التكويد: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعُشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُيِّتَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكويد: ١ - ٩]. ونتساءل: ما العلاقة بين تكويد الشمس وانكدار النجوم وتسجير الجبال وتعطيل العشار وحشر الوحوش وتسجير البحار وتزويد النفوس. وبين سؤال الموءدة؟

إن هذا الكائن الصغير (الموءدة) وضع في مرتبة الظواهر الطبيعية العظيمة من شمس ونجوم وجبال وبحار، ليوحى لنا بأن الله - سبحانه -

لينظر إلى هذا الكائن الكريم نظرة تعدل نواميس الكون وأرجاءه أو تفوقها، وقد وضع سياق المؤودة في سياق الهول والرعب الذي يجتاح الكون كله جماد وروح، وكأن هذا التهيب والترعيب يتوجه إلى مصير أولئك الظلمة الذين صادروا حق هذا الكائن في الحياة^(١).

إن وضعك الشيء إلى جوار الآخر يجعله يأخذ من رائحته ولونه ويستضيء بما للأول من سجايا وخصائص وظلال. كما لو قلت لولدك: يا بني اذهب إلى الحديقة والمسجد لتعمق في نفسه حب المسجد، لأنك وضعته إلى جوار ما يحبه ويأنس إليه، وما يستثير في نفسه غريزة الجمال والبهجة والانسراح، وذلك بخلاف ما لو قلت له: يا بني ابتعد عن الشيطان والسياسة، فإنك وضعته أمام شر وبيل وكزّهت إليه الاقتراب من السياسة ومن يشتغل بها، على الرغم مما في السياسة في الدلالة العربية من معاني الرفق والحنو والرعاية.

وهكذا يضع القرآن الكريم المتعاطفات ليلقي بعضها ظلاله على بعض ويفعل هذا مع تكرار للصيغ في كثير من الأحيان. كقوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

فلقد صارت الصلاة في المثال الأول صبراً ومجاهدة بلحاظ مجاورتها للصبر ذي الدلالة اللغوية والمعنوية المعروفة، كما تحقق التنفير الكامل من قول الزور بسبب هذه المجاورة لرجس الأوثان الممثلة لمعاني الشرك الذي احتشد القرآن الكريم لقلعه من النفوس وتبشيع منقلب المشركين. فأية نفس محرومة هذه التي تقبل على قول الزور بعد هذا التبشيع الشنيع الذي يستوحى من مجاور عبادة الأوثان التي ما بعدها من جرم، وما بعد عقوبة المقرب منها من عقوبة!!

(١) الإعجاز القرآني، أسلوباً ومضموناً، ص ٧٧.

وقد يأتي هذا التجاور بين المعطوفات في القرآن الكريم في إطار من التقابل كما هو الحال من ذكر الخير إلى جوار الشر في كثير من الآيات، لأن أحدهما يستدعي استحضار نقيضه في النفس، أو يجمع بين المتعاطفين بلحاظ العبادة والتكليف والإرادة الواعية، كما هو الحال في الاقتران بين الجن والإنس بغض النظر عن التقديم والتأخير الذي يحدث لدواعٍ أخرى يقتضيها السياق العام. ولا نريد أن نستكثر من الأمثلة المتشابهة، ونستعين بنباهة القارئ القرآني الذي يختزن السياقات القرآنية بمجرد أن يلوح له عبقها من بعيد.

ثانياً: الفصل:

نحن هنا أمام التراكيب (الجمل)، وهي مفصولة عن بعضها دونما حروف عطف، أو موصولة بحروف العطف، وليس أمام المفردات المتضايقة بحروف العطف كما مرّ بنا في الفقرة السابقة. ولقد أشرنا إلى أن البلاغة العربية أهملت العناية بهذا العطف وتركته للنحويين الذين درسوه تحت باب عطف النسق، بل إن عناية البلاغيين ومنهم عبد القاهر الجرجاني بلغت حد النهاية بعطف الجمل حتى عدّوه مفصل البلاغة وأعظم جانب منها، بل (إن أحداً لا يكمل فيه إلا كمل في سائر فنونها) كما قال القزويني^(١)، لأن علم الفصل والوصل يتوقف على معرفة ما يجب لكل واحد من الجملتين قبل الحديث عن انفصالهما أو اتصالهما بواحد من حروف العطف.

وربّ قائل يقول: نحن في سياق الحديث عن الوصل أو العطف

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١٥١. وقد نقل عن الجاحظ أنه قال: إن البلاغة هي معرفة الفصل والوصل، ينظر علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية، ط ١، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م، ص ٨.

في إطار من الأساليب المتشابهة في هذا المجال، فما شأننا والفصل الذي هو بعيد عن الوصل (العطف)؟.

الحق أننا في عملنا هنا لا نقف عند الآيات المنفصلة عن بعضها فقط، بل نوردها، ونورد الآيات المشابهة لها، وهي متصلة ببعضها بحروف العطف، لنرى لم كان بين تلك الآيتين انفصال، ولم كان بين هاتين الآيتين اتصال بواحد من حروف العطف؟ ويتم هذا - في الغالب - بناءً على القواعد الأسلوبية والمعنوية التي حددها علماء البلاغة، وقد نجد أحياناً أن قواعدهم لا تتسع لطبيعة الأسلوب القرآني في هذا المجال، ومتى كانت القواعد المحدودة تتسع للتعبير المطلق أو المتجدد؟!.

ولتقف عند بعض الآيات المتشابهات إلا من حيث الفصل والوصل كمثال قوله تعالى في هذين النموذجين:

١ - ﴿وَإِذْ يَبَيِّنَ لَكُمْ مِّنْ ءَالٍ فِرْعَوْنَ يَسُؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩].

٢ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِّنْ ءَالٍ فِرْعَوْنَ يَسُؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦].

فلماذا كان بين الجملتين ﴿يَسُؤُمُونَكُمْ﴾ و﴿يُدَيِّحُونَ﴾ فصل، أي أن إحداهما لم تنعطف على الثانية بالواو كما هو الحال في الجملتين نفسيهما في الآية الثانية، حيث عطف بينهما بالواو ﴿وَيُدَيِّحُونَ﴾؟.

لقد التفت العلماء إلى مثل هذا المنحى في القرآن الكريم في الدراسات القرآنية المبكرة، فلقد أشار الفراء إلى أن الواو تطرح إذا كانت الجملة الثانية بياناً للآي السابقة، فالذبح توضيح للعذاب وتفسير له، ولا يقع حرف العطف بين التفسير والمفسر. أما إذا كان المراد بالكلام الثاني غير الأول

فيثبت الوصل، وتذكر الواو، باعتبار أن الذبح شيء غير سوء العذاب، كما في ﴿وَيَذَّيْحُونَ﴾^(١). وهذا هو الذي سمّاه البلاغيون فيما بعد بـ (كمال الاتصال) بين الجملتين وهذا ما ينطبق في الفصل في الآية الأولى.

ثم توالى ملاحظات علماء المتشابهات في النظر إلى هذين النموذجين من حيث الفصل والوصل بين جملتيهما، وقد كرروا كلام الفراء ثم أضافوا أن آية (إبراهيم) قد خصصت بالواو؛ لأنها جاءت في سياق الإخبار المعطوف على آية قبلها، فقد أخبر سبحانه أنه أرسل موسى بآياته، ثم إن موسى نبّه قومه على ذكر نعمة الله عليهم ودعاهم إلى شكرها، وكأن العطف بين القصتين قد ساعد على إثارة العطف بين الجملتين في الآية الثانية، وليس الأمر كذلك موقع ﴿يَذَّيْحُونَ﴾ في الآية الأولى لأنه أخبر عن نفسه بإنجاء بني إسرائيل، وفي الثانية قال عن موسى إنه قال لقومه كذا، بعد أن أخبر أنه أرسله إليهم بآياته^(٢).

أما الكرمانى فقد أشار إلى معنى آخر لهذا الاختلاف بين النسقين وهو أن الأولى حديث من الله - سبحانه - فلم يعدّد عليهم المحن، تكمّلاً في الخطاب، والثانية (مع الواو) من كلام موسى فعدها^(٣). وتابع الكرمانى كل من الزركشى والسيوطي^(٤).

(١) ينظر علم المعاني بين بلاغة القدامى، وأسلوبية المحدثين، د. طالب محمد الزوبعي، منشورات جامعة قاريونس، ليبيا، ط ١، ١٩٩٧، ص ٢٩٤.

(٢) درة التنزيل، وغرة التأويل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٤، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ص ١٣.

(٣) أسرار التكرار في القرآن، دار بوسلامة، تونس، ط ١، ١٩٨٣، ص ٢٧.

(٤) انظر البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، د. ت. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ١، ص ١١٦، والاتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ط ١، ١٩٧٣، ج ١، ص ١١٥.

وفي قوله تعالى في هذين النموذجين المتشابهين :

١ - ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٣) ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيَاتٍ﴾
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤].

٢ - ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٨٥) ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٨٦) [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٦].

نجد أن الأولى وردت دون واو ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ، لأنها وقعت بدلاً من الجملة التي قبلها، وقد وردت في قصة النبي صالح مع قومه ثمود، حيث لم يدفعوا أمره، ولم يغلظوا له القول، وإنما طالبوه بما ليس فيه شطط بأن قالوا: ﴿فَأْتِ بَيَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، كما قال الله لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦]. وأما قوم شعيب في الآية الثانية، فقد أغلظوا له القول، وشطوا في ردهم وبالغوا في تكذيبه، فقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٨٥) ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، على خبرين عطف أحدهما على الآخر، وقالوا بعده: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، حتى صار السياق أخباراً ثلاثة ردوا فيها على نبيهم^(١).

قال الكرمانى: (لأن صالحاً قلل في الخطاب، فقللوا في الجواب، وأكثر شعيب في الخطاب فأكثروا)^(٢)، فالعطف إذن مع الثانية إكثار من الكلام، وانعطف بعضه على بعض، في حين أن الأولى فيها جملتان إحداهما بدل عن الثانية، والبدل هو المبدل منه، فامتنعت الواو.

ومع سيدنا (شعيب) كذلك يرد (الفصل) بين الجملتين في قوله تعالى: ﴿وَيَقْوِرْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنْ عَمِلْتُمْ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُغْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]

(١) درة التنزيل، ص ٣٣٢.

(٢) أسرار التكرار، ص ١٥٥.

لأنه أطال معهم الخطاب، وصبر على مجادلتهم، وهو المفوه الذي يقال عنه بأنه خطيب الأنبياء، وكأن حذف الفاء بين الجملتين ﴿إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وقعت جواباً عن سؤال مقدّر لقومه، والتقدير: أنه لما قال: ﴿يَقْوِمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ فكأنما قالوا: فماذا يكون بعد ذلك؟ فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(١). وهذا ما يسميه علماء البلاغة (شبه كمال اتصال)، وهو أن تكون الجملة المنفصلة جواباً عن سؤال يفهم من الأولى، من مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، فكأنه قيل: هل النفس أمارة بالسوء؟ فأجيب بنعم، إن النفس لأمارة بالسوء^(٢). وهذا غالباً ما يكون مع المخاطب المتردد في الحكم، فيقوى له الحكم بمؤكد، كما هو الحال في (إن) هنا.

ولكن الآية المشابهة لهذه الآية في سورة الأنعام: ١٣٥، وردت موصولة بالفاء، كما تلاحظ:

﴿قُلْ يَقْوِمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ومثلها سورة الزمر: ٣٩.

فالفاء وصل ظاهر، كما يقول الزمخشري^(٣)، وما العمل إلا سبب للجزاء الذي عبر عنه بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بعد أن خاطب النبي الكفار على سبيل الوعيد، ولا يخفى تعلق الفاء بقوله اعملوا، والتقدير:

(١) ينظر مقال (من أسرار الآيات المتشابهات) للأستاذ سعيد سالم الفاندي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، العدد ١٣، ١٩٩٦، ص ٢٧٠. عن (مفاتيح الغيب) للرازي، ج ١٨، ص ٤٢.

(٢) ينظر شرح التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، دار الجيل، بيروت، ط ٢، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م، ص ٩٧.

(٣) الكشف، ج ٢، ص ١١٣، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٤٨.

اعملوا فسوف تعلمون... وكذلك الحال في سورة الزمر، حيث الترابط يقتضي الوصل بالفاء^(١). وقال الكرمانى: الفصل الذي وقع في سورة هود مع قوم شعيب، بغير الفاء، إنه لم يكن في السورة (قل) في السياق السابق، فصار الكلام استثنافاً، في حين أنه في سورة الأنعام والزمر (قل)، فأمرهم أمر وعيد بقوله: (اعملوا) أي: اعملوا فستجزون^(٢).

ولقد وردت جملة ﴿وَيْلٌ يَوْمَذِ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ منفصلة عشر مرّات في سورة المرسلات، وواحدة في سورة المطففين، الآية: ١٠. في حين أنها وردت متصلة بما قبلها في سورة (الطور) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۚ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۚ ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَذِ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ [الطور: ٩ - ١٢].

وذلك أنّ آيات المرسلات جاءت عقب أخبار عن أحوال يوم القيامة أو في موضع بيان عناد الكافرين وبيان مصيرهم، وهذا موضع من مواضع الفصل كما حدّده علماء البلاغة. أما آية الطور فالوصل بالفاء جاء للعلاقة الحميمة بين الجمل التي سبقتها، فجاءت في بيان موعد الجزاء^(٣)، وهو موضع من مواضع الوصل، وهو أن تكون بين الجملتين جهة جامعة، ومناسبة تامة.

وجملة (يطوف) ترد معطوفة بالواو، في مثل سورة الطور: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، لأنها في سياق متعاطفات من الأفعال ما قبلها (وأمددناهم) وما بعدها (واقبل)، في حين أنها في سورة الواقعة ترد في حالة من الفصل بغير واو، لأنها يحتمل أن تكون

(١) درة التنزيل، ص ١٣٢.

(٢) أسرار التكرار، ص ٧٤.

(٣) مقال (من أسرار الآيات المتشابهات) ص ٢٧١.

حالاً من الضمير في (متقابلين) قبلها، أو في محل رفع خبر، كما يرى الكرمانى^(١)، والحال والخبر معهما الواو.

ونختم هذه الاستشهادات لنماذج الفصل والوصل المتشابهة بهذين النموذجين من الوصل والفصل:

١ - ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

٢ - ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

فقد جاءت الأولى في سياق من المتعاطفات من الجمل الماضية، ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا...﴾، مع نوع من التناسب الجامع بين الآيات، في حين أنَّ جملة (قلنا) الثانية التي جاءت مفصولة، لأنها في معرض بيان لهذا الهبوط وما يليه من تكليف ويلازمة من وعد للمؤمنين، ووعد للكافرين.

ننتهي من هذه الفقرة إلى القول بأن معرفة مواضع الفصل من الوصل في الآيات المتشابهات خاصة، وفي القرآن كله عموماً يحتاج إلى نباهة وعمق فهم، وإنه من الحق أن أحداً لا يكمل فيه إلا كمل في سائر فنون البلاغة كما قال القزويني، وأن اللوم الذي وجهه بعض الباحثين في أن علماء البلاغة عُنوا بموضوع الفصل والوصل بين الجمل عناية تجاوزت كل عناية في جوانب العطف الأخرى، لم يكن إلا من جهة أن هذه العناية بالجمل والتراكيب في موضوع الفصل والوصل، كانت على حساب العطف بين المفردات الذي ترك للنحويين يتناولون الجانب

(١) من أسرار التكرار، ص ١٩٧، تنظر سورة الواقعة الآيتان ١٧-١٨: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّغَلَّدُونَ ﴿٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ ﴿٨﴾﴾.

الشكلي منه، في حين أنه مثل العطف بين الجمل موضع للتأمل الأسلوبي والجمالي العميق.

ثالثاً: الوصل:

هذه الفقرة لا تناقش الآيات المتشابهة التي تأتي الأولى منها منفصلة عما قبلها، وتأتي الثانية معطوفة على ما قبلها أو بالعكس، وهو ما سماه علماء البلاغة بالفصل والوصل، كما مرّ بنا في الفقرة السابقة، بل تقف عند الآيتين المتشابهتين في إطار الوصل (العطف)، ولكن أداة العطف في الأولى تختلف عن الثانية لدواعٍ بلاغية مرتبطة بالسياق والفكرة وأهداف التوصيل ومقاصد التأثير. ومن المعلوم عند علماء البلاغة أن مباحث الفصل والوصل مقصورة على أداة العطف (الواو)، لأنها هي الأداة التي تخفى الحاجة إليها، ويتطلب فهم العطف بها دقة الإدراك، وسلامة الذوق والخبرة في أساليب الكلام ومقاصد المنشئين، ويعللون ذلك في أنها لا تدل إلا على مطلق الجمع والاشتراك، أما غيرها من حروف العطف، فهي تفيد مع الاشتراك معاني أخرى زائدة كالترتيب في (الفاء)، والترتيب مع التراخي (ثم) والشك والتخيير والإباحة في (أو)، والاستدراك في (لكن)^(١)، وهكذا.

وسنلاحظ فيما يلي من الصفحات الآيات المتشابهة في غير حرفي العطف، كأن تكون الأولى بالواو، والثانية بالفاء أو العكس، أو تكون الأولى بالفاء والثانية بـ (ثم) أو بالعكس، وهكذا... وفي ذلك ما فيه من أسرار بلاغية ومعنوية عالية.

(١) علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، ص ١٧٥.

ولقد أشرنا من قبل إلى أن دراسة العطف في القرآن الكريم بشكل عام غير دراسته في مجال المتشابهات، لأنَّ إطار التشابه يجعلك أمام الآية وهي معطوفة بالفاء، وأمامها ذاتها . تقريباً . معطوفة بالواو أو ثم أو لكن، لتبين دواعي هذا التغيير أو الاختلاف بوضوح، وهو الذي قد لا تتيّنه في غير إطار المقارنة بين النموذجين المتشابهين .

وانظر معي هذين النموذجين المتشابهين والمختلفين في حرفي العطف :

الأول : قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا يَكَادُمْ أَتُكِنُّ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة : ٣٥] .

والثاني : ﴿وَيَكَادُمْ أَتُكِنُّ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف : ١٩] .

لقد وقف علماء المتشابهات في الأسلوب القرآني عند الفرق بين استخدام الواو في (وكلا) في الآية الأولى، واستخدام الفاء (فكلا) في الآية الثانية، وقالوا السكنى في الأولى بمعنى السكون الذي هو الإقامة، ولذا وجب العطف بالواو التي تعني الجمع بين السكنى والأكل . وهو نوع من زيادة الإكرام يناسبه ثلاثة أمور في الآية : الأول نسبة القول إليه سبحانه ، ﴿وَقُلْنَا﴾ ، والثاني قوله ﴿رَغَدًا﴾ ، والثالث : قوله ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ لأنه أعم من قوله : ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ في الآية الثانية .

وفي الآية الثانية يكون معنى السكنى من اتخاذ الموضع سكناً، لأنه تعالى أخرج إبليس من الجنة بقوله قبل آية الأعراف : ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْهُومًا﴾ [الأعراف : ١٨] ، وخاطب آدم ، فقال : ﴿وَقُلْنَا يَكَادُمْ أَتُكِنُّ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ ، أي اتخاذها لأنفسكما مسكناً ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ، فكانت الفاء أولى ، لأن اتخاذ المسكن لا يستدعي زماناً ممتداً ، ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ

والأكل فيه، بل يقع الأكل بعد السكن، ولهذا فالفاء هنا تناسب المقام؛ لأنها تفيد الترتيب والتعقيب^(١).

وأنت تلاحظ معي أن الموضوعين فيهما دقة، ويحتاجان إلى طول نظر، ومراس في فهم الأسلوب القرآني، لأن الملحظ شفاف والفروق ليس واضحة في ظاهر التعبير. ولقد أشرنا إلى أن الواو خاصة تخفى الحاجة إليها، ويتطلب منهم العطف بها دقة وعمق إدراك.

ومن أمثلة حرفي العطف الواو والفاء تقعان في آيتين، متشابهتين قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] وقوله في سورة طه: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهمْ﴾ [طه: ٧٠].

والمتمأمل في السياق يجد أن آية الأعراف التي عطفت بالواو كانت متناسبة مع القص الذي فيه أطناب وتفصيل للحدث، كما أن هناك تناسباً بين فاعل (ألقي) وما قبلها وهم السحرة... ﴿فَقُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغيرِينَ﴾ [١١٩] ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَينَ﴾ [١٢٠]، بحيث يبدو التشريك في الفاعل واضحاً...

أما في آية (طه)، فيبدو أن السياق سياق إيجاز وحركة سريعة وتتابع، وهذا ما تؤديه (الفاء) الدالة على الترتيب دون مهلة، حتى لتشعر أن في الأمر شبه مفاجأة ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهمْ﴾ [طه: ٧٠] دونما إرادة منهم... لم يلقوا أنفسهم... بل ألقوا بما لم يسم فاعله. والأمر نفسه، يمكن ملاحظته مع آية الشعراء: ٤٦، في سياق مشابه.

وحين نتأمل هذه الآيات المتشابهة في أسلوب من القسم ونلاحظ

(١) يُنظر درة التنزيل، ص ١٠، وأسرار التكرار، ص ٢٥، والبرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٢٨، والامتنان، ج ٢، ص ١١٥، وقد ذهب الخطيب إلى أن ما في الأعراف خطاب لهما قبل الدخول، وما في البقرة بعد الدخول، ص ١١.

توحد الفاء في النموذج الأول، والتناوب بين الفاء والواو في النموذج الثاني:

١ - ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَالْحَمِلَتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْحَرِيتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾
فَالْمُقْسِمَتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ [الذاريات: ١ - ٤].

٢ - ﴿وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَصِفَتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشِيرَتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾
فَالْفَرْقَتِ ﴿٤﴾﴾ فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾ [المرسلات: ١ - ٥].

نجد أن ثمة داعياً لهذا التعقيب بالفاء في (أنه تعالى أقسم بالرياح فبالسحاب الذي تسوقه، فبالفلك التي تجري بهبوبها، فبالملائكة التي تُقسَم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعه)^(١)، كما قال الزمخشري، وقد تكون المقسمات أمراً هي الرياح نفسها تقسم الأمطار بتصريف السحاب. وأنت تلاحظ هذا التعانق والتلاحم بين الأجزاء الذي تعبر عنه الفاء. في حين أن هذا التعانق في آيات المرسلات يكون بين الآية والثانية فتكون بينهما الفاء، حيث (أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن في مضيهن كما تعصف الرياح تخففاً في امتثال أمره)^(٢)، ثم جاء قسم آخر بطوائف أخرى من الملائكة، فكان العطف أولاً بالواو، (والناشرات)، ثم كان بين هذا المعطوف وما تلاه بالفاء ﴿وَالنَّشِيرَتِ نَشْرًا ﴿٢﴾﴾ فَالْفَرْقَتِ ﴿٣﴾﴾، حيث نشرن أجنحتهن حين نزولهن بالوحي، ففرقن بين الحق والباطل، فألقين الذكر للأنبياء... وقد يكون المقسم به الرياح بدل الملائكة...

المهم أن هناك تلاحماً بين كل جزأين عبرت عنه الفاء المعقبة، وأن هناك عطفًا وتشريكاً بين طائفتين من الملائكة أو الرياح في تفسير

(١) الكشف: ج ٣، ص ١٦٦.

(٢) نفسه، ج ٣، ص ٣٠١.

آخر^(١). وتستطيع أن تتأمل نموذجين متشابهين آخرين يتردد العطف فيهما بين الفاء والواو، وذلك في الآيات الأولى من سورة النازعات، مثلها في العاديات.

ومن أمثلة الواو وثم قوله تعالى:

١ - ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خَلْفَ ثُمَّ لَا أَصِلَنَّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٤].

٢ - ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خَلْفَ وَلَا أَصِلَنَّكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩] وفي

[طه: ٧١]، كذلك.

يقول الخطيب الاسكافي إن سورة الشعراء وطه جاء فيها التفصيل في الحدث أكثر، والبسط أوسع، فناسب هذا الواو، لأنها قد تؤدي وظيفة الفاء التي للتعقيب حيث يكون ما بعدها ملاصقاً لما قبلها، وقد يكون ما بعدها متراخياً عنها كالمهلة التي تُفاد بثم، مثلما هي موضوعة لمطلق الجمع بحيث يجوز أن يكون ما قبلها مقدماً عليها، إذ لا ترتيب فيها. أما (ثم) فهي تختص بواحد من مواضع الواو، ولا تصلح للموضع الذي للواو. وقد استعملت في سورة الأعراف مقتصرةً على بعض ما وضعت له الواو^(٢). فإذا كانت (ثم) تدل على أن الصلب يقع بعد التقطيع، كما جاء في السورة الأولى، علم هذا المعنى من الواو التي جاءت في السورة الثانية، كما أكد الكرمانلي^(٣). هذا بالإضافة إلى أن تناوب حروف العطف مألوف في صيغ التعبير العربي، كما جاء في أبحاث اللغويين القدامى والمحدثين^(٤).

(١) نفسه، ج ٣، ص ٣٠١.

(٢) درة التنزيل، ص ١٧٩.

(٣) أسرار التكرار، ص ٩١.

(٤) ينظر بحث الأستاذ بشير زقلام (تناوب الصيغ في التعبير العربي)، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ع ٤، ١٩٨٧، ص ٣٣٦.

وفي موضع آخر تأتي (ثم) معبرة عما قبلها أدق تعبير، كما في قوله تعالى:

﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

أي ذلك متاع قليل، والقليل يدل على تراخ وإن صغر وقل، و(ثم) موضوعة لهذه الدلالة، في حين أنه ورد في آيات التوبة: ٧٣، ٩٥ والرعد: ١٨، والنور: ٥٧ بالواو: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ لعدم وجود ما يدل على التراخي الذي تدل عليه (ثم) في (قليل)^(١).

ومثل هذا نجده في آيتي التوبة التاليتين:

١ - ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُزَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةُ﴾ [التوبة: ٩٤].

٢ - ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةُ﴾ [التوبة: ١٠٥].

فالأولى في المنافقين الذين لا يعلم باطنهم إلا الله، وسيكون الحكم الفصل على حالهم يوم القيامة. ولبعد ما بين الظاهر من عملهم، وما يجازون به دخلت (ثم)، وليست كذلك الآية الأخيرة لأن قبلها بعثاً على عمل الخير لقوله: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، وهذا وعد والأول وعيد، وبعد (ستردون) لأنه وعد مما يشاكل أفعالهم ويطابق أعمالهم من حسن الثواب، وجميل الجزاء، ولم يبعد عنها كبعد جزاء المنافقين عما هو ظاهر من أعمالهم التي يراؤون بها، ويعلم الله تعالى خلافها^(٢). فجاءت (ثم) للتراخي والتباعد لتناسب تباعد ظاهر

(١) أسرار التكرار، ص ٥٣.

(٢) درة التنزيل، ص ٢٠٢، وأسرار التكرار، ص ١٠٠.

أعمال الكافرين عن باطنهم، ولإرجاء أمر الحكم على هذا الظاهر والباطن إلى الآخرة، وجاءت الفاء لهذا القرب بين أعمال المؤمنين ظاهرها وباطنها، ولهذا فهي مرثية من الله والرسول والمؤمنين في الآخرة، وبسبب من هذا حذفت (والمؤمنون) في الأولى، لأن المؤمنين لا علم لهم ببواطن أولئك المنافقين، مثلما يعلمون من أمر أخوتهم في الإيمان.

وقد ترد الجملة المعطوفة على ما قبلها بالفاء، وتجدها مع شيء من التغيير، أو بدون تغيير. معطوفة على ما قبلها ب(ثم)، علماً بأن الفاء موضوعة للترتيب دونما مهلة، و(ثم) للتراخي، ويعطي هذا الاختلاف في أداة العطف دلالة تتجاوز هذا المعنى الضيق، كما تلاحظ في هذين النموذجين المتشابهين:

١ - ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢].

٢ - ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

فلقد عطف النظر على السير في هذه الآية وفي آيات متعددة أخرى^(١) بالفاء الدالة على التعقيب بلا تراخٍ بينهما، إلا في سورة الأنعام فقد عطف النظر على السير ب (ثم)، فما السر في ذلك؟

إن الآيات الأولى تحت على النظر في عواقب المكذبين، ولكنه حث عام يشترك فيه العلماء وغير العلماء، وهو أن يتعظوا بمجرد رؤية آثار الكفار السابقين من أمم الفراعنة وعادٍ وثمود وأصحاب مدين والقرى المؤتفكات... وهذه تكفيه نظرة واحدة عجل... [أما في آية الأنعام

(١) انظر العنكبوت: ٢٠، والنحل: ٣٦، والنمل: ٦٩.

فهي تطالب بمنهج آخر فيه تراث وتاريخ ودراسة علمية متأنية يخرج منها الباحثون بمزيد من التفاصيل، ومزيد من النتائج والدلالات على وجود الله وعظمته. ولهذا كانت الملابس التي تحيط بأية الأنعام تشير إلى المطالبة بهذه الدراسة المتأنية المتراخية التي تحتاج بطبيعتها إلى وقت طويل. ففي الآية (٦). من الأنعام. أشار الله تعالى إلى القرون الماضية وإلى القرون التي أنشأها من بعدهم في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦]^(١). وقد أشار الكرمانى إلى هذا بقوله: (أمروا باستقراء الديار، وتأمل الآثار، وفيها كثرة، فيقع ذلك سيراً بعد سير، وزماناً بعد زمان، ليُعلم أن السير مأمور به على حدة، والنظر مأمور به على حدة)^(٢).

وهكذا يستثمر الأسلوب القرآني أقصى قدرات اللغة بأساليبها وأدواتها من حيث عطاؤها الإيحائي لتساعد على استجلاء المعاني وتعميقها في النفس.

ولقد قيل إن الفاء قد تنوب عن (ثم) في مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (١٣) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُونَ﴾ (١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (١٦) [المؤمنون: ١٢ - ١٦].

ف(ثم) حرف عطف للتراخي في المواضع الخمسة، وكذلك الفاء

(١) الأستاذ عبد القادر أحمد عطا، دراسته في آخر أسرار التكرار، ص ٢٤٨.

(٢) أسرار التكرار، ص ٦٥، ودرة التنزيل، ص ١١١.

في الموضعين ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ﴾ و﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾. وقد نابت مناب (ثم)، كما يرى بعض العلماء^(١)، لأنها وردت في آيات مشابهة بـ (ثم)، كما في سورة الحج: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ﴾ [الحج: ٥]، وكذلك في غافر: ٦٧، وفي فاطر: ١١.

وفي النظر إلى الفوارق التي تشير إليها حروف العطف بعامة، وبين الفاء وثم، كما في آية (المؤمنون) خاصة، يرى آخرون أن (ثمّة اعتبارات أخرى يجب أن ندركها، وأن نعطيها دورها في تقرير تلك الفوارق بين الحروف، من ذلك الاتصال الوثيق بين فترتي المعطوف والمعطوف عليه، وإن طالت مدة كل منهما. ومن ذلك الفارق العقلي بين ركني العطف، وإن تقاربت مدّتهما، فلاستبعاد العقلي أنزل مدة العطف منزلة التراخي في الزمن، واستبدل حرف الفاء بحرف ثم)^(٢).

ولكن فكرة التناوب بين حروف العطف في بعض آيات القرآن لم ترق للاسكافي ولا للكرماني، فهما يريان أن لهذه الحروف أسراراً في كل موضع، ولا بد من الكشف عن هذه الأسرار. ففي هذين النموذجين المتشابهين:

١ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧].

٢ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢].

(١) ينظر بحث (تناوب الصيغ في التعبير العربي)، ص ٣٣٧.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، محمود صافي، دار الرشيد، دمشق؛ ط ١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، مج ٩، ج ١٨، ص ١٦٣. وينظر، كذلك، المثل السائر، لابن الأثير، نهضة مصر، القاهرة، د. ط، د. ت، القسم الثاني، ص ١٨٨.

نجد للفاء دلالتها، ول (ثم) دلالتها كذلك. فالأولى تتحدث عن الأحياء من الكفار الذين ذكروا، فأعرضوا عقيب ما ذكروا، وكان متوقعاً منهم أن يؤمنوا، ولهذا القرب بين التذكير والإعراض، ولهذا التوقع والأمل في أوبتهم وتركهم الكفر... جاء التعبير بالفاء.

وما في سورة السجدة كان في الأموات من الكفار، بدليل قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]. وكان أن تطاول عليهم العهد، وذكروا مرة بعد مرة، وزماناً بعد زمان، ثم جاء الموت، وانقطع رجاء عودتهم إلى دين الله ومنهجه^(١)، فكانت (ثم) أليق بهذا التراخي في المدة بما ناسب مقتضى الحال، وذلك أمر قام عليه علم من علوم البلاغة وهو علم المعاني.

ويبدو أنّ دلالات حرف العطف في القرآن قد تجاوزت الحدود التي رسمها النحويون لهذه الاداة من التشريك والترتيب والتراخي، فجاءت على معانٍ عدة، وإيحاءات كثيرة من مثل الاستبعاد والوعيد والاستئناف، والدوام والاستمرار، وهذا مبحث لطيف دقيق المداخل يحتاج إلى أفق أسلوبى وبيانى واسع^(٢).

(١) درة التنزيل، ص ٢٨٣، وأسرار التكرار، ص ١٣٣. وقال الزمخشري في هذه الآية في سورة السجدة أن (ثم) للاستبعاد، والمعنى: (إن الاعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير مستبعد في العقل والعدل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة، ثم لم تنتهزها، استبعاداً لتركه الانتهاز)، ح ٢، ص ٥٢٦.

(٢) ينظر ما يلي:

١ - مغني اللبيب، ابن هشام، دار الفكر، بيروت، ط ٦، ١٩٨٥، ص ١١٨.

٢ - بلاغة العطف في القرآن، ص ٩٠، ٩٣.

٣ - حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه، ص ٧٧.

إنَّ العطف بين الجمل أو الوصل بينها قد يحقق التراسل بين ماهيات المعاني، كما هو في العطف في المفردات، على النحو الذي شاهدنا، إذ إن التضاييف بين الجملتين، كما في المفردتين، قد يلقي بظلال الأولى على الثانية أو الثانية على الأولى، كما يعكس الجانب المضىء على الجانب المظلم من اللوحة، أو كما يفيض العطر على المساحة المجاورة له . . .

فإننا حين نقرأ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۖ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۖ﴾ [الفرقان: ٦٧-٦٨].

لا نستطيع أن نقاوم هذا الإحساس ببشاعة الزنى وعظم جريمته، وذلك من خلال هذه المجاورة للشرك وقتل النفس، وكأن عدوى الكراهية للشرك وقتل النفس انتقلت إلى الزنى، وجعلته مثلهما في القداحة، وإن كان من قبل هذا الاقتران غير بالغ درجتهما في النفس. أما إذا وضعنا هذه المتضاييفات ضمن منظومة واحدة من المحرمات أو الممنوعات في نظام الإسلام، بدا هذا النظام (نظاماً) حقاً في توجهاته التي تجعل حق اللوهمية إلى جانب حقوق العباد فمثلاً يوجب الإسلام علينا توحيد الخالق وإجلاله في عُلّاه، يوجب علينا، كذلك، قداسة محارم الناس، وأن جريمة مثل جريمة الزنى بما فيها من امتهان للكرامة الأنثوية، وما فيها من إنشاء علاقة حيوانية بين الآدميين لترتقي في نظام هذا الدين أول رقم في تسلسل منظومته: ألا وهو التوحيد.

ومن خلال دراستنا لأنماط الفصل والوصل المتشابهة في القرآن، نجد أن القرآن يأتي بكل نمط بما يناسب سياقه، وبما يحقق أهدافه التربوية أو النفسية. ويلاحظ أحد الباحثين في البلاغة العربية أن الوصل

أو العطف بين الجمل قد يحقق مستوى أعمق ممّا يحققه مستوى الفصل الذي تتباعد فيه الجمل معنوياً، لما في التضاييف من إحياءات ودلالات كثيرة، قد لا تتوافر مع الجمل منفصلة^(١).

نتهي من هذه الإطلالة على عالم المفردات والجمل المتضايفة في إطار التشابه إلى القول بأنه إذا كان علماء البلاغة قد رصدوا بعض العيوب في العلاقات المتولدة من التعاطف بين المفردات أو الجمل في الأدب البشري، فإننا لم نلاحظ أياً من هذه العيوب في الأسلوب القرآني، بل إن آيات الحسن والتناسق والجمال بادية على كل نمط من أنماط الفصل أو الوصل، وأن هاجس التوصيل والتأثير والإفادة يبلغ قمته في هذا الأدب الرباني الكريم.

ونحب أن نؤكد ثانية أن دراسة للعطف في إطار التشابه تعطي جدواها، أكثر مما لو درس العطف كموضوع نحوي أو بلاغي على انفراد، وذلك لأن إطار التشابه في المتعاطفات، يدفع إحساساً بأن التشابه الأسلوبي في القرآن قد يكون نوعاً من التشابه المعنوي الذي هو في مقابل المحكم الذي يدرس في فصل خاص من علوم القرآن ومفاهيمه، فيأتي الدرس لهذه المتشابهات في إطار العطف، أو العطف في إطار التشابه، ليُجيب على بعض الغموض في الظاهر، أو يوضح الدلالات التي يستعصي فهمها على غير العالم بالأسلوب القرآني وأسراره. وقد لاحظنا هذا في الصفحات السابقة من البحث.

(١) البلاغة العربية، قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان والشركة المصرية، ط ١، ١٩٩٧، ص ٣١٦.

الفصل الخامس

التشابه في الفواصل

تمهيد:

ليست هذه الدراسة دراسةً للفاصلة القرآنية من جوانبها كافة، وإنما هي وقف على المتشابهات منها، والمتشابهات من الآيات التي قبلها، أو مما يكون معها آية واحدة، مروراً بما تختلف به هذه الفواصل عما قبلها في بعض الأحيان.

وإذا كانت هذه الدراسة لا تقف طويلاً عند الجانب النغمي من الفاصلة، أو ما سمي بالسجع، فإنها لا بد أن تشير إلى الإيقاع الموسيقي العام في لغة القرآن وأسلوبه وفاصلته بشكل خاص. ولهذا ترى المشركين من عرب الجزيرة العربية نسبوا القرآن إلى الشعر، لا فهماً منهم على أنه الشعر بعينه بما فيه من قوانين موسيقية في رجزه وقصيده، ولكن لما له صلة بالنغم بشكل عام، ولما فيه من فن وتصوير كذلك^(١)، على أن الذي انتهت إليه أغلب الآراء في مسألة الجانب النغمي في القرآن، وفي فاصلته خاصة، أنه ليس مرسلاً، ولا مقيداً بالسجع، ولا

(١) نظريات الشعر عند العرب، د. مصطفى الجوزو، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ١٤٠٢هـ، ص٧٩.

شعراً، بل هو مثاني (متشابه)^(١)، ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣].

إنَّ الفاصلة القرآنية التي نريد أن نقف عندها ليست هي السجع ولا القافية، بل هي الجملة الأخيرة من الآية، أو خاتمة الآية، بينما القافية في تعريف العروضيين هي (آخر ساكنين في البيت مع الحرف المتحرك الذي يسبقهما)^(٢)، وهي تختلف عن السجع أو حرف الروي الذي يتكرر آخر كل قافية، ولا يكون حرف مد.

وما من شك في أنَّ السجع أو حرف الروي يكون عنصراً هاماً من الفاصلة في بعض الأحيان، ويسهم إسهاماً مباشراً في التطريب والتنغيم في حالات الإيقاع الهاديء أو الإيقاع السريع، خاصة وأن التلاوة أمر ملازم للقرآن، فقد قرأ الرسول ﷺ القرآن متلواً مرتلاً، وفعل معه الصحابة، والمسلمون بعد ذلك. قال ابن قتيبة: (وجعله متلواً على طول التلاوة، ومسموعاً لا تمجّه الآذان، وغضاً لا يخلق على كثرة السرد)^(٣).

ومن أكثر الحروف تردداً في هذا السجع الألف والواو والياء، وهي حروف مد، وحرفا النون والميم، وهما حرفان سهلا المخرج، فيهما غنة

(١) قال ابن خلدون: (وأما القرآن، وإن كان من المنشور، إلا أنه خارج الوصفين (يعني وصف السجع ووصف الترسل)، لا يُسمى مرسلاً مطلقاً، ولا مستجعاً، بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، ويشي من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية، وهو معنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٦٧، ص ١٠٩٤.

(٢) ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، أحمد الهاشمي، ص ١١٣، وينظر، أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، دار المعرفة، ط ١، دمشق، ١٩٧٨، ص ١٠٠.

(٣) عن الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيان، محمود صافي، دار الرشيد، دمشق. بيروت، ط ١، ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م، مج ٧، ص ٧٨.

محبّة تساعد على إخراج صوت منغم من الأنف^(١). بالإضافة إلى حروف أخرى يكثر ترديدها في القرآن أكثر من غيرها كالراء واللام.

ولا يعتمد في التنغيم على الحرف الأخير وحده، بل يُعتمد على التوازن والتوازي بين الكلمات الأخيرة من الفاصلة، وربما على الفاصلة كلها بما تكون من جملة. والبلاغيون يقفون عندما يسمونه المرصع والمتوازي والمطرّف من أنماط السجع هذه، ولكل منها أمثله في الفواصل القرآنية^(٢).

ويهمنا أن نختم هذا الحديث العام عن الفاصلة القرآنية بأنها، وبشكلها الذي يتجاوز حروف السجع، تؤدي شحنتين اثنتين: أولاهما شحنة من الوقع الموسيقي، وشحنة من المعنى المتمم للآية والمرتبطة بها ارتباطاً عضوياً.

ولقد عدّ البلاغيون الفواصل من إعجاز القرآن، لأنها تسهم في إفهام المعاني، وهي تختلف عن الأسجاع التي قد يحدث فيها التكلف وتكون المعاني تابعة لها. ولذلك قال بعضهم بأن الفواصل بلاغة، والأسجاع عيب^(٣).

(١) التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، دار الشروق، بيروت، ط ٢، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م، ص ٢٠٣.

(٢) علوم البلاغة العربية، د. محمد ربيع، دار الفكر، عمان، الأردن، ط ١، ١٤١٢هـ، ١٩٩١، ص ١٧٣.

(٣) ينظر آراء علماء الذين ينفون السجع عن القرآن، ويسمونه الفاصلة، في الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، مؤسسات عبد الكريم بن سلامة، ط ١، تونس، ١٩٨٠، ص ٢٢٨. وتُنظر رسالة الماجستير (النقد الأدبي في كتب التفسير) لأحمد الشيخ علي، جامعة الكوفة، ١٩٩٨، ص ١١٦.

صور من الفواصل:

للفواصل من حيث علاقتها بما قبلها من السياق، ومن حيث علاقتها بالآية التي نريد مقارنتها بها، أربع صور، هي:

أولاً: اختلاف الآيتين واختلاف فاصلتيهما:

ونريد بهذا أن المادة اللغوية التي يُصاغ منها المضمون السابق للآيتين مختلفة، كما أن المادة اللغوية للفاصلتين مختلفة كذلك وهذا هو الغالب في فواصل القرآن. أي أننا لو أخذنا آيتين من القرآن - لاعلى التعيين - وقارنا بين مادتيهما اللغوية، فإننا سنجدها مختلفة وكذلك مادة الفاصلة فيهما مقارنة للفاصلة التالية، وليست مقارنة للمادة اللغوية في الآية ذاتها.

ولتأمل في هذه الآيات الكريمة من حيث تنوع مضامين آياتها وتنوع خواتيمها بالنظر إلى ما قبلها وما بعدها من الخواتيم أو الفواصل. قال تعالى في سورة المائدة: ١١٦، ١١٧، ١١٨.

١ - ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ۖ﴾

٢ - ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۖ﴾

٣ - ﴿إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَلَا تَبْغِ عَلَيْهِمْ عِذَابًا إِنَّ تَقَفْرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ﴾

فكل آية من الآيات السابقة تسوق فكرة تختلف عن سابقتها ولاحتقتها، كما أن الفواصل مختلفة، كما تلاحظ، وهي ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾، ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ولقد عُني العلماء بالتناسب بين سور القرآن الكريم، وبالتناسب بين آياته، كما عنوا بالتناسب بين صدور الآيات وبين خواتيمها أو فواصلها. ولعلّ هذا أهم ما سنقف عنده في البحث سواء في هذه الصورة من الفواصل أو غيرها.

ففي الآيات السابقة يتضح هذا التكميل - كما يسميه علماء البلاغة^(١) - في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾، فالمعنى على تمامه تأتي هذه الفاصلة لتزيده كمالاً. وواضح أن ما في الفاصلة من معنى مرتبط بمعنى الآية ومترشح عنها. فالذي يعلم ما توسوس به النفس، هو عالم بالغيب، بل علام الغيوب. وأنت تلاحظ هذه العلاقة بين خاتمة الآية الثانية ومضمونها بل ومادتها اللغوية بحيث تأتي نتيجة أو توشيحاً أو إرساداً أو تسهيماً، كما سنلاحظ فيما يلي من الآيات من صور الفاصلة في البحث، ولكن الدهشة التي قد تعتري القارئ المتسرع تتعلق بفاصلة الآية الثالثة، حيث إن المتوقع أن تأتي بهذا الشكل مثلاً: فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، ولكن التأمل النبیه للعلماء ينتهي إلى فهم آخر لموقع الفاصلة، وهو أن (الذي استحق العذاب لا يستطيع أن يغفر له إلا من كانت سلطته أعلى السلطات، وقوته أعظم القوى، وعزته فوق كل عزة. ومن كان كذلك وجب أن يكون متصفاً بالحكمة التي يرفضها العقل والمنطق السليم، وينأى عن الحمق والتسرع والظلم والتهور. وإذا وجدت الفاصلة جاءت بالعزة مقرونة بالحكمة، فاعلم أنّ القادر على العقاب عزيز دائماً، ولكن ليس كل عزيز عادلاً، فكم من ملوك وحكام. ورؤساء، ومن بيدهم سلطان على الناس في هذه الدنيا ملكوا العزة إلا أنهم فقدوا الحكمة التي يسندها العدل والعقل والسلوك المستقيم. أفلا

(١) علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص ١٢٠.

تجد الآن أنَّ ربط الحكمة بالعزة تعبير رائع، وتصوير جامع، وبيان قاطع، لخالق، عزيز حكيم؟^(١).

وفي هذا النمط الذي إذا قارنا فيه بين الآيتين أو الفاصلتين وجدناهما مختلفتين في الصياغة، ومن ثم المضمون، يكثر ذكر أسماء الله الحسنى من مثل العليم والرحيم والحكيم والعزیز، مفردة أو مقترنة ببعضها، مثل: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أو ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أو ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. وقد لاحظنا أن أكثرها وروداً العليم ثم الرحيم ثم الحكيم ثم العزيز، ولم يكن من هدفنا إحصاء الأسماء الأخرى، ولكنها ملاحظة مناسبة للسياق الذي نحن فيه، ودلالاتها واضحة من حيث إن الذي خلق هذا العالم بكل أسرارهِ، وبكل عظمتهِ ودقته، وما كان وما سيؤول إليه، حقيق بالعلم المطلق الأزلي الذاتي والذي لا يحدّ، وفي هذا إشارة إلى وجوب الإذعان والتسليم لصاحب هذا الاسم وغيره من أسمائه الحسنى، ثم إن الله العالم فوق كل عالم، وبكل علم، يعلم من خلَقَ وهو الرحيم بخلقه، الذي يتصرف بهم بما ينفعهم، ويشفق عليهم، وهو أرفق بهم من الرحم الذي يضم الجنين ويحيطه بكل ما يحفظه ويغذيه وينمِّيه... وكل ذلك بحكمة، وكل ذلك بقوة وعزة... إلى غير هذا من أسمائه الكمالية الدالة على ذاته من سمع وبصر ورزق وكبرياء وقهر.

وكلما كان الأمر يتعلق بالأحكام أو بتوجيه تربوي في العلاقات البشرية، وخاصة حين تكون بين الأولياء والرعية، أو بين رب الأسرة والأسرة، أو بين الرجل القوي الغني والمرأة الضعيفة، كان التذكير بأسماء الله الجامعة لكل إحاطة وعلم وسمع وقدرة، لكي يعلم هذا الإنسان أن هناك قوة فوق قوته، وأن هناك قدرة فوق قدرته، وأنه صائر - لا محالة - إلى محكمة الله العليا، فليعدل، وليحذر!!

(١) التعبير الفني في القرآن، ص ٢٠٤.

انظر إلى هذه الآيات من سورة النساء، وتأمل فواصلها التي تحافظ على ذكر أسماء الله الحسنى:

﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمِغْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا بَعْضُ اللَّهِ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٢٨ - ١٣٠] وسترى هذا في الآيات التالية لهذه الآيات كذلك...

وقد تجد آيتين، ضمن هذه الصورة مختلفتين في مضمونهما، مختومتين بفاصلة من أسماء الله الحسنى، لا تختلف إلا من حيث تقديم اسم على آخر. وذلك لحكمة، كما تلاحظ في هذين النموذجين:

١ - ﴿وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ إِذَا أُذِنَ لَهُمْ بَخْسُوا دُونَهُمْ إِنْ يَأْتِيَهُمْ مِنْهُ نَفْعٌ فَلَا يَأْكُلُونَهُ إِتْرَافًا وَتَعَذُّلًا لِلْعُقُوبِ ﴿١٠٤﴾﴾ [يوسف: ٦].

٢ - ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا عِظَامٌ كَالْحِجَارِ يُدْرَأُونَ بِهَا فِي الْغِيَابِ وَهُمْ كَافِرُونَ بِالْحَقِّ إِذْ أَخْرَجَهُمُ اللَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ مِصْرَ وَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّهُمْ قَوْمٌ كَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩].

وعلى شاكلة الآية الأولى يرد الكثير من الآيات حيث يتقدم (عليم) على (حكيم)، لأن الله علم فحكم؛ ولأن العلم ناشئ عن الحكمة. أما في آية الأنعام الثانية، فقد ردت في مقام تشريع الأحكام^(١)، وإن الإشارة

(١) ينظر بحث (من مظاهر الإعجاز في القرآن)، الأستاذ سعيد سالم الفاندي، مجلة الدعوة، طرابلس، ع ٩، ١٩٩٢، ص ١٧٩، وينظر تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، في تفسيره للآية ٨٣ من سورة الأنعام، وللآية: ٦ من سورة يوسف.

معه إلى الحكمة أنسب، لما في تقدير الأحكام من حكمة، مثلما قدمها في مقام الفصل في الأحكام عند ذكر امتنانه على داود وسليمان ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

هذا النمط من الآيات لا يشتمل على شيء من المتشابهات إلا في حدود ضيقة، ولكننا أشرنا إليه على أنه نوع من الفواصل في القرآن، ننطلق منه إلى الصور الثلاث الآتية، وهي من المتشابهات على درجات متفاوتة، كما سنلاحظ.

ثانياً: اختلاف الآيتين وتشابه فاصلتيهما:

في هذا النمط من الآيات يأتي صدرا الآيتين مختلفين من حيث مادتهما اللغوية، وإن تشابها في المضمون العام، بينما تتشابه الفاصلتان لغوياً ومضمونياً. وربما شمل هذا آيات متعددة في سور معينة من القرآن حيث تتعدد صياغة الآيات، بينما تلازم الفاصلة حالة واحدة في مثل سورة (الرحمن)، حيث تتردد الفاصلة ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمْ ءَكَذَّبْتُمْ﴾ [الرحمن: ١٣]، وسورة القمر، حيث تتردد الفاصلة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وفي سورة المرسلات: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]. ولقد سمينا هذا فاصلة، على الرغم من أنها آيات كاملة في ترقيم المصحف، لأنها ترددت وأصبحت لازمة كالفافية في الشعر، وإن تفاوت الشكل بينهما كما أشرنا.

قلنا إن مضامين الآيات في صدورهما مختلفة وإن بدا سياقها العام متشابهاً. ففي سورة (الرحمن) مثلاً يتم الحديث عن نعم مختلفة مثل خلق الجن والإنسان، والبحار وما فيها، والسفن التي تجري فيها، وقد تباعد هذه النعم في الظاهر، كقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (٤١) ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمْ ءَكَذَّبْتُمْ﴾ [الرحمن: ٤١-٤٢].

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾
فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٥].

وربما قيل أية نعمة هذه التي تتحدث عن العذاب الذي يعد الأخذ بالنواصي والأقدام صورة منه؟ نقول: إن هذا العقاب نعمة إلهية كذلك، لأنه صورة من صور العدل الإلهي، ولأنه وسيلة وضمان لارتباط الإنسان بالله وسيره وفق مقتضى سننه وأحكامه وتوجيهه، وبدون هذه العقوبة الأخروية، لن يكون هناك عدل، وسيعم الحياة الظلم والخراب. ولئن أجل - سبحانه - العذاب لبعض الناس في الدنيا، فلن يفلتوا من قبضته يوم القيامة. وهذه نعمة، لأن في العقوبة الصلاح.

ولقد أشار العلماء إلى أن تردّد هذه الآيات في السورة المذكورة ليس تكراراً، لأنّ مضامين ما قبلها غير متشابهة، كما ذكرنا^(١).

وفي سورة (المرسلات) يأتي تكرير هذه الفاصلة ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ في محله، لأن آيات السورة تتحدث عن هول اليوم الآخر وعذابه، فلا غرابة في أن تكرار هذا الإنذار يملأ القلب رعباً من التكذيب بهذا اليوم الواقع بلا ريب.

وفي سورة الشعراء كررت هذه الفاصلة ثماني مرّات ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ [الشعراء: ٨-٩]، وقد جاءت كل واحدة منها متمكنة من موضعها، وقد جاء أغلبها عقب كل ما يجدر أن يكون عظة يعتبر بها، كانفلاق البحر لموسى، وندم جند إبليس بعد مواجهة مصيرهم، كما تكررت بعد قصة صالح ولوط

(١) انظر، من أسرار التكرار في القرآن للكرماني، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار بوسلامة، تونس، ط ١، ١٩٨٣، ص ٢١٣.

وشعيب بما هو معروف من مصائرهم، وما تدعو إليه هذه المصائر من تأمل (وكأن تلك الآية المكررة تشير إلى مرحلة من القول، يحسن الوقوف عندها والترتيب لتدبرها، وتأمل ما تحوي من دروس تستفاد مما مضى من حوادث التاريخ)^(١).

وقد جاء وصفه تعالى لذاته بالعزة والرحمة ليناسب الحديث عن مصير الكافر والمؤمن، فهو عزيز يعاقب الكافر، ورحيم بمن آمن به وصدق رسله واتعظ بآياته.

تلاحظ أن وقفنا السابقة كانت عند آيات متجاورة أو متباعدة من السورة الواحدة، حيث تختلف صدور الآيات إذا قورنت بالآيات الأخرى التي تنتهي بالفاصلة نفسها. أما الآن فنريد الوقوف عند آيات من سور مختلفة، حيث يتجلى لنا الاختلاف في صدور الآيات فيما بينها، والتشابه في أعجازها أو فواصلها.

ولقد مرّ علينا في الفقرة السابقة كيف يختم كثير من الآيات بأسماء الله الحسنى، ولكنها لا تلتزم اسماً محدداً منها، وقد أشرنا إلى أكثرها تكراراً وهي العليم فالرحيم فالحكيم فالعزيز... ونريد أن نشير هنا إلى خواتيم متشابهة منها تشتمل على تلك الأسماء.

ولننظر إلى هاتين الآيتين اللتين تختتمان بفاصلة متشابهة قوامها أسماء الله الحسنى التي من أبرزها (العليم) وهما:

- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

(١) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٥٠، ص١٥٤.

- ﴿قُلْ أَتَمَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦].

فالتشابه هنا، كما تلاحظ في الفواصل وليس في صدور الآيات، كما أشرنا، والعلم الذي وصف به تعالى في الآية الأولى هو علم بكل شيء، وقد وصف الله نفسه بهذا العلم الشامل في الآية الثانية كذلك، ولكن سياق الآية الأولى أو صدرها يشير إلى العلم الكوني الظاهر والباطن، بينما سياق الآية الثانية وصدرها فيه إشارة إلى العلم الباطن وخاصة ما في النفس الإنسانية من تقوى أو ضلال، إيمان، أو كفر، وبكل ما توسوس به النفوس من نيات وأهداف.

ولقد تكررت فواصل قرآنية مؤكدة هذا المعنى الذي فيه اطلاع وعلم دقيق ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، بكل ما في هذه الصدور من أحاسيس ومشاعر وأسرار. فهو الذي ﴿يَعْلَمُ الْغُيُوبَ وَمَا يُخْفَى﴾ [الأعلى: ٧] و﴿يَعْلَمُ الْغُيُوبَ وَخَفَى﴾ [طه: ٧]، كذلك. وهذه الفواصل المكررة، مثلها مثل الفاصلتين السابقتين تتسق والمعنى الذي يتصدر الآية، وهو ما تضمّره الضمائر والنفوس من نيات وأهداف، من مثل:

- ﴿هَآأَنَآ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَعْنِيَكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَٰلِمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

- ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَٰلِمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣].

وقد يقرن اسم العلم بالحكمة، للإشارة إلى هذا العلم القائم على الحكمة، فهو الذي خلق خلقه بعلم وحكمة بالغة، وتدبير محكم، وهو يحرم بعلم وحكمة، وهو الذي يبتلي بعلم وحكمة، وهو الذي يمنع

ويعطي، ويؤجل، بعلم وحكمة كذلك، كما تشير إليه هذه الفواصل المتكررة في الآيات التالية:

- ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾
[البقرة: ٣٢].

- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

﴿إِنْ رَئِيَ لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

﴿قَدْ فَضَّ اللَّهُ لَكُمْ فَلْجَةً أَيْمَنَكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾
[التحریم: ٢].

كما قد يقترن اسم (العليم) بـ(الخبير)، وهما من عالم واحد، فالعلم الذي يتجاوز الظواهر إلى الأعماق ويختبرها ويدري بماهياتها ومستقرها ومستودعها ومنشأها ومآلها، هو العلم الجدير بأن يسمى علماً حقيقياً محيطاً بموضوعه من أقطاره كلها، لا يند عنه منه شيء. انظر إلى هاتين الآيتين:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

- ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

أبعد هذا العلم من علم؟ أو بعد هذه الخبرة والإحاطة، من خبرة وإحاطة؟ ولعله بسبب من هذا تجد الاسمين من أسمائه الحسنی يتجاوران معاً في كثير من الآيات، فيردان اثنين اثنين، وغالباً ما يأتيان متناسبين

ومن جو واحد فالقوي مع العزيز، والغفور مع الحليم، وهكذا...
وقلما يصف بهما مجتمعين غير ذاته سبحانه^(١).

وتتكرر الفواصل التي تصف الله سبحانه بأنه على كل شيء قدير عقب صدور الآيات التي تتحدث عن بديع صنعه، وعظيم قدرته، وكثير آياته، فهو القادر على أن يعز وهو القادر على أن يذل، وهو القادر على أن يحيي والقادر على أن يميت، وهو القادر على غفران الذنوب وقبول التوبة من عباده المجرمين، ولا يقدر على ذلك سواه.

- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ سَيِّدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

- ﴿وَلِلَّهِ عِثْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفِجِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].

- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦].

- ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا ثَوْرَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: ٨].

ويمثل هذه الخاتمة أو الفاصلةأتي الوصف بـ﴿الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ وبـ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وأنه ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ في سياق سابق دال على الوعيد والتشديد على أخذ أوامره ونواهيه - سبحانه - مأخذ الجد والعزم

(١) في مثل قوله وصفاً للرسول محمد ﷺ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقوله في السخرية ممن يأكل من شجرة الزقوم يوم القيامة، فيقال له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. ولو كان عزيز كريماً، ما كان في مثل ذلك الهوان الذي ما بعده هوان!!

والحرص، وإلا فإنه سوف يأخذ من يتهاون فيها أخذ عزيز مقتدر، لا يفلت من عقابه - إذا أراد - شيء في الأرض ولا في السماء. انظر إلى هذا النمط من الفواصل في الآيات التالية:

- ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

- ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

- ﴿فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

فأنت تلاحظ أن الآية الأولى ختمت بـ ﴿الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ لأن الذي يغلب هو وأنصاره ورسله قوي عزيز. والذي يرسل الكتب بالعدل والميزان ومن يقوم على هذا العدل يحتاج إلى أن يكون قوياً، والذي يرسل الحديد القوي الذي فيه بأس شديد، وتعد منه عدد القتال، وتصنع منه الأشياء الصلبة التي تنفع الناس في معاشهم، قوي عزيز. بل إن الإشارة إلى الحديد وحده، كافية إلى التذكير بالقوة والشدة والصلابة. وهذا ما أشارت إليه الآية الثانية.

أما الآية الثالثة فقد وصف نفسه - سبحانه - في فاصلتها بأنه شديد العقاب، لأن الأمر فيه مظالم، إذا لم تمنع، ويؤخذ على أيدي الظلمة والفاستدين فإن الشر والفتنة تعم الجميع. فالأمر فيه جد وخطورة وفساد كبير لا يتعلق بالأفراد فقط، بل بمصائر الأمم والشعوب.

وفي الآية الرابعة تهديد ووعيد واضح لمن يتنكب عن طريق الحق، ولمن يزيغ عن الجادة، ولمن يختار الظلمات بعد أن تهيأت له سبل الهداية والرشاد. ولذلك وصف نفسه - سبحانه - بالعزة القوية الحكيمة.

وهذا التناسب والتقارب بين المصادر والموارد، أو بين صدور الآيات وفواصلها، بحيث تأتي الفاصلة استجابة لسياق الآية العام أي فيما قبلها من الآيات، أو لسياقها الذاتي الخاص، أو تركيبها الداخلي من حيث المعنى والفكرة، هو الذي يصطلح علماء البلاغة على تسميته بـ(مراعاة النظر)، وهو الذي عقدوا له صفحات خاصة من مفردات علم البديع^(١)، وواضح من دلالة المصطلح أن الآية ذات عالم واحد متناظر متشابه تتهدى فيه المعاني وتنساب، وينظر بعضها بعضها سواء في الآيات المتجاورة، أو في أطراف الآية الواحدة. وهذا هو المستوحى من قوله تعالى: ﴿مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣].

وإذا ما خرج ظاهر الفاصلة عن (مراعاة النظر) هذه، فلا بد من وجود سبب معنوي أو لفظي لذلك، وقد عني علماء البلاغة بمثل هذه المواضع، وتحدثوا عما سموه بـ(إيهام التناسب)، كما تحدثوا عن أهمية التناسب في الكلام مما يزيده وضوحاً، (ويحمل السامع على تقبله والافتناع به. فالإنسان يتذكر بالشيء ما يناسبه، ويستحضر بالمعنى ما يوافقه، وإذا كانت المعاني تتداعى. كما يقول علماء النفس. فواجب المتكلم أن يلاحظ ما يقتضيه ذلك)^(٢). ولقد روي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزُورٌ رَحِيمٌ﴾ بدل قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، فقال الأعرابي. بفطرته دون أن يكون

(١) ينظر، دراسات في البلاغة العربية، د. عبد العاطي علام، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ط ١، ١٩٩٧، ص ١٧٣.

(٢) نفسه، ص ١٧٧.

حافظاً. إن كان هذا كلام الله فلا، فإن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزل، لأنه إغراء عليه^(١). وقد صدق إحساس الأعرابي، لأن صدر الآية لا يتناسب مع خاتمتها إذا قرئت ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهو ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾.

فيما مرّ من الفقرات وقفنا عند الفاصلة الذاكرة لصفات الله تعالى بما يتناسب وصدر الآية، وقد أشرنا إلى أنّ هذه الصفات ترد اثنتين اثنتين، كما أنها ترد بصور مختلفة، من مثل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَمَلُّونَ بَصِيرٌ﴾ وهكذا... ومن الواضح أن تكرار هذه الصفات يؤدي إلى استقرارها في النفوس، لينبثق عنها الإيمان المكين، والعمل الصالح. فللتكرار وظيفته الاجتماعية والنفسية (فإذا تكرار الشيء رسخ في الأذهان رسوخاً ينتهي بقبوله حقيقة ناصعة) كما يقول غوستاف لوبون^(٢).

بعد ذلك نقف عند الفواصل التي تتكون مادتها من صفات البشر ومن أفعالهم في إطار تشابه الفاصلة بين الآيتين بينما صدرا الآيتين يتحدثان عن موضوعين مختلفين من حيث الصياغة لتتجلى لنا صور أخرى من التناسب بين فواصل الآيات وصدورها.

ولننظر إلى هذه الفواصل المتكررة التي يرد فيها لفظ الظالمين، من مثل ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، فقد وردت أربع مرّات في القرآن الكريم، و﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ التي وردت ست مرّات، أما ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فقد وردت أربع مرّات، وهذا يدل على كثافة لفظ

(١) التعبير الفني في القرآن، ص ٢٠٥.

(٢) ينظر، من بلاغة القرآن، ص ١٤٣.

الظلم ومشتقاته في القرآن، فقد ذكر حوالى (١٨٠) مرة في القرآن كله^(١)، وفيه إشارة إلى اهتمام القرآن الكريم بهذا الموضوع سواء فيما يتعلق بنفي الظلم عن الذات الإلهية، أو فيما يتعلق بتوجيه الله - سبحانه - لعباده بأن يتجنبوا الظلم للناس، وأن يقاوموا الظلمة، ويُنصفوا إخوانهم الواقعيين تحت الظلم وينصرونهم، إلى غير هذا من المفاهيم المتصلة بالظلم وأثره على تخلف الأمم وعمرانها^(٢).

وستجد التناسب قائماً بين صدور الآيات وخواتيمها معنوياً تارة ولفظياً تارة أخرى، وخذ أي آية من تلك الآيات، وانظر ماذا بين مقدمة الآية وفاصلتها من علاقة وترابط، ولتكن هذه الآية من سورة الأنعام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]. بهذا التناسب اللفظي بين (أظلم) و(الظالمون)، وبما يحدثه تكرار الحروف المتشابه من وقع في النفس، وهو يشبه ما يسمى بالشعر بـ(رد العجز على الصدر)، ولكنه في الأسلوب القرآني يُسمى (التصدير)^(٣)، بالإضافة إلى التناسب المعنوي بين الظلم المفترى على الله، أو المكذب بآياته، وبين العقابة التي سيؤول إليها الظالمون، وهي عدم الفلاح^(٤).

(١) ينظر، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي، بالإضافة إلى متشابه القرآن لأبي الحسن علي بن حمزة الكسائي، وهو أول معجم ألف في احصاء متشابهات القرآن، تحقيق د. صبيح التميمي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط ١، ١٤٠٢ هـ، ١٩٩٤ م، ص ١٥٥.

(٢) ينظر كتابنا، الاعجاز القرآني أسلوباً ومضموناً، دار المرتضى، بيروت، ط ١، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣ م، مبحث (الظلم والظالمون في القرآن الكريم)، ص ١٧١.

(٣) التعبير الفني في القرآن، ص ٢٠٦.

(٤) تنظر آيات: ١٣٥ من سورة الأنعام، و ٢٣ من سورة يوسف، و ٣٧ من سورة القصص.

ثم انظر إلى هذه الآية التي تنتهي بالفاصلة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ من سورة البقرة.

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعَثُ وَأُمِّيْتُ قَالَ أَنَا أُخِي - وَأُمِّيْتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

آية هداية ترتجى من الله رب العالمين لهذا النمط المتكبر المتجبر الذي لا يفتح قلبه ووجدانه على الوجود من حوله، ولا يتدبر من حوله، ويدعي ما لا يحق له، بل إنه ليحاد بارثه وخالفه، غير الخسران المبين. ويكفي أن يقول المولى - سبحانه - إنه لا يهدي مثل هؤلاء، بل يكفي أن يقول إنه ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧] فهذا وحده إيذان بطردهم من رحمته، وإيقافهم يوم الحشر الأكبر موقف الأذلاء المدحورين.

وتجد مقابل هذا فواصل كثيرة تنتهي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ و﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطْهَرِينَ﴾... وهو حب يتبعه رضا وغفران ورحمة وجنان من النعيم المقيم. ويهمننا في هذا السياق أن نؤكد فكرة التناسق والمناسبة بين مثل هذه الفواصل وسابقتها من مقدمات آياتها، لا يخطئك النظر في التعرف عليها والإحساس بجمالياتها المعنوية واللفظية والموسيقية.

قلنا إننا هنا مع الفواصل التي تتحدث عن أفعال العباد، وتكون الضمائر في أفعالها، أو فيما هو في معناها، عائدة إلى الإنسان، أو الناس عموماً. وبينما يكون هذا التشابه في الفواصل يبقى التباين في المقدمات... كما هو الحال في مثل هذه الآيات:

- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

وفي نمط آخر من تشابه الفواصل:

- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣].

ونمط ثالث تنتهي آياته بفواصل من مثل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أو ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أو ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وفي هذه الفواصل ثناء على هؤلاء الذين يعقلون ويسمعون ويؤمنون، ودعوة لغيرهم ممن يشترك معهم بالحواس والقلوب والعقول إلى التأمل الذي ينتهي إلى الإيمان لا محالة. وفي القرآن مساحة واسعة من هذه الفواصل التي تفتح حواس الإنسان كلها وتحرك كيانه كله، بما فيها من تحريك مكان المواهب والملكات. وفي هذا التكرير تثبيت وترسيخ لأنماط من التفكير والسلوك والتعامل مع الكون وظواهره، وهو دالٌّ دلالة قاطعة على خالقه ومنشئه ومبدعه ومدبر سيره.

وفي نمط آخر من الفواصل المتشابهة في هذا السياق تصاغ فيه الفاصلة بأسلوب من الاستفهام الذي يستحث الكيان الإنساني إلى التذكر والتفكير والتأمل بصيغ من مثل: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

أو من مثل هذه الصيغ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] أو ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦، والأنفال: ٥٧]. وكلها تكرار لمعاني الدعوة إلى التأمل واستخدام الإنسان لملكاته آدميته، وعدم التفريط بها، لأن في ذلك هدراً لقيمته وكرامته، وإحاقاً له في جموع الحيوانات أو الكائنات غير ذات الإرادة والمسؤولية.

ولقد قررنا من قبل أن هذه الفواصل متشابهة ومتكررة بينما مقدماتها من الآيات مختلفة، وما أردنا به إلا الاختلاف الصياغي اللفظي، أما المعاني فليس بينها كبير اختلاف فهي مجال للتذكير بعظمة الله وقدرته وآياته، أو هي معانٍ للاحتجاج والبرهان على تلك العظمة والقدرة، أو غير هذا من المعاني المتقاربة في مجال التوجيه التربوي للدين. وفي هذا المجال نكرر ثانية فكرة المناسبة بين هذه المعاني في صدور الآيات وبين خواتيها من الفواصل كما لاحظنا في الآيات السابقة.

وإذا كان في الآيات ثناء على البشر الذين يعقلون ويتفكرون ويؤمنون وفيها دعوة إلى التأمل والتفكير والتعقل والإيمان، فإن في أنماط أخرى من الفواصل ذم وتبكيث للذين لا يريدون أن يتأملوا أو يتفكروا أو يعقلوا أو يؤمنوا، من مثل: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، و﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾. وهي بهذا التكرار تسجيل لسنة الهيبة في الخلق، وهي أن القليل منهم هم الشكورون والمتقون والمصلحون، ولما كانوا كذلك كانوا هم (القليل) أو (الثلة) في جنات النعيم ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ [الواقعة: ١٣ - ١٤]. وإذا كان ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ و﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ و﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ و﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فإن الله - سبحانه - ذراً لجهنم هذه

الكثرة الكاثرة منهم، ليحشرهم أفواجاً أفواجاً خالدين فيها لا يموتون فيها، ولا يخفف عنهم من عذابها، ذلك وعد من الله غير مكذوب، وتلك سنة كبرى من سننه في الخلق ومآلهم، وعدل أعظم ينتهي إليه الكون بخلقه ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ونرجع إلى فن المناسبة في هذا كله، وهو فن يصل إلى درجة من الكمال والإتقان، حتى أن النفس الواعية، والحس المرهف، ليسارع إلى إتمام الفاصلة قبل أوانها، فينطقها قبل أن ينطقها قارئ القرآن... وذلك ما وقف عنده علماء البلاغة في علم البديع وسموه فن (الإرصاد)، ونظراً لكثرة تأملهم في هذا الفن كثرت مصطلحاتهم فيه، فمنهم من سماه الإرصاد ومنهم من سماه (التسليم) ومنهم من سماه (التوشيح). ومنهم من اقترح أن يسميه (التبيين)، وكلهم يستحضرون فكرة نضوج القافية في البيت الشعري وانبائها عن ذاتها قبل إكمال الشاعر البيت بها^(١). وقد قال أبو هلال العسكري عنه: (وهو أن يكون مبدأ الكلام ينبىء عن مقطعه، وأوله يخبر بآخره، وصدوره يشهد بعجزه، حتى لو سمعت شعراً، أو عرفت رواية، ثم سمعت صدر بيت منه وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه)^(٢).

وإذا كان هذا شأن الإرصاد أو التوشيح في الكلام الجيد من كلام البشر، فهو أعظم في كلام الله سبحانه، وإن أمثلته لتعلو ولا يُعلى عليها، وإن فيها لمشاهد تدعو إلى الدهشة، وتحرك العقول والأحاسيس. ولقد مرّ علينا كيف سارع معاذ بن جبل، وهو ذو الحس الفطري المتوقد الذي عضده الإيمان بالإسلام، إلى إكمال الآية، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

(١) ينظر بحث (فن الإرصاد وأثره في البيان العربي) د. أحمد سالم الديب، مجلة الدعوة الإسلامية، طرابلس، ع ١٣، ١٩٩٦، ص ٣٥٧.

(٢) الصناعتين، ص ٣٨٢، عن المصدر السابق في الصفحة نفسها.

الْحَالِقِينَ﴾ . . . قبل أن يتم الرسول الآية . . . ولقد ابتسم الرسول، وأقر أنها كذلك نزلت!!

وليس غريباً في هذا العصر؛ وفي كل عصر أن من يقرأ صدر الآية ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ﴾، وهي من الآيات المتكررة بفواصلها، أن يضيف إليها ﴿كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ قبل أن يتمها قارئها، لأنها مرتقبة مرصودة من لدن القارئ، ولأن معناها ينساب إلى القلب بما يجعله يقظاً متحسناً لما جانسها وأشبهها. وقل مثل هذا في كثير من الفواصل المتكررة التي هي رصد لما قبلها من المعاني، أو توشيح له.

قلنا إنه إذا لم تكن العلاقة بين الفاصلة، وصدر آيتها (ارصاداً) بمثل هذه الدرجة من الوشاجة، فهو من قبيل (التصدير) الذي تشبه أعجازه صدوره في إيراد بعض الألفاظ، أو هو من قبيل (مراعاة النظر) الذي يؤاخي فيه المعنى أخاه، وتنضم الفكرة فيه إلى عائلتها، ومن كل هذه الأنماط نحن واجدون مثلاً ومجلى في الفاصلة القرآنية.

ثالثاً: تشابه الفكرة واختلاف الفاصلة:

ونريد بهذا النمط تشابه الآيتين أو الآيات في صدورهما أو مقدماتها، في حين أن فواصلها مختلفة عن بعضها، وفي هذا اختلاف عن النمطين السابقين من حيث نوع الصدور والفواصل، حيث - كما في الفقرة السابقة - اختلفت الصدور وتشابهت الفواصل. وفي هذا بعض الدلالات التي تنبئ بها طوابع الفاصلة في القرآن الكريم وتنوعها.

ولنبداً بعائلة من الفواصل خاصة بالعقل مثل ﴿يَقُولُونَ﴾، والعلم مثل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ والفكر ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾، والتفقه ﴿وَيَفْقَهُونَ﴾، والخاصة بالحواس مثل ﴿يَشْعُرُونَ﴾، و﴿يَسْمَعُونَ﴾ و﴿يُبْصِرُونَ﴾. وقد أشرنا إلى شيء من هذا من قبل، ولكن في سياق تشابه الفاصلتين في حين أننا هنا في معرض اختلاف الفاصلتين. والتأمل في دلالة هذا الاختلاف.

قال تعالى في سورة البقرة:

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

فالآية الأولى تختتم بفعل ينتمي إلى عائلة الحواس ﴿يَشْعُرُونَ﴾، في حين أن الثانية تختتم بفعل ينتمي إلى عائلة المعرفة ﴿يَعْلَمُونَ﴾. والقرآن لا يستخدم هذه الأفعال اعتباطاً بل يستخدمها استخداماً دقيقاً قائماً على سياقها ووظيفتها التوصيلية. فالآية الأولى تتحدث عن الفساد وما فيه من هوى وعصبية قائمة على العادات والتقاليد، والآية الثانية تذكر العلم الذي هو مقابل الجهل والسفه. قال الزمخشري: (إن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة. وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض، فأمر دنيوي مبني على العادات معلوم عند الناس خصوصاً عند العرب في جاهليتهم، وما كان قائماً بينهم من التغاور والتناحر والتحارب والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد، ولأنه ذكر السفه وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له)^(١).

وإذا كان القرآن يتناول هذه الفروق بين أفعال المعرفة والحواس بدقة بالغة، فإنه يتناول بالدقة ذاتها الفروق بين أفعال المعرفة فيختم آية بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ وأخرى بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾، إذا كان السياق يقتضي ذلك، إذ (العلم أبلغ درجة من العقل) كما يقول الشيخ الكرمانى^(٢)، والدليل على أن

(١) الكشاف للزمخشري، ج ١، ص ١٤٠، والتعبير الفني، ص ١٨٤.

(٢) من أسرار التكرار، ص ٣٨.

العلم أرفع من العقل أن الله لا يوصف بالعقل، وإنما يوصف بالعلم^(١). وهو يفرق كذلك بين ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و﴿يَقْقَهُونَ﴾ في آيتين متجاورتين حيث ينفي الأدنى ﴿يَقْقَهُونَ﴾ عن المخاطبين حين يريد التعريض بكونهم لا يستعملون أدنى درجات الفهم ولا يتصبرون في أنفسهم^(٢).

ويفرق في آيتين أخريين بين ﴿وَيَنْفَكُرُونَ﴾ و﴿يَقُولُونَ﴾ حين يكون الأمر يشير إلى التدرج في الفهم من التفكير إلى التعقل^(٣).

والأمر نفسه نجده في التفريق بين أفعال الحواس مثلما نجد في هذين النموذجين اللذين تختلف فاصلتهما:

- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ فَتَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تَصْبِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢].

ف﴿تُصْبِرُونَ﴾ و﴿تَسْمَعُونَ﴾ من أفعال الحواس التي تشير إلى السمع والبصر. ولعلك تلاحظ كيف استعمل حاسة السمع مع الليل، وحاسة البصر مع النهار، مما يشعر أن هذا الكلام من لدن لطيف خبير بمخلوقاته وخصائصها، ومثلما يعلم ما توسوس به النفوس يعلم كيف يختار أوزان الكلمات ويراعي تناسبها ويودعها قوة التأثير والبلاغ.

(١) درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكافي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ص٣٩.

(٢) الكشف، ج١، ص٥١٩، الهامش من كلام ابن المنير المالكي، على خلاف الزمخشري الذي فهم ﴿يَقْقَهُونَ﴾ على أنها اللفظ وأدق من ﴿يَعْلَمُونَ﴾، لما في الفقه من فطنة وتدقيق نظر.

(٣) الدرّة، ص٢٤٩ و٢٥٨.

والقرآن حين يستخدم أفعال المعرفة وأفعال الحس ويفرق بينها هذا التفريق الدقيق، إنما يريد أن يستثير مواطن العلم والتفكر والاهتداء، مثلما يريد أن يحرك المشاعر والأحاسيس ويمنح أدوات الحس درجة من الاتقاد والاستجابة العالية للمؤثرات من حولها. وهو يلون في صورها بين الإخبار والاستفهام بما ينقل النفس إلى حال الاستنطاق التلقائي والاستسلام إلى الحقيقة التي يريد أن يستدرج الإنسان إلى الإيمان بها بوعي وعمق وانفعال.

نشير الآن إلى الفواصل التي تشتمل على أسماء الله سبحانه، وكنا أشرنا إلى جانب منها في معرض الحديث عن تشابه الفواصل. أما هنا فنحن نتحدث عن اختلافها، مع تشابه مقدمات الآيات التي وردت فيها. ولنضرب لهذا مثلاً بقوله تعالى في موضعين متشابهين:

- ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾

[النساء: ١٤٩].

- ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

[الأحزاب: ٥٤].

تلاحظ التشابه النسبي في صداري الآيتين والاختلاف في الفاصلتين، وحديثنا ليس عن الفرق بين (خيراً) في الآية الأولى و(شيئاً) في الآية الثانية، فلذلك مجال آخر، وإنما عن اختتام الآيتين بفاصلتين مختلفتين. فقد جاءت الأولى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾؛ لأن الموضع موضع تعامل وعلاقات يتعاورها الظلم بين الناس، وإنه يحق للمرء أن يجهر بذكر من ظلمه بالقول أو الفعل، وإن كان من المستحسن عدم الجهر بالسوء مهما كان شكله، وهذا من نظافة الإسلام وطهارة النفوس التي يرتقي بها إلى مدارج الكمال. ولقد جاء الحديث عن (العفو) هنا مناسباً. فهو إغراء بالعفو من لدن الناس بالتذكير بعفو الله القادر، ولن يعفو إلا القادر!!، وفيه دعوة إلى التشبه بأخلاق الله التي يرتضيها لعباده.

أما خاتمة الآية الثانية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، فقد ناسبت فعلاً خفياً في دخائل النفوس، يتعلق بالهواجس والنوايا التي تعتلج بالنفوس إذا تحدثت إلى النساء، وإن كنَّ من قبيل نساء النبي!!، فقد جاءت الآية بعد قوله تعالى في الآية التي قبلها ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، أي إن تبدو شيئاً من نكاحهنَّ على ألسنتكم أو تخفوه في صدوركم، فإن الله يعلم ذلك فيعاقبكم به^(١). ذلك علم الله الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. أرايت كيف كان الحديث عن العلم في موضع، وكيف كان الحديث عن العفو في موضع آخر في هذه الفواصل القرآنية المعجزة؟.

وإذا كان الباحثون لم يحشدوا جهدهم للمجال الذي نتحدث عنه ونحاول أن نلقي عليه الضوء ونجعله واضحاً مشمولاً بوحدة موضوعية أو عضوية في رصده، فإنهم أشاروا بقولهم: (اختلاف الفاصلتين والمتحدث عنه واحد) إلى ما نحن بصده من تشابه صدور الآيات واختلاف فواصلها، وضربوا له مثلاً في غير مجال الحديث عن أسماء الله تعالى في الفاصلتين معاً، وإنما يرد اسمه تعالى في فاصلة، واسم الإنسان في فاصلة أخرى:

- ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

- ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

فقالوا: (إن القرآن راعى مرة موقف الإنسان من نعم الله، فهو ظلوم كفار. وأخرى مقابلة الله - سبحانه - نكران الجميل والظلم والكفر

(١) الكشف، ج ٢، ص ٥٤٨.

بالنعم، بالغفران والرحمة وكان ختام الآية بما ختمت به، لأنها كانت في معرض صلة الإنسان بالله، وكانت الثانية في معرض الحديث عن الله، فناسب ختم الآية بذكر صفاته^(١).

نأتي إلى موضع من الفاصلة يكون الحديث فيه عن المخلوقين من صالحين ومجرمين، ناجين ومعذبين، مهتدين وضالين في إطار عنوان فقرتنا من تشابه الصدور واختلاف الأعجاز (الفواصل)، ونشر إلى هذين المثالين:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧].

فلم اختلفت الفاصلتان مع أن صديري الآيتين لا يختلفان إلا بالواو والفاء؟ يرى الإسكافي ومعه الكرمانى أن آية الأنعام ختمت بـ(الظالمون) ليكون آخر الآية وفقاً لأولها (أظلم). وكذلك الآية الثانية ختمت بـ(المجرمون) لأن الآية السابقة لها. رقم (١٣) جاء فيها ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾، وكأن إجرام اللاحقين من المشركين كان امتداداً لمن سبقهم من الأمم الضالة^(٢).

والظلم المتحدث عنه في الآيتين هو الظلم الذي يعني الشرك المستوحى من قوله تعالى على لسان لقمان يوصي ابنه: ﴿يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وأهون منه التظالم الذي يقع

(١) من بلاغة القرآن، ص ٨٤، والتعبير الفني من القرآن، ص ٢٠٥.

(٢) الدرة، ص ١١٤، وأسرار التكرار، ص ٦٦.

بين العباد، أو الظلم الذي يضر به الإنسان نفسه من تقصير في حق أو طاعة أو معروف^(١)، وما دام الظلم من الدرجة التي لا تغفر، وهي درجة الشرك، فحق أن يوصف أولئك بأنهم مجرمون، وأي جرم أعظم من تطاول العبد على خالقه ومخالفته فطرته، ونكرانه لكل نعمه وأفضاله؟!

وحين يشتمل آخر الآية لفظاً يشبه أولها يسمي علماء البلاغة هذا النوع من التكرار بـ(التصدير)^(٢)، وكأن صدر الآية ينضم إلى نهايتها، وفيه نوع من الوقع التنغمي المرتبط بتعميق المعنى وتثبيته.

ونبقى في جو الآيتين السابقتين فنمثل بقوله تعالى:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

فقد اختلفت الفاصلتان فتحدثت الأولى عن الضلال الذي كان عليه المشركون الذين قالت عنهم الآية اللاحقة: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧] بينما سياق الآية الثانية يتحدث عن اليهود فيما قبل الآية وفيما بعدها، حيث قال تعالى في الآية التي قبلها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]، وقال في الآية التي بعدها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزُكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ قِتِيلًا﴾ [٤٩] أَنْظَرَ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ [النساء: ٤٩ - ٥٠].

(١) الاعجاز القرآني، أسلوباً ومضموناً، للباحث، ص ١٧٥.

(٢) ينظر، التعبير الفني في القرآن، ص ٢٠٦.

فاليهود يفترون على الله ويكذبون، حتى صار ذلك منهم ديدناً وسجية، وهم غير المشركين الذين ليسوا بأهل كتاب أو علم ديني، فناسب اختتام الآية بالافتراء^(١).

وعلماء المتشابهات يرجعون كثيراً منها إلى ما يحيط بالآية متقدماً أو متأخراً، فيجدون فيه أو في بعضه جواباً على قولنا: لم أشبهت هذه الكلمة هذه، ولم اختلفت في هذا الموضع عن غيرها في الموضع نفسه، ولم تقدمت هذه الكلمة وتأخرت غيرها، ولم نكرت هذه وعرفت أختها، ولم كانت هذه الفاصلة في هذه الآية على هذا الوجه وكانت في غيرها على وجه آخر، إلى غير هذا من التساؤلات الأسلوبية والمضمونية مما يكون خاضعاً للدراسات البلاغية في علوم المعاني والبيان والبدیع، أو عائداً إلى الدراسات اللغوية والنحوية.

ففي تساؤلنا: لم جاءت الفاصلتان مختلفتين في هاتين الآيتين:

- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

[الجاثية: ١٥].

- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

[فصلت: ٤٦].

يكون الجواب: لأنه (جاء قبلها حديث عن منكري البعث في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، فناسب ختم الآية بالحديث عنه. أما الآية الثانية فناسب ختمها معناها من جزاء كل بما يستحق^(٢).

(١) من بلاغة القرآن، ص ٨٥، وأسرار التكرار، ص ٥٥.

(٢) من بلاغة القرآن، ص ٨٤.

وقل مثل هذا في هاتين الآيتين المتشابهتين صدرًا المختلفتين
فاصلة:

- ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفُرَىٰ يَظْلِمِ وَأَهْلَهَا غَفْلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

- ﴿وَمَا كَانَ رَّبُّكَ لِيَهْلِكَ الْفُرَىٰ يَظْلِمِ وَأَهْلَهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

حيث جاءت الفاصلة الأولى بـ(غافلون) للبناء على ما تقدم من الحديث عن إنذارهم وتحذيرهم، فاقترضى في هذا المكان أن يقال: لم يؤخذوا وهم غافلون، بل كانوا منبهين بالاعذار والإنذار. أما ختم الفاصلة الثانية بـ(مصلحون) فللبناء على ما تقدم، كذلك.

وهو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ فدل على أن القوم كانوا مفسدين، وكان نقيض الفساد في الأرض الصلاح، فلم يهلكهم الله وهم مصلحون^(١).

وقد تكون مخالفة الفواصل مع تماثل ما قبلها من الآية وتشابهها من أجل تعدد الأوصاف وإثباتها حتى تستقر في النفوس كمثله قوله تعالى في آيات المائدة:

- ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

- ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

- ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ النَّاسِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

فالله - سبحانه - يريد أن يبين أن من لم يحكم بما أنزل الله سائر لما أنزل الله، ظالم لنفسه، فاسق بهذا الستر^(٢). قال الزمخشري: (من جحد

(١) الدرة، ص ١٣١.

(٢) من بلاغة القرآن، ص ٨٥، والتعبير الفني، ص ٢٠٦.

حكم الله كفر، ومن لم يحكم به فهو ظالم فاسق^(١). وقال الكرمانى: قيل لأنّ الأولى نزلت في الحكام المسلمين، والثانية في حكام اليهود، والثالثة في حكام النصارى. وقيل الكافر والفاستق والظالم كلها بمعنى واحد، وهو الكفر، عبر عنه بألفاظ مختلفة لزيادة الفائدة^(٢).

ويأتى تعدد الصفات في الفاصلة في محله من حيث مناسبتة لما قبله من تشابه الآيات من مثل:

- ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

- ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

- ﴿وَلَا تَسْهَوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

لأنه في الأعراف بالغ في الوعظ، فبالغ في الوعيد، فقال ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي هود لما اتصل بقوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾، فوصف العذاب بالقرب، وزاد في الشعراء ذكر اليوم، لأن قبله ﴿وَلَكُمْ يَوْمَ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾^(٣).

وإذا كانت البلاغة القرآنية لا تنبني على أسس شكلية، فإن ما يرى أنه ملحظ شكلي مرتبط بالفكرة ومعتبر عن درجة من درجات تبليغها والتأثير على نفسية متلقيها. وإذ نحن في مجال تشابه صدور الآيات واختلاف فواصلها نشير إلى ما قيل إنه مراعاة لنظم الآي، وفواصله في هذا المقام. ونذكر هذه الأمثلة:

- ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف:

١٢١ - ١٢٢، والشعراء: ٤٧ - ٤٨].

(١) الكشف، ج ٢، ٤٦٣.

(٢) من أسرار التكرار، ص ٦٣، والدرة، ص ٩٩.

(٣) من أسرار التكرار، ص ٨٤.

- ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠].

فقد كانت آيات الأعراف منتهية بالنون، وكذلك الشعراء، فناسب مجيء نسق الفاصلة ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ على شاكلتها، بينما كانت فواصل سورة (طه) منتهية بالألف المقصورة فجاءت الفاصلة ﴿هَارُونَ وَمُوسَى﴾ منسجمة معها^(١). وهذا في الواقع ليس جانباً شكلياً فقط، بل مرتبط بالجو الموسيقي العام في السورة، وهو جو يشيع في النفس وقعاً خاصاً لا يتحقق مع تفاوت النسق وتلونه إلا في الحالات التي تحتاج إلى هذا التلوين والتنويع. وأنت تلاحظ أن كثيراً من السور القرآنية ذات طابع موسيقي خاص، ونسق تعبيرى معين من حيث طول الآيات أو قصرها، ومن حيث تكرار الحرف الأخير في الفاصلة، ففي بعض الآيات تكون الفاصلة جملة متممة أو مكملة للآية السابقة، نظراً لطول الآيات، في حين أن الفاصلة في الآيات القصار لا تعدو أن تكون كلمة أو حرفاً.

ولقد كان ابن الأثير من أكثر العلماء تحمساً لفكرة مراعاة النظم وفواصله حتى قد عدّ من لا يراعي هذا النسق ممن فقد حاسة التذوق، ولم يكن له في مفصل البلاغة نصيب^(٢).

ومثل الآيتين السابقتين قوله تعالى في السورتين ذاتهما وفي سياق القصة ذاتها:

- ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:

[١١٥].

- ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥].

(١) الدرة، ص ١٧٤، والأسرار، ص ٩٠.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق، د. الحوفي، ود. طبانة، نهضة مصر، د.ت، د.ط، ج ٢، ص ١٧٤.

حيث روعي اختلاف النسق في السورتين، سورة الأعراف التي بنيت على المد السابق للنون، وسورة (طه) التي بنيت على حرف الألف المقصورة. ولو جئت بآية الأعراف ووضعتها مكان آية طه، أو آية طه محل آية الأعراف ما كان للنسق تلك الحلاوة، ولأحسست بنفرة أو هزة مربكة للحس والجو النفسي الذي يشيعه التنعيم. وفي هذا المجال كنتُ أقرأ مرة في القرآن ﴿ذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثَ﴾ [القلم: ٤٤]، بدون وعي مني، فوضعتها مكان ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] في سورة المدثر، فأحسست بالفارق النغمي المفاجيء، وكأنَّ الآية الأولى من عالم، والآية الثانية من عالم آخر، على الرغم من اشتراكهما في بداية الآية، ذلك لأن آية القلم الأولى بنيت على النون، بينما آية المدثر في ذلك المقطع خاصة بنيت على الدال ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ⑪ وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا ⑫ وَيَنْ شُهُودًا ⑬ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ⑭ [المدثر: ١١، ١٤].

ومثل هذا آيتا البقرة وطه وفي إطار فكرة التشابه التي نحن بصدددها:

- ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

- ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

ولا تدرك أهمية مراعاة الفاصلة حتى تضع الآية مكان أخرى لتلاحظ مدى قلق كل واحدة منهما في غير موضعها، وتناشزها في إطار الجو العام للسورة.

رابعاً: تشابه الفكرة وتشابه الفاصلة:

ونريد بهذا أن يتحقق التشابه في آيتين أو أكثر بحيث تتشابهان تماماً في صدرهما وفاصلتهما، وهذا قليل في القرآن. ولقد أشرنا في الفقرة الثانية من البحث إلى بعض الآيات المتشابهة على أنها فواصل على الرغم

من أنها آيات ذات أرقام مستقلة في المصحف، من مثل ﴿فَإِنِّي آءِآةٌ رَّبِّكُمْ﴾ [الرحمن: ٤٢]، و﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، و﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٤٠]، لأننا لا نجد في تلك الآيات استقلالاً للفاصلة، ولا نجد للآية صدرأ وخاتمة مثل الآيات الكثيرة الأخرى في القرآن. اللهم إلا إذا عددنا الحروف الأخيرة للآيات التي تشبه السجع في النثر فاصلة، وهذا. في رأينا. تضيق لمفهوم الفاصلة وتحجيم لوظيفتها المعنوية المتعلقة بما قبلها في الآية، كما لاحظنا، فضلاً عن هذا فإننا نجد هذه الآيات تتكرر تعقيباً على آيات سابقة، فهي تؤدي وظيفة الفاصلة، أكثر من كونها آية مستقلة.

نفهم هذا حتى مع الذي تكرر في سورة الشعراء من مثل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٨] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ [الشعراء: ٨ - ٩] حيث تكررت ثماني مرّات، فقد عددناها مع الفواصل لأنها جاءت. كذلك. تعقيبات على ما سبقها من قصص الأنبياء.

أما قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [١٧٧] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا [الشعراء: ١٠٧ - ١٠٨] فقد جاءت خمس مرّات على السنة الرسل في سورة الشعراء كذلك. وهي آيات قصار ليس فيها صدر آية أو فاصلة، بل هي آية وفاصلة. وتكرار الآيات على السنة عدة رسل توحى بصدق هؤلاء الرسل، وتثبيت التصديق بهم^(١).

ونستطيع أن نقول إن الآيات التي تتشابه تماماً مع بعضها من حيث مقدماتها وخواتيمها في القرآن الكريم تكون. في الغالب. متصلة بما قبلها، أو معقبة عليها أو جزءاً منها من مثل هذين النموذجين المتشابهين تماماً:

(١) من بلاغة القرآن، ص ١٤٤.

- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩].

- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٥].

فكل آية استثناء لما قبلها من حكم، ومعلومة الصلة بين المستثنى والمستثنى منه.

وقد يكون مجيء الآيتين المتشابهتين تماماً مرتبطتين بآيتين شبه متشابهتين قبلهما، مع ارتباط مسيس بالفكرة، وعودة الضمائر في الثانية إلى الأولى كمثال هذين النموذجين:

- ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣٣) [التوبة: ٣٢ - ٣٣].

- ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٩) [الصف: ٨ - ٩].

إذ تلاحظ التشابه التام بين الآيتين الأخيرتين، وشبهه في الآيتين الأوليين من حيث الاختلاف بين ﴿أَنْ يُطْفِئُوا﴾ و﴿لِيُطْفِئُوا﴾ وبين ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ﴾ و﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾.

قلنا إن الآيات التي تأتي متشابهة تماماً قليلة في القرآن، وقلنا عما جاء منها بأنها فواصل تأتي على شكل لازمة للتعقيب وتثبيت الفكرة السابقة وتقريرها.

نعم إن الآيات المستقلة الطويلة المتشابهة في القرآن يأتي تشابهها تشابهاً غير تام، وهي كثيرة من مثل:

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوا كَانَتْ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوا كَانَتْ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

والفروق واضحة في ﴿اتَّبِعُوا﴾ و﴿تَعَالَوْا﴾ و﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾، وفي ﴿بَلْ نَتَّبِعُ﴾ و﴿حَسْبُنَا﴾ وفي ﴿مَا أَلْفَيْنَا﴾ و﴿مَا وَجَدْنَا﴾.

ومن مثل:

- ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

- ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

والاختلاف بين في ﴿كَذَّبُوا﴾ و﴿كَفَرُوا﴾ وفي ﴿بِآيَاتِنَا﴾ و﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وفي الفاصلتين ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. ومن المعلوم أن كل نوع من هذا الاختلاف يندرج تحت عنوان أو ملحظ معنوي أو أسلوبى اضطلعت به الدراسات الأسلوبية لبلاغة القرآن من مثل التقديم والتأخير، والإظهار والإضمار، والتوكيد، وتشابه الأفعال، والتعريف والتكثير، والتذكير والتأنيث وغيرها...

وهذا ما يجعل الباحث يطمئن إلى أن الطابع العام للأسلوب القرآني هو التنوع والتلوين، وليس التكرار، وإذا ما وجد التكرار في مواضع فلاهداف أسلوبية خاضعة للدلالة والمغزى التشريعي أو التربوي أو النفسي. وإذا ما وجد التشابه. وهو كثير. فهو أيضاً لتحقيق أهداف القرآن ومقاصده في بناء الإنسان وإخضاعه لمواطن الاستجابة والتأثير، ولكل نمط من هذه المتشابهات وقفة لعلماء الأسلوب في القرآن، تأملنا

بعضها، وما زال الكثير منها يحتاج إلى تملي الفكر البشري والوجدان البشري كذلك .

الخاتمة:

نستطيع أن نقرر في نهاية البحث ما قرره علماء الأسلوب القرآني بأنه (ما انتهت آية قرآنية إلا بفاصلة ملائمة كلِّ الملائمة لمعناها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها، غير نافرة ولا قلقة، ولكنَّ الأفهام، قد تتفاءل عن إدراكِ سرِّها)^(١).

وإن هذه الفاصلة تأتي لوظائف معنوية تغني ما سبقها من صدر الآية أو الآيات. وذلك بضرب من المبالغة والتأكيد، وهو ما سماه علماء البلاغة بـ(الإيغال)^(٢). أو (التكميل) الذي يتجاوز المعنى التام ويزيد عليه كملاً وجمالاً^(٣). وإذا ما رجعنا إلى الآيات التي وقفنا عند فواصلها في الصفحات السابقة وجدنا هذا المعنى الإضافي الذي تضيفه الفاصلة فتبالغ في تعميق المعنى في النفوس، أو تكمله بعد أن كان تاماً، إذ الكمال أمرٌ زائد على التمام.

(١) التعبير الفني في القرآن، ص ٢٠٤.

(٢) علم البديع، ص ١١٦.

(٣) نفسه، ص ١٢١.

الفصل السادس

بلاغة الضمائر في إطار التشابه

تمهيد:

تمر على قارئ كتاب الله العزيز لحظات صفاء وتأمل، ويلتفت إلى بعض القضايا المعنوية أو الفنية، ويظن . أحياناً . أنه لم يلتفت إليها أحدٌ قبله . وهذا ما حدث معي وأنا أتأمل مواضع الضمير وتنوعه ودلالاته وظهوره وخفائه وتوكيده في القرآن الكريم، وما أن أخذت بمراجعة كتب البلاغة وعلوم القرآن حتى وجدت البلاغيين وعلماء العلوم القرآنية يشيرون إلى هذه القضايا بالإيجاز تارة وبالتفصيل تارة أخرى، ومنفصلة مرة، ومرتبطة بموضوع المبهمات مرة أخرى .

والحق أن المرء ليتردد، وهو بصدد التأمل بمعاني القرآن أو أساليبه خشية أن يجانبه الصواب أو يقول ما ليس بحق، ولكن الذي يخفف عنا عبء هذا الإحساس أننا لسنا بصدد استنباط للأحكام الشرعية أو التحقيق في معاني التأويل الخلافية أو بمعرض التفسير بمعناه الواسع، بل هي أحاسيس تعرض للنفس وهي تقف أمام المعجزة القرآنية الباهرة في مضامينها وأساليبها . يقول الشيخ الزرقاني في هذا الصدد: (أما المعاني العامة التي يستشعر بها المرء عظمة مولاه، والتي يفهمها الإنسان عند إطلاق اللفظ الكريم فهي قدر يكاد يكون مشتركاً بين عامة الناس، وهو المأمور به للتدبر والتذكر، لأنه - سبحانه - سهله ويسره، وذلك أدنى مراتب التفسير)^(١) .

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، د. ط، د. ت، ج ٢، ص ٥١.

وقد يقال إن موضوع الضمائر قد تناولته كتب النحو في كثير من جزئياتها بما فيه الكفاية، ولم يتركوا شيئاً لمستزيد. نقول: قد يكون هذا حقاً في مجال علم النحو ووظيفته، ولكننا نقف عند الموضوع من وجهته البلاغية، وهو وإن عرض له في كثير من الكتب والأبحاث ولكنه ما يزال بحاجة إلى وقفات في مجال المنهج والفهم والانطباع والأثر الذي يتركه في النفس إبهامه وتوكيده وتنوعه، وهذا أمر فيه متسع للقول أو التعبير عن الإحساس ما تعدد الناس، وما تعددت مشاربهم ودرجات استعداداتهم الفطرية والمكتسبة. ولا ندعي أننا سنأتي بجديد في الموضوع ولكنه نوع من الإشارة إلى الحاجة في إعادة النظر والتأمل، ونسأله تعالى التسديد والصواب. وسوف نتناول من الموضوع الوجوه الآتية:

أولاً: الإظهار والإضمار والعدول من أحدهما إلى الآخر:

من المعلوم أنّ الضمير ينوب مناب الاسم الظاهر ويعبر عنه. ويعدل عن الاسم الظاهر إلى الضمير لأسباب منها: الاختصار والتفخيم والتحقيق وغيرها^(١). ولكن قد يقتضي المقام الإتيان بالضمير فيعدل عنه إلى الاسم الظاهر لدواعٍ معنوية ولفظية. وهذا هو الملحظ البلاغي في الموضوع. أي أن الأصل أن يؤتى بالضمير كقوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]. وهو الهاء في (اعبدوه) و(اشكروا له) و(إليه). أما حين يكون الكلام على صيغة أخرى من مثل واعبدوا الله، واشكروا الله، وإلى الله تُرجعون، فلا بد من غرض للخروج على خلاف الأصل، وهو أن يعقب الاسم الضمير، لأنه نائب عنه، فلا داعي لذكر الاسم مرتين مع وجود ما ينوب عنه.

(١) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٤، ص ٢٤.

وقد سمي ضياء الدين من الأثير هذا النوع من الخروج على الأصل بـ(عطف المظهر على ضميره، والإفصاح به بعده) لفائدة هي تعظيم شأن الأمر الذي أظهر عنده الاسم المضممر أولاً، ومثل له بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴿٢٠﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠]، وكان القياس أن يقول: يُبدىء الله الخلق، ثم يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ. ثم قال: (والفائدة في ذلك أنه لما كانت الإعادة عندهم من الأمور العظيمة، وكان صدر الكلام واقعاً معهم في الإبداء، وقرّره أن ذلك من الله، احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، وإذا كان الله الذي لا يُعجزه شيء هو الذي لا يعجزه الإبداء، فوجب أن لا تعجزه الإعادة، فللدلالة والتنبيه على عظم هذا الأمر الذي هو الإعادة أبرز اسمه تعالى) (١).

وإذا كان الأمر هنا يتعلق بعظمة خلق الله وعظمة قدرته، فإنه يكون في مواضع أخرى من القرآن إشارة إلى عظم جرم أو اجتراء، كما في قوله تعالى: ﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِي (٢) كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مِنْ مَآبٍ (٣) وَجِئُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) [ص: ١-٤]، وكان القياس في استعمال الضمائر أن يُقال: وقالوا هذا ساحرٌ كذاب. عطفاً على (عجبوا)، وبعد ذكر المظهر الأول: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. قال ابن الأثير: (وإنما أتى باسم الكافرين، مظهراً بعد إضمار. للإشعار بتعظيم ما اجتروا عليه من القول في أمر النبي ﷺ، أو لأن هذا القول كان أهم عندهم وأرسخ في نفوسهم، فصرّح باسم قائله دلالة على ما كان في أنفسهم منه) (٢).

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر؛ نهضة مصر، القاهرة، د.ت، د.ط، تحقيق د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، ج ٢، ص ١٥٧.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ١٥٩.

وأكثر ما يكون من أمر هذا الإظهار مع لفظ الجلالة (الله) سبحانه، وأقل منه مع ذكر الكافرين والمعاندين، وأكثر ما يرد في فواصل الآيات وخواتيمها.

وجاء الزركشي بعد ابن الأثير فأضاف إلى أسباب الخروج عن الأصل، وهو ذكر الضمير بعد ذكر الاسم الظاهر أسباباً كثيرة بلغ بها إلى سبعة عشر سبباً، منها: بالإضافة إلى التعظيم، قصد الإهانة والتحقير والاستلذاذ بذكره، وزيادة التقدير، وإزالة اللبس حيث يكون الضمير يوهم أنه غير المراد، وأن يكون القصد تربية المهابة وإدخال الروعة في ضمير السامع، وغيرها، مع تداخل واضح بين تلك الأسباب التي التقطها الزركشي - كما يبدو - من وقوفه على لفتات المفسرين على اختلاف مناهجهم^(١). وهذه القضية تشير بوضوح تام إلى مدى ما استغنت به الدراسات البلاغية بفضل القرآن العظيم ودراسة علومه والوقوف على مواطن إعجازه وبلاغته، إذ لولا هذا الوقوف على موضع الخروج من الإضمار إلى الإظهار في القرآن ما كانت هناك جهود توجه إلى هذا الموضع في الأساليب الأدبية، وبمثل هذا الاستقصاء والدأب الذي لا يبذل مع غير الكتاب المعجز، والذي يُراد من هذا الجهد معه استنباط الأحكام الشرعية منه بعد فهم أسرارهِ البَيانية مع مزيد من الرّغبة في البحث عن الثواب من لدن منشئه الحكيم الخبير.

ولا نريد، في هذا المجال، أن نستكثر، فنشير إلى المواضع السبعة عشر التي أشار إليها الزركشي، بل نقف عندما ظاهره تكرار الاسم الظاهر الذي بالإمكان الاستغناء عنه بالضمير، وللعلماء فيه رأي غير رأي الزركشي في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ① مَلِكِ النَّاسِ

(١) البرهان، ج ٢، ص ٤٨٤-٤٩٨.

﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٣]. وكان يُفترض أن يقال: ملكهم وإلههم. ولكن الناس هنا ليسوا سواء في المواضع الأربعة من السورة. فقد روى الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، وهو من أكابر علماء الإمامية في القرن السادس الهجري عن جامع العلوم النحوي أنه قال: (وليس قوله (الناس) تكراراً لأن المراد بالأول الأجنّة، ولهذا قال: برب الناس، لأنه يربّيهم. والمراد بالثاني الأطفال؛ ولذلك قال: ملك الناس لأنه يملكهم. والمراد بالثالث: البالغون المكلفون، ولذلك قال: إله الناس لأنهم يعبدونه والمراد بالرابع العلماء، لأن الشيطان يوسوس إليهم، ولا يريد الجاهل؛ لأن الجاهل يضل بجهله، وإنما تقع الوسوسة في قلب العالم^(١)). ومثل هذا قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٧) ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (٨) ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (٩) [الرحمن: ٧ - ٩]. فقد يكون (الميزان) في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ هو العدل كما روي عن الزجاج، والميزان فيما عداها آلة الوزن، فلا يكون فيها الإضممار مناسباً إذا كان المسمى غير واحد. وقد يكون المسمى واحداً وهو الميزان المادي فيكون ذكره من غير إضممار ليكون الثاني قائماً بنفسه في النهي عنه إذا قيل لهم: لا تطغوا في الميزان، كما قال الطبرسي^(٢)، أو (تشديداً للتوصية به وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه) كما قال الزمخشري^(٣).

وربما يكون غير مناسب ما ذكره الزركشي أن العدول هنا من

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، د.ت، ج ٣٠، مج ٦، ص ٢٩٠.

(٢) نفسه، ج ٢٦، ص ٨٦، مج ٦.

(٣) الكشف، ج ٣، ص ١٨٨.

المضمّر إلى الظاهر هو مراعاة للتجنيس^(١)، فما ينبغي للأدب العالي أن يكون أسيراً للجانب الشكلي، وما عرف عن القرآن في تعامله مع الفاصلة أنها يُراعى فيها جانبان: الجانب الشكلي الموسيقي والجانب المعنوي كذلك، ولبعض العلماء رأي في التكرار في أوضح صورته المتجلية في سورة (الرحمن) وسورة (القمر)، وهو إذا أريد بالأول غير ما أريد بالثاني المكرر، فلا تكرار حيثئذٍ، وهكذا الشأن مع قوله تعالى: ﴿فَأَيُّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمن، فكل نعمة مختلفة عن سابقتها، وكلما ذكر نعمة أنعم بها قرر عليها ووبخ على التكذيب بها، كما قال الطبرسي، والخطيب الإسكافي^(٢).

ويتمثل الوجه الثالث من وجوه الإظهار والإضمار في صورة التشابه في التعبير القرآني في مواضع متباعدة من القرآن، أي أن الإضمار يكون في آية، والإظهار يكون في آية أخرى تشبه الثانية إلا من حيث هذه الناحية، من مثل قوله تعالى:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْسَتْ بِهٖ قَبْلَ اَنْ ءَاذَنَ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وقوله: ﴿قَالَ ءَأَمْسَتْ لَمْ قَبْلَ اَنْ ءَاذَنَ لَكُم﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩]. فقد أظهر سبحانه ذكر فرعون في سورة (الأعراف)، وأضمره في سورتي (طه) و(الشعراء)، وفي هذا يقول العلماء الذين يُعنون بسياق الآيات وينظرون إلى السورة القرآنية على أنها ذات وحدة معنوية متكاملة، بأنه صرح بذكر فرعون في سورة الأعراف لوجود بُغْد بقدر عشر آيات بينه وبين ورود مضمراً في آيات سابقة في مثل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَئِنِ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤]، في حين أنه جيء به مضمراً في

(١) البرهان، ج ٢، ص ٤٩٦.

(٢) مجمع البيان، مج ٦، ج ٢٧، ص ٨٧، ودرة التنزيل وغرة التأويل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٤، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م، ص ٤٥٩، ٤٦٤، ٥٣٧.

سورتي (طه) و(الشعراء)، لأنه لم يبعد بعده في سورة الشعراء بل ورد متكرراً مفرداً، ومضمناً في جملة قومه^(١). بل إن محمد بن حمزة الكرمانى لا ينظر لكل سورة من القرآن على انفراد، بل ينظر إليها كلها نظرة توحّد وتماسك، فيقول بما أن سورة الأعراف سابقة على السورتين (طه) و(الشعراء)، فقد صرح في الأولى، وكنى في الآخرين، وهو القياس^(٢).

تعال لنقف عند قوله تعالى في هاتين الآيتين من سورتي البقرة والحجرات، وهما:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَدِينُكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦].

فما السبب، يا ترى، في مجيء اسم الله تعالى مضمراً في الجزء الثاني من الآية الأولى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ومذكوراً في الجزء الثاني من الآية الثانية مرتين ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ و﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؟ الظاهر أن هناك دلالتين لفظية وأخرى معنوية. فأما اللفظية ففي هذا التناسب بين الضمائر في الآية الأولى، والأسماء المذكورة في الآية الثانية. وأما المعنوية فإن الآية الأولى فيها إشارة إلى نعم الله على الخلق الذين خلق لهم ما في الأرض جميعاً، ثم خلق لهم السماوات السبع، في حين أن الآية الثانية في الحجرات فيها عدم رضا بل استنكار وتوبيخ استدعى

(١) درة التنزيل، ص ١٧٥.

(٢) أسرار التكرار في القرآن الكريم، دار بوسلامة، تونس، ط ١، ١٩٨٣، ص ٩١، تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

استحضار لفظ الجلالة بذاته لما فيه من المهابة والتعظيم والتذكير بأنه العالم الذي لا يحتاج إلى إخبار أحد من الناس أو من غيرهم.

وبمثل هذا نقف عند قوله تعالى في هاتين الآيتين:

- ﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨].

- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠].

فما السر وراء هذا التحوير في التعبير: الإظهار في آية الكهف (بربي)، والإضمار في آية الجن (به)؟

والناظر في سياق الآيتين يجد أن آية الكهف وردت في سياق قصصي، وهو قصة صاحب الجنتين الذي حاور صاحبه مفتخراً دالاً عليه بكثرة أمواله وعزته في نفره وظنه في بقاء جنته وعدم زوالها، فكان أن استعصم صاحبه الفقير بذكر ربه ﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ لاحظ الضمير (هو) ولفظ الجلالة (الله) و(الرب) الذي يربي عبده ولا يهمله، ثم كرر ذكر ربه ثانية ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، للوقوف أمام الخصم المعتمد على ما لديه من مالٍ وعزة، ولكي يقول له: إن له معتمداً أقوى وركناً أمتن مما يعتمد هو عليه من عرضٍ سريع الزوال.

أما آية الجن، فلم ترد في مثل هذا السياق الدال على الصراع بين رجلين، أو قل مذهبين في الحياة، مذهب المادية والاعتداد بالمال والولد والجاه، ومذهب الألوهية وتوحيدها عند من لا يرى في غيرها عزاً ولا بقاء. ولهذا جاء الذكر أولاً ﴿أَدْعُوا رَبِّي﴾ ثم الإضمار ثانياً ﴿بِهِ﴾ على الأصل، بينما السياق في الآية الأولى خرج عن الأصل للدلالة التي أشرنا إليها.

ولعلك تستطيع أن تتأمل معي هذا الفارق بين الإظهار حيناً والإضمار حيناً آخر في هاتين الآيتين المتشابهتين:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
آيَاتِهِ، وَزُكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فسوف تلاحظ أن آية الجمعة تشير إلى أن الله سبحانه بعث رسولاً من أهل مكة (أم القرى) من الأميين الذين يتتسبون إلى (أم القرى)، فهو في هذه (منهم)، في حين أن آية آل عمران الثانية تتحدث عن المؤمنين خاصة، فهو من (أنفسهم) من خلاصة الحنفية الإبراهيمية الموحدة. ولهذا كان الإضمار حيناً والذكر حيناً آخر.

وحين تقرأ سورة (نوح) ﷻ تجده تعالى يذكر نوحاً مضمراً في بداية السورة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥] ثم يصرح بذكره مرتين فيما بعد ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [نوح: ٢١]، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. لأنه سبحانه ذكر نوحاً في مستهل السورة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١]، ولم يكن هناك فاصل بين هذه البداية وبين الإضمار في قوله: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ سوى ثلاث آيات، بل إنه سبقه بإضمار أول ﴿قَالَ يَفْعُولُ لِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ٢].

أما الذكر الذي جاء في الآية الحادية والعشرين (قال نوح) فقد كان فيه فاصل طويل تخلله حديث نوح عن قصته مع عناد قومه، فاستدعى هذا الفصل الطويل أن يُعاد ذكر نوح ثانية وكأنه إسناد جديد، وإخبار جديد. هذا هو منطق الخطاب القرآني الذي لا يختلف عن الخطاب البشري في كثير من الحالات مع تفرد وخصوصية في حالات أخرى.

ولك أن تتأمل في مواضع كثيرة من الإضمار مرة والإظهار أخرى في آيات متشابهة في مثل: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [يونس: ٤]، و﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [هود: ٤] و﴿نَطْبَعُ﴾ [يونس: ٧٤]، و﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٠١]، وغير هذا كثير في القرآن...

ثانياً: إبهام الضمير:

من خصوصيات التعبير القرآني بشكل عام أنه يساق لمستويات مختلفة من المتلقين ذوي الاستعدادات المتفاوتة في الفهم والإحساس والتذوق. فهو يتوجه بمضامينه وعبره وأحكامه إلى طبقات من العلماء والعوام، من يستطيع أن يستنبط الأحكام ويتعمق في الفهم، ويتأني في التلقي، ومن لا يتجاوب إلا مع ظاهر القول ولا يستطيع أن يسير مع التعبير إلى مدى بعيد. ومن المعلوم أن القرآن يبلغ هدفه من أولئك وهؤلاء على تفاوت موقع التأثير ودرجته في العمق.

ولعله بسبب من هذا وجد في التعبير القرآني ما سمي بالمحكم والمتشابه، والإجمال والبيان، والحقيقة والمجاز. وفي هذه الانماط كلها شيء من الوضوح وآخر من الغموض والإبهام، ففي المتشابه والمجمل والمجاز درجات من الخفاء لا يقوى على التجاوب مع بواطنها إلا ذوو الاستعداد الفطري والعلمي والذوقي الممتاز، بينما الأمر مع المحكم والمبين والحقيقي مختلف، لأنه قريب من متناول عامة الناس، وإن لم يكن هذا التناول على درجة واحدة، شأنه شأن المستويات المتفاوتة في تعاملها مع المجمل والمجازي والمتشابه.

وقد هيا الله لكتابه العزيز من العلماء والأدباء والبلاغيين من يبين أسرار هذه الخصائص الأسلوبية ودواعيها، فقد ذكروا أن وجود المحكم والمتشابه في القرآن دعوة إلى الاستعانة بالعقل، وإطلاق عنان التفكير، ودلالة على رفض الجهل والتقليد^(١)، ولو كان القرآن كله على درجة واحدة من الدلالات المحكمة، لما وجدنا هذا الفهم المعمق، والتذوق

(١) ينظر بحث الأستاذ سعيد الفاندي (من خصائص الدلالة القرآنية)، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ع ١٥، ١٩٩٨، ص ١١٠، ومصدره: مفاتيح الغيب، للرازي، ج ٧، ص ١٤٩.

المتفاوت بين العلماء والأدباء منذ نزول القرآن حتى يوم الناس هذا، وإلى أن يبعث الله الأرض ومن عليها. وفي مجال الإجمال والبيان يقول الشيخ الزرقاني: (الجمع بين الإجمال والبيان، مع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان في كلام واحد للناس، بل كلامهم إما مجمل، وإما مبين، لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان، وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان، ولكن القرآن وحده هو الذي انخرقت له العادة، فتسمع الجملة منه، فإذا هي بيّنة ومجملة في آن واحد. أما أنها بيّنة أو مبيّنة (بتشديد الياء وفتحها)، فلأنها واضحة المغزى وضوحاً يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة، فإذا أمعنت النظر فيها لاحت منها معانٍ جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحاً، وكلما أمعنت فيها النظر زادتك من المعارف والأسرار بقدر ما تُصيبُ أنت من النظر، وما تحمل من الاستعداد على حد قول القائل:

يزيدك وجهه حُسناً إذا ما زدته نَظراً^(١)

أما وجود الحقيقة والمجاز، فهي وإن كانت دلالة على أن هذا الكتاب جاء على شبه من الكلام البشري عموماً، وكلام أهل البيئة العربية التي نزل فيها، فإنه يدل على علو كعبه في البيان، وقدرته على التأثير في النفس البشرية بالقدر الذي يجعلها تتجاوب مع دعوته وتوجيهه وأوامره تجاوباً يبلغ الغاية من الطاقة الإنسانية، وهذا الذي حدث حقاً مع القوم الذين تلقوا القرآن فتفانوا في فهمه وتطبيقه وتبليغ دعوته إلى الناس.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٢٣. ويقول السيد أبو القاسم الخوئي إنه مع وجود بعض الغموض في المعاني القرآنية، وإنها لا تتأتى إلا للعلماء النحارير، (ولكن ذلك لا ينافي أن للقرآن ظواهر يفهمها العارف باللغة العربية، وأساليبها، ويتعين له بعد الفحص عن القرائن)، تفسير البيان، دار الزهراء، بيروت، ط ٢، ١٩٧٥، ص ٢٧٠.

ونتدرج بعد هذا من الحديث عن الأسلوب القرآني عموماً من حيث توفر الواضح والمبهم فيه، إلى الحديث عن الأسماء المبهمة في القرآن، وهي كثيرة ألف فيها عبد الرحمن السهيلي كتابه (التعريف والأعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام)^(١)، ثم تبعه في العناية بهذا النوع من التأليف ابن عساكر وابن جماعة والسيوطي وغيرهم. وقيل إن بعض الصحابة، وبعضاً من علماء السلف كان يُعنى بهذا النوع من العلم، حتى قيل عن (عكرمة) إنه طلب اسم الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم أدركه الموت أربع عشرة سنة^(٢).

ولقد تحدث كل من الزركشي والسيوطي عن أسباب الإبهام في هذه الأسماء وذكرنا منها:

١ - أن يكون أبهم في موضع وُيِّن في سياق آخر كقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، إذ بين في سورة النساء ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

٢ - أن يتعين لاشتهاره كقوله: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

٣ - قصد الستر عليه، ليكون أبلغ في استعطافه، كقوله تعالى: ﴿أَوْكَلِمَا عَهْدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠]، قيل: هو مالك بن الصيِّف.

٤ - التنبيه على التعميم، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِيلِ وَالْثَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]. قيل نزلت في علي بن أبي

(١) منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط ١، ١٩٩٢، تحقيق عبد الله محمد علي النقراط.

(٢) التعريف والإعلام، ص ٥١.

طالب ﷺ ، كان له أربعة دوانق فتصدق بواحد بالنهار وآخر بالليل وآخر سراً وآخر علانية . إلى غير هذا من الدواعي للإيهام^(١) .

ومن المعلوم أن هذا الأمر من المبهات في الاسم اضطلع به علم أسباب النزول ، وهو علم جليل له فوائد جمة ، إلا أنه فيما يتعلق بهذا الموضوع ، فإن العلماء أجهدوا أنفسهم في البحث والتنقيب على أن يكون المقصود في هذه الآية أو تلك هو فلان بن فلان ، أو فلانة بنت فلان . ولو كان الأمر يقصد به تخصيص نزول الآية في شخص بذاته ، لكان معلوماً لدى الجيل الأول من الصحابة ، والجيل الذي تلاه ، ولما وجدنا عبد الله بن عباس يبحث سنين طويلة عن الاسم الذي نزلت فيه هذه الآية أو تلك . إن صدق هذا البحث . ولما وجدنا (عكرمة) ظل يطلب الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم أدركه الموت أربع عشرة سنة!! .

صحيح أنه قد يتعدد سبب النزول والنازل واحد ، كما يقولون ، ولكن أن يبلغ الأمر أنه مع الآية الواحدة التي يرد فيها الاسم المبهم ، تجد المقصود بهم فلان ، وفلان ، وفلان . . . وكما تشاء الأهواء . فإذا قرأنا ، مثلاً ، قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة : ٢٢] قيل لنا : إنها نزلت في أبي بكر ، وقيل في أبي عبيدة بن الجراح ، وفي مصعب بن عمير ، وفي عمر بن الخطاب ، وفي علي وحمزة وعبيدة بن الحارث . . .^(٢) .

والحق أن في هذا البحث عن أسباب النزول ، وفي معرفة أسماء المبهات خاصة كثير من التكلف والتنطع ، إن لم يكن هناك أسباب

(١) البرهان ، ج ١ ، ص ١٥٩ ، والاتقان : ج ٢ ، ص ١٤٥ .

(٢) الكشف ، ج ٣ ، ص ٢١٢ .

أخرى، وفيها ما لا ينسجم مع روح القرآن، وجلال توجيهاته والهدف من نزوله. ولعله من الأقرب إلى الصواب أن نقول إن قصد العموم في القرآن هو الذي يتبادر إلى أذهاننا ونحن نتأمل آياته الشريفة، لما في هذا من دلالة على اتساع المساحة المكانية والزمانية للتوجيه القرآني، فهو كتاب الله إلى البشرية بعامّة، وهو نوره إليها إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

فما دامت العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب، كما يقول العلماء^(١)، وما دام الخصوص موضع تأمل، وربما شك، لأنه يعتمد على روايات دخلها ما دخلها من أغراض وأهواء، فلماذا لا يؤخذ بالهدف العام من القرآن، ويكون السبب وسيلة فهم وإضاءة في سبيل هذا الفهم؟ ولماذا هذا البحث المضني وراء الشخص المقصود من هذه الآية أو تلك؟ اذكر على سبيل المثال إثارتهم إلى المقصود من قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أنهما أبو بكر وعمر^(٢). الحق إنه بمجرد ذكر شخص معين يقتل الإيحاء والعموم الذي تنشده الآية. والعجيب أنهم ينسبون هذا القول إلى صحابة كبار تتحرج أن تشك في أقوالهم مثل ابن عباس، والصحيح أن الشك هو في الروايات نفسها، وليس في صدق الصحابي نفسه.

هذا فيما يتعلق بالإبهام في الأسماء، فماذا عن الإبهام في الضمائر موضوع بحثنا؟.

تتناول كتب النحو الضمير ضمن مبحث المعارف، مثل الاسم

(١) ينظر البرهان، ج ١، ص ٣٢، ومناهل العرفان، ج ١، ص ١٢٥.
(٢) التعريف والإعلام، ص ٧٩، وقد يذكرون في آيات أخرى أسماء أشخاص عديدين، وينسون العموم الذي يهدف إليه القرآن.

العلم والمعرف بآل، واسم الإشارة والاسم الموصول، والغريب أنهم يقولون إنه أعرف المعارف الست، كما يقول ابن هشام^(١). ونحن نعتقد أن الموضوع لو تناوله البلاغيون أول الأمر، لكانت وجهة البحث في الضمائر غير الوجهة النحوية الصرفة. ونحن لا نشعر أن الضمير أكثر تعريفاً من الاسم العلم؛ كما يرى ابن هشام، إلا من جهة واحدة، هي جهة المتكلم الذي يعني ما يريد بذكر الضمير، فهو كما يقال، يشير إلى معلوم في الذهن، ولكن الأمر مختلف مع المتلقي أو السامع، ومن جهته يدخل التفاوت في الفهم والإحساس بالإبهام، وقد يكون الإبهام نفسه مقصوداً من لدن المنشئ أو المتكلم. ولهذا ترانا نخلف في المقصود بهذا الضمير أو ذاك في القرآن الكريم، وفي كلام البشر عموماً.

ولقد تناول علماء (المبهمات) الضمائر بالطريقة نفسها التي تناولوا بها الأسماء المبهمة؛ فهم يبحثون عن المقصود الضمير، وقد يتمحلون ويتكلفون ويلجأون إلى أسباب النزول ما صحَّ منها وما لم يصح. بل إنهم ليصرون - أحياناً - على ذكر المقصود بالضمير حتى لو كان المعنى الظاهر للآية يشير أنه لا فائدة وراء البحث عن المقصود بالضمير، لأنه في علم الغيب الإلهي، كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا يَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فهم مجهولون، والله - سبحانه - أراد أن يكونوا مجهولين، فلماذا البحث عن ذكرهم؟^(٢).

ويهمنا في سياق البحث أن ننظر إلى بعض مواضع الضمائر ونأمل درجاتها من حيث وضوح أو إبهام ما تعود إليه، وهو أمر يختلف عن

(١) قطر الندى وبل الصدى، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط ١١، ١٩٦٣، ص ٩٤. شرح محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٢) وهذا القول استنكره السهيلي على من قال إنهم بنو قريظة، أو الجن. ينظر: التعريف والإعلام، ص ١٢٠.

البحث عن المسميات التي تدل عليها هذه الضمائر على طريقة البحث عن (المبهمات) من الأسماء والضمائر.

ولقد قسم النحويون ضمير الغيبة إلى أقسام عديدة من حيث عودته^(١)، ويهمننا نحن أن نصف هذا الضمير إلى ثلاث درجات من حيث وضوحه وإبهامه في عودته على الاسم:

الأول: ما كانت عودته واضحة وضوحاً تاماً ليس فيه لبس على قارئ أو سامع، مثل ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، أو ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ [هود: ٤٢]. فليس هناك احتمال للاختلاف حول عودة الهاء إلى آدم في الآية الأولى، أو عودتهما إلى نوح في الآية الثانية.

والثاني: ما أمكن الاهتداء إليه من خلال السياق أو منطق الأمور، وهو وإن لم يكن عسير الفهم، فإننا أدرجنه في الدرجة الثانية، لأنه يحتاج شيئاً من التأمل، لا يحتاجها النوع الأول. ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وقوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

وقوله: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦]، وقليل من التأمل يهدي إلى أن المقصود بالأولى الأرض، وبالثانية الشمس، وبالثالثة الروح. ولعله بسبب عدم الوضوح التام، كما في النوع الأول، سماه البلاغيون الأوائل بـ(الكناية) وهو إطلاق على الضمير عموماً، كما يفعل النحويون. وهذا يعني أن الضمير يشبه (الكناية) في علم البيان في أنها تفهم من خلال سياق الكلام من غير أن يذكر الاسم في العبارة ذكراً صريحاً مباشراً^(٢).

بل إن هذا النوع على قرب مأخذه قد يعود إلى أمرين يرجح السياق

(١) ينظر: البرهان، ج ٤، ص ٢٥.

(٢) الكشف، ج ١، ص ٢٥١.

أو العقل أحدهما، من مثل قوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، أو ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨]، فهو قد يشير إلى حب الله، أو إلى حب الإيتاء أو الطعام. ومثله قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَنُہُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢]. فالضمير في (ربك) يعود إلى الملك، أي صفني عند سيدك، ولكن الضمير الثاني في (ربه)، قد يعود إلى الملك أيضاً أي أنساه الشيطان أن يذكره لربه الملك، وقد يعود إلى الله سبحانه، أي أن الشيطان أنسى (يوسف) ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره، كما يقول الزمخشري^(١). ونحن هنا يمكن أن نخطئ الزمخشري في هذا القول، ولكن عدم الوضوح التام يجعل من حق الزمخشري أو غيره أن يفهم هذا الفهم بناءً على تعدد المعاني القرآنية في النص على أساس القرائن المعينة، أو الإيحاءات الظلالية للتعبير.

والناس - بطبيعتهم - يتفاوتون في الفهم حتى في هذا النوع القريب من الوضوح من الضمائر. فقد ذكر الزركشي أن كثيراً من الناس يفهمون الضمير في ﴿هُمْ مُّظْلِمُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ لَّهُمْ آيَاتُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، على أنه يعود على الليل والنهار على أساس أن أقل الجمع اثنان. في حين أنه واضح الدلالة في عودته على الكفار. ومثله قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]. فالضمير في (مثلهم) - كما يظن بعضهم - يعود على السماوات والأرض، في حين أنه واضح الدلالة في العودة إليهم^(٢).

أما النوع الثالث، فهو الذي يسمح بتعدد الفهم على ضوء الاستعدادات، والثقافات والمذاهب الفكرية والمذهبية. ومثله قوله تعالى

(١) نفسه، ج ٢، ص ٦٨٣.

(٢) البرهان، ج ٤، ص ٣٤.

في قصة الإسراء والمعراج: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝۱﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝۲ وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝۳ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝۴ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝۵ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝۶ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝۷ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝۸ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ۝۹ أَوْ أَدْنَىٰ ۝۱۰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝۱۱﴾ [النجم: ١ - ١٠].

والخلاف في عودة الضمير في (دنا وتدلى) و(كان).

ففي (دنا فتدلى) هل هو جبرئيل عليه السلام، أم محمد ﷺ؟ والمعنى، كما يقول الطبرسي: قرب بعد بعده وعلوه في الأفق الأعلى، فدنا من محمد ﷺ. والتدلى: الامتداد إلى الأسفل، وهو المعنى الذي ذكره الزمخشري - كذلك، وعليه الغالبية من المفسرين^(١). أي أن الضمير يعود على (جبريل) من خلال الآيات السابقة، فهو شديد القوى، وهو ذو المرة، وهو الذي استوى، وهو الذي دنا وتدلى وقرب من الرسول فرآه رؤية عيانية مباشرة. وكان بعدها أن أوحى الله إلى عبده (رسول الله) من خلال الملك جبرئيل.

ولكن الشيخ محمد متولي الشعراوي يرى أن الرسول هو الذي دنا من الذات الإلهية فرآها رؤية عيانية مباشرة، بعد أن مر بمرحلة غير المرحلة البشرية وغير الملائكية، بل (ملائكية الملائكية)، استطاع بها بفضل الله أن يجتاز الحجب ويرى ربه مباشرة^(٢).

(١) مجمع البيان، مج ٦، ج ٢٧، ص ٢٧. والكشاف: ج ٣، ص ١٧٦.

(٢) ينظر: حديث الأحاديث للدكتور علي فهمي خشيم، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ط ١، ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨ م، ص ٤٩، وما بعدها. وقد بين الكاتب عدم صواب رأي الشيخ الشعراوي في قضية رؤية الرسول لربه رؤية مباشرة، وأثبت هذا من خلال القرآن والأحاديث النبوية، فضلاً عن حكم العقل واللغة العربية وقواعدها. والكتاب مناقشة لآراء الشيخ في كتابه (الإسراء والمعراج)، دار الشروق، القاهرة، ط ١٩٧٣.

وهذا وإن كان الضمير العائد هو الذي حرّك هذا الخلاف، ولكن الخلاف في الواقع يرجع إلى مذاهب معينة في الفهم من قضايا (علم الكلام) منذ المراحل المبكرة من التاريخ الإسلامي.

ونحن في هذا المقام لا نخطئ أحداً، وإن كان سياق الآيات، وتوجيهات القرآن نفسه، وفي أكثر من موضع، تبعد فهم الشيخ الشعراوي، الذي اعتمد فيه على رواية للطبري، وما كان القرآن ليناقض نفسه.

المهم عندنا في سياق البحث أن الضمير العائد يتيح لتعدد الفهم، وإن كان هناك منطق للغة ومنطق للعقل بل منطق القرآن نفسه يقودنا إلى الفهم الصحيح لآياته التي لم يرد بها التعمية واللبس.

وقد يُذكر شيثان ويعود الضمير على أحدهما، والغالب في القرآن الكريم أن يعود إلى الثاني، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فأعاد الضمير للصلاة لأنها أقرب، ولكننا نجد الضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً أَنْفَضُوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]. قد عاد على التجارة وإن كانت أبعد. والنكته في هذا، كما يقول الزركشي، أن التجارة (أجذب لقلوب العباد عن طاعة الله من اللهو، بدليل أن المشتغلين بها أكثر من اللهو، ولأنها أكثر نفعاً من اللهو، أو لأنها كانت أصلاً واللهو تبعاً، لأنه ضرب بالطبل لقدمها على ما عرف من تفسير الآية)^(١).

وعودة الضمير هذه إلى الاسم الأقرب أو الأبعد تساعد على تعدد الفهم. ففي قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]. يحتمل عودة الضمير إلى النفس الأولى الشافعة أو إلى النفس الثانية المشفوع لها. قال

(١) البرهان، ج ٤، ص ٣٢.

الزمخشري: (فإن قلت: الضمير في ولا يقبل منها [على قراءة قتادة بالياء في تقبل] إلى أي النفسين يرجع؟، قلت: إلى الثانية العاصية، غير المجزي عنها... ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى)^(١). وتبع هذا خلاف حول جواز الشفاعة للعصاة أو عدم جوازها، وكان الخلاف بين المعتزلة الذين تعلقوا بهذه الآية على نفي الشفاعة، وبين أهل السنة الذين أجابوا عنها بأجوبة كثيرة^(٢). وكان لعودة الضمير وفهم كل جماعة له على أنه يعود إلى القريب أو البعيد، مبعث إلى تعدد هذا الفهم والتأويل.

ثالثاً: توكيد الضمير:

أسلوب التوكيد في القرآن الكريم متعدد الأشكال والأدوات، كثير الأغراض والأهداف، ومن صوره التوكيد بضمير الفصل، وهو الجانب المتعلق ببحثنا.

وأسلوب التوكيد بشكل عام وضمير الفصل فيه بشكل خاص يتناوله النحويون والبلاغيون معاً ولهم فيه أبحاث تتفرع منها قضايا كثيرة، ويهمننا هنا الدلالة المعنوية، ومناسبة مقتضى الحال، وما يقتضيه السياق، وهو جانب من جوانب عمل البلاغيين في التعامل مع النصوص بعامة، والنص القرآني بخاصة.

وضمير الفصل هذا تذكر له ثلاث فوائد:

الأولى: لفظية، وهي الاعلام بأن ما بعد المبتدأ خبر وليس صفة. فقولنا زيدٌ هو القائم، يجعل من القائم خبراً لا تابعاً، ولذلك سمي فعلاً

(١) الكشف، ج ١، ص ٢١٥.

(٢) البرهان، ج ١، ص ١٢٤، وما بعدها. وتنظر الآية ١٢٣ من سورة البقرة أيضاً، وبينها وبين هذه الآية تشابه كبير، مع اختلاف في التقديم والتأخير، وينظر الانتقان، ج ٢، ص ١١٥.

لأنه فصل بين الخبر والتابع . ويسمى عماداً لأنه يعتمد عليه معنى الكلام .

الثانية: معنوية، وهي التوكيد، وقد سماه بعض الكوفيين دعامة لأنه يدعم به الكلام أي يقوى ويؤكد .

الثالثة: معنوية أيضاً، وهي الاختصاص، على ما ذكره البلاغيون، وهو إثبات المسند للمسند إليه دون غيره^(١) .

نفى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] . تكون وظيفة ضمير (هم) أنه يخص أولئك الهداة بالفلاح دون غيرهم، فهم هم على هذه الحقيقة التي اختصاصهم بها، وأنالهم ما لا يناله أحد^(٢) .

ويتكرر ورود ضمير الفصل هذا في صور شتى في القرآن الكريم من مثل: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤] . و﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩] . ومن خلال موقعه في الجملة يشع بدلالات معنية . فهو يأتي لتقوية الحكم وتقريره - كما يقول البلاغيون - في مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩] ، إذ هو أبلغ في تأكيد نفي الإشراف مما لو قيل: والذين بربهم لا يشركون^(٣) .

ويمكن الإشارة هنا أنه ترد آيات متشابهة في القرآن الكريم، مرة يرد فيها ضمير الفصل ومرة ترد بدونه، وذلك لملاحظ بلاغية تتبعها علماء المتشابه الأسلوب في القرآن، وذلك من مثل قوله تعالى:

(١) ينظر، أساليب التوكيد في القرآن الكريم، عبد الرحمن المطردي، الدار الجماهيرية، طرابلس، ١٠، ١٩٨٦، ص ٣٤٣، ومصادره، مغني اللبيب، ج ٢، ص ٤٩٥، والكشاف، ج ١، ص ١١٢ .

(٢) الكشاف، ج ١، ص ١١٤ .

(٣) علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط ١، ١٩٨٥، ص ١٥٢ .

في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ [آل عمران: ٥١].

وفي سورة الزخرف: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ [الزخرف: ٦٤].

والآيتان وردتا في سياق قصة مريم وولدها عيسى عليه السلام ولكن في (آل عمران) وردت الآية بدون ضمير الفصل لأنها وقعت بعد عشر آيات من القصة من أول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ...﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٥١]، فلم تكن الآية بحاجة إلى تأكيد. وليس كذلك ما في الزخرف، فإنه ابتداء كلام منه، فحسُن التوكيد بقوله (هو) ليصير المبتدأ مقصوراً على الخبر المذكور في الآية، وهو إثبات الربوبية، ونفي الأبوة، كما أشار الكرمانى^(١).

وإذا تتبعنا أي الذكر الحكيم فإنك تجد آيات من مثل: ﴿خَلَدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، بدون الضمير، ومعه في مثل: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وذلك في آيات كثيرة، ولا يتسع المجال لمتابعة صورها، خاصة وأنا علمنا من خلال البحث دلالة ضمير الفصل ووظيفته المعنوية، وهو غير الوظيفة النحوية، كما ذكرنا.

ونريد أن نقف بعد هذا عند ما سمّاه ابن الأثير بـ(توكيد الضميرين) في مثل قولنا: إنك أنت، أو (أنت أنت)، وقال عنه إنه يأتي في معرض المبالغة، وإنه من أسرار علم البيان، ثم ذكر قاعدة استوحاها من نماذج القرآن ونماذج الأدب العربي القديم، وهي: (إذا كان المعنى المقصود معلوماً ثابتاً في النفوس، فأنت بالخيار في توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر، وإذا كان غير معلوم، وهو مما لا شك فيه، فالأولى حينئذ أن

(١) أسرار التكرار، ص ٤٩.

يؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه، لتقرره وتثبته^(١). وجاء من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَكُونُ مِنَّا شَيْءٌ أَوْ يَكُونُ لَنَا شَيْءٌ أَوْ يَكُونُ لَنَا شَيْءٌ﴾ [الأعراف: ١١٥]. فإن إرادة السحرة الإلقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده، فلما كان هذا الخطاب منهم بالتوكيد ﴿وَأَمَّا أَنْ تَكُونَ لَنَا مَثَلًا نَحْنُ الْمُغْلِبِينَ﴾، عرف أنهم يريدون التقدم عليه، وهذا سر التوكيد بالضميرين.

ومن توكيد الضميرين المتصل بالمتصل قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَلَقَدْ أَقَلْنَا لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥].

وهما الكاف في (لك)، و(إنك). بينما لم يؤكد الضمير المتصل الأول بالضمير المتصل الثاني في قوله قبل هذه الآية بثلاث آيات. ﴿وَلَقَدْ أَقَلْنَا لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]. بدون (لك).

وذلك أن فَرْقًا بين القصتين قصة الغلام في الأولى، وقصة السفينة في الثانية، فإن الخطاب في قصة السفينة كان أقل عتاباً ولوماً لموسى، ولكن هذا العتاب ازداد بعد رفض موسى الوصية وإلحاحه في السؤال، فكان من المناسب توكيد الضمير الأول بالثاني (لك)، ويمثل ابن الأثير لهذا بموقف الإنسان من شخص تنهاه عن شيء فيأتيه، ثم تنهاه، فيأتيه ثانية، ألا تحتاج بعد هذا إلى أن تزيد في لومه وتعنيفه؟^(٢).

ومن هذه الصور لتوكيد الضميرين هذه النماذج من ذكر الله تعالى لذاته سبحانه:

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢]، ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤].

وفي سورة النحل: ﴿يَكُونُ لَكَ شَيْءٌ أَوْ يَكُونُ لَكَ شَيْءٌ أَوْ يَكُونُ لَكَ شَيْءٌ﴾ [النمل: ٩].

(١) المثل السائر، ج ٢، ص ١٥١.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ١٥٢.

ومنها هذه الصور في الآيات الثلاث من سورة المائدة من ١١٦ إلى

١١٨.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾.

﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

في لحظة من لحظات الخطاب الخالص العبودية لله من لدن عبده عيسى ابن مريم الذي يريد أن ينفي أية شبهة في هذه العبودية، حين قال له ربه سبحانه: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ولا شيء من التكرار في هذه كلها، ولو ورد شيء من التشابه أو التكرار فهو لفائدة. قال ابن الأثير: (فاعلم إنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة من تكريره، فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر، فأنعم نظرك فيه، فانظر إلى سوابقه ولواحقه لتتكشف لك الفائدة منه)^(١).

ويمكن أن يستمر البحث في بلاغة الضمير، فيتناول موضوعات متصلة بهذا الجانب من مثل: حذف الضمير، والالتفات، وإفراد الضمير وتثنيته وجمعه، وتذكيره وتأنيثه، إلى غير ذلك من الموضوعات التي تتناول الضمائر من الوجهة البلاغية والمعنوية. ولكننا آثرنا الوقوف بالبحث عند هذا الحد رغبةً في تناول تلك الجوانب في أبحاث مستقلة.

(١) نفسه، ج ٢، ص ١٤٩.

الفصل السابع

بلاغة حروف الجر في إطار التشابه

تمهيد:

من يدرك أسرار العربية يعلم إلى أي مدى كانت دقة الأسلوب القرآني في التعامل مع مكونات الجملة العربية من أسماء وأفعال وحروف، وذلك من خلال انصهارها في كل نفسي وسياقي يأخذ بمجامع القلوب، ويوجه الفكر، ويسدد السلوك، فيصنع الإنسان الفاعل، الباني، الخليفة...

ولا يدعي أحد أن جزءاً من مكونات الجملة أهم من الجزء الآخر، فكل جزء يؤدي وظيفته الأسلوبية والمعنوية، فليس الفعل أهم من الفاعل، أو المبتدأ أولى من الخبر، بل إن ما سمي بـ(الفضلة) من المنصوبات، ما هو بالفضلة بل هو جزء من الجملة وله مهمته المعنوية، وقل مثل هذا بالنسبة للحروف على تنوعها، ومنها حروف الجر. موضوع بحثنا.

وربما يصح القول إن أسرار العربية وفقهاها تتمثل في هذه الحروف لما فيها من المعاني اللطيفة التي تخفى على غير الخبير بهذه الأسرار.

ولقد عني علماء اللغة والنحو بهذه الحروف قديماً وحديثاً، ودرسها بعضهم ضمن أساليب محدّدة كأسلوب العطف وأسلوب التوكيد وأسلوب النفي، بل إن علماء أصول الفقه عنوا عناية خاصة بحروف الجر، لما يترتب على هذه الحروف من أحكام فقهية، خاصة عندما يأخذ

الحرف وظيفة حرف آخر، ويؤدي معناه، وفي هذا مجال للاختلاف في الفهم واسع^(١).

وفي مبحثنا هذا نود الوقوف عند ثلاث قضايا دقيقة من قضايا حروف الجر في إطار التشابه الأسلوبي في القرآن، بمعنى أننا لا ندرس حروف الجر وحدها ولذاتها، بل في حالة تشابه الآيتين أو الآيات في سياق تركيبى ومعنوي. وهذه القضايا هي:

أولاً: الذكر والحذف البلاغيان.

ثانياً: حروف الزيادة بالمصطلح النحوي.

ثالثاً: العدول من حرف جر إلى آخر

أولاً: الذكر والحذف البلاغيان:

سوف تواجهنا في هذه الفقرة آية يرد فيها حرف الجر وأخرى شبيهة لها تخلو من هذا الحرف، على اختلاف في درجة التشابه، فقد يكون تشابهاً تاماً، أو شبه تام. وسوف نقف عند دواعي هذا الذكر والحذف من الوجهة المعنوية والبلاغية، وليس من الوجهة الشكلية أو الصنعة النحوية. على أنه من الجدير بالإشارة هنا أن كثيراً من المباحث البلاغية مرجعها إلى المباحث النحوية، أو معاني النحو كما أشار إليها الإمام عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز)، وتكون هذه في مباحث (علم المعاني) خاصة، كما هو معلوم.

وللعلماء في تفسير هذا الذكر والحذف ضوابط كثيرة أو مفاتيح يرجعون إليها المتشابهات في هذا المجال. فقد يرجعون هذا إلى وحدة

(١) ينظر كتاب الدكتور محمود سعد، حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه، منشأة المعارف بالاسكندرية، ط ١، ١٩٨٨.

القرآن أو وحدة السورة القرآنية أو إلى تعدية الفعل ولزومه، أو لدواعٍ معنوية وأسلوبية أخرى. ولتكن وقفنا عند حروف جر بعينها من مثل:

من:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

قال الكرمانى: (لأن «من» تدل على التبعية، ولما كانت هذه السورة - سورة البقرة - سنام القرآن، وأوله بعد الفاتحة، حسن دخول (من) فيها ليعلم أن التحدي واقع على جميع سور القرآن من أوله إلى آخره. وغيرها من السور لو دخلها (من) لكان التحدي واقعاً على بعض السور دون بعض)^(١).

وفي هذا نظر إلى وحدة القرآن في أهدافه وتنوع أساليبه في الخطاب وتدرجها. فلقد طالب القرآن العرب أول الأمر أن يأتوا بمثله في مجمله فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤]. فلما عجزوا، طالبهم بأن يأتوا بعشر سور ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ ۚ مُفْتَرِيكَ﴾ [هود: ١٣]، ثم طالبهم بأن يأتوا بسورة واحدة مشتملة على خصائص القرآن كلها، وانتهى معهم إلى أن يأتوا بسورة مشتملة على وجه واحد من وجوه إعجازه الكثيرة.

ولما كانت سورة البقرة متأخرة في النزول، وإن كانت متقدمة في الترتيب كما أشار الكرمانى، فإنها جاءت مع (من) ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾

(١) أسرار التكرار في القرآن، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار بوسلامة، تونس، ط١، ١٩٨٣، ص٢٤، والبرهان للزركشي، ج١، ص١١٥.

مِثْلِهِ ﴿ لتدل على ذلك الجزء الإعجازي المتحدى به، والذي عجزوا كذلك عن الإتيان به. وفي هذا بلوغ في التحدي إلى أقصى غاياته ^(١). وهذا سر من أسرار استخدام حرف الجر أو ذكره في سورة البقرة، وحذفه في غيرها.

وانظر إلى هذين النموذجين القرآنيين المتشابهين إلا من حيث حرف الجر:

- ﴿وَنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوْتًا﴾ [الشعراء: ١٤٩، والحجر: ٨٢].

- ﴿وَنَجِّتُونَ الْجِبَالَ يُّوْتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

ويبدو أن ورود حرف الجر في الشعراء والحجر جاء لقصر الآية وإيجازها، في حين أن حذفها من الأعراف اكتفي فيه بورودها في الآية قبلها مباشرة ^(٢): ﴿مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾، والآية نفسها كانت في سياق إطناب وتفصيل ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْزِيلُوتٍ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَنَجِّتُونَ الْجِبَالَ يُّوْتًا فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، وهذا معنى قولنا إن العلماء ينظرون إلى وحدة السورة في توجيه هذه المتشابهات من الآيات.

ومثل هذا قوله تعالى:

- ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩].

(١) ينظر بحث الأستاذ سعيد سالم الفاندي (من أسرار الآيات المتشابهات)، مجلة كلية

الدعوة الإسلامية، ع ١٣، طرابلس، ص ٢٧٩.

(٢) ينظر أسرار القرآن، ص ٨٥.

- ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُبُوتًا إِلَى اللَّهِ قَبِيلَةً نَّصُوحًا عَنَىٰ رَبِّكُمْ أَن يُّكْفِرَ عَنْكُمْ سِيَئَاتِكُمْ﴾ [التحریم: ٨].

يرى الكرمانى أن ذكر (من) في سورة البقرة جاء موافقاً لما بعدها من الآيات، حيث ذكرت (من) ثلاث مرات في آيتي ٢٧٢ و ٢٧٣^(١). وهذا منظور إليه من جانب وحدة السورة، كما تلاحظ، وكأنها كل متماسك ووحدة عضوية يعبر الجزء فيها عن الكل، ويضفي الكل إحياءه ومعناه على الأجزاء.

ويمكن أن نشير إلى دلالة معنوية في هذا الذكر والحذف. وهو أن إظهار الصدقات أو إخفاءها في آية البقرة، عمل - على عظمته - لا يستحق تكفير السيئات كلها، بل بعضها، إذا علمنا أن (من) هنا تبعية، بينما تقوى الله، والتوبة النصوح في سورتي الأنفال والتحریم ربما تفوق ذلك العمل بدليل الاطناب في الثناء على المتقين والتائبين في الآيتين، ويعضد هذا ما ورد في سورة النساء: ﴿إِن يَجْتَبِئُوا كِبَارًا مَّا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فاجتناب الكبائر في حياة المؤمن أمر عظيم، ودلالة على سلامة الروح واستقامة السلوك، يليق به هذا التكفير الكامل عن السيئات والمغفرة والاستقبال الكريم.

ومثل هذا الاستنتاج نجده في هذين النموذجين:

- ﴿يَقُومَنَّ أَجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١].

- ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ عِزِّهِمْ شَيْخًا مِّنْ عَذَابِ إِلَهِم﴾ [تؤمّنون

(١) أسرار التكرار، ص ٤٥.

يَا اللَّهُ وَرَسُولِهِ وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
يَغْفِرَ لَكَ ذُنُوبَكَ ﴿١٠﴾ [الصف: ١٠ - ١١].

يرى الزمخشري أن فعل المغفرة لا يعدى بـ(من) إلا في خطاب الكافرين، ويعدى بدونها في خطاب المؤمنين، ليشمل كل خطاياهم، وحتى لا يسوّى بين الفريقين في الميعاد! ^(١)، وفي موضع آخر يقول إن (من) تدخل على الفعل (يغفر) للدلالة على أن من الذنوب ما لا يُغفر بالإيمان، كذنوب المظالم ^(٢). ومن هنا تأتي هذه الدقة القرآنية في استخدام حروف الجر، وإنها لا تقف عند الملاحظ الأسلوبية أو الشكلية وإنما تتعداها إلى الدلالات المعنوية التي تشكل مقاصد القرآن وتوجيهاته في تربية الفرد والجماعة والأخذ بيديهما إلى الرقي والسعادة في الدارين. وما دمنا مع ذكر (من) وحذفها في المتشابهات من الآيات القرآنية نشير إليها مذكورة ومحذوفة في هاتين الآيتين:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٦].

- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [مريم: ٧٤].

يرى الأستاذ سعيد الفاندي أن إضافة (من) جاءت للدلالة على الامتداد الزمني في الحديث عن هلاك السابقين ممن عفت آثارهم، أما حذفها، فهو للاخبار عن هلاك القوم الذين ما زالت آثارهم شاهدة عليهم، وأخبارهم متداولة ^(٣). واستشهد بقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ [طه: ١٢٨]، بدون (من)، ولكن في آية السجدة ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ [السجدة: ٢٦]، مع إضافة (من).

(١) الكشف، البابي الحلبي، ط ١، القاهرة، ١٩٤٨م، ج ٢، ١٧٣.

(٢) ح ٣، ص ١٢٥. وينظر آيات آل عمران: ٣١، وإبراهيم: ١٠، ونوح: ٤، والأحزاب: ٧١.

(٣) بحث (من أسرار الآيات المتشابهات)، ص ٢٧٩.

ويبدو من خلال الآيات التي وردت فيها (من) أنها ذات طابع فيه إطناب وتفصيل، بينما الآيات التي حذفت منها (من) موجزة وقصيرة. وأن الأولى تشير إلى أقوام بعينهم وتفصل الحديث عنهم من مثل عاد وثمود ولوط، بينما الآيات الموجزة القصيرة - في الغالب - لا تشير إلى قوم بعينهم، وإنما فيها عموم في الاتعاظ والاعتبار بالأمم السابقة.

وأحياناً يضيفي الاستعمال القرآني لـ(من) معاني قد لا نجدها في المعاني التي ذكرها النحاة لهذا الحرف، فلننظر إلى هاتين الآيتين المتشابهتين:

- ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتُهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠].

- ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتُهُ نِعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ [هود: ١٠].

إذ إن عدم شكر الله على النعم بعد الضراء، بل الكفر والمكر، إنما تم في آية (فصلت) بعد مدة من كشف الضر، ومثلها آية يونس: ٢١. أما ادعاء الإنسان بأن الضر لن يعود إليه، فهو متصل بكشف ذلك الضر^(١)، كما في آية هود، حيث يقول الإنسان: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ فكان (من) فيها دلالة على الامتداد الزمني مع محافظتها على أهم معانيها وهو ابتداء الغاية^(٢).

وهذه الدلالة الجديدة (الامتداد الزمني) نلاحظها في النموذج الأول من هذين النموذجين المتشابهين:

(١) نفسه، ص ٢٧٩، وللكرماني نظر في ملحظ أسلوب في الآية، ينظر: الأسرار، ص ١٩٠.

(٢) ينظر مغني اللبيب، لابن هشام، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط ٦، ١٩٨٥، ص ٤١٩.

- ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ نَّذْلٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَتٰهَا بِدَارِ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: ٦٣].

- ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَتٰهَا بِدَارِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤].

فذكر (من) يدل على طول موات الأرض وشدة حاجتها إلى الماء بدليل التعبير عن وصول الماء إليها بالفعل (نزل) المضعف الدال على التكرار؛ والتعبير بالفعل (أنزل) في آية البقرة، ومثلها في الجاثية: ٥، للدلالة على نزوله دفعة واحدة. فتحيا به الأرض، ولو لم تتكرر فترات النزول. أما ورود آية الروم ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَتٰهَا بِدَارِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بدون (من) كذلك، فلأن النظر إلى آثار رحمة الله يكون أبلغ عندما تطول حياة الأرض بالماء، ولا يطول مواتها^(١).

وعلى ما في هذه الدلالات المعنوية من غنى، فلا ينبغي أن نغفل الملحظ الأسلوبى الدقيق فى القرآن، وهو الملحظ الذى سماه أحد الباحثين فى الأسلوب القرآنى بـ(التركيب الكيميائى للقرآن) فى دقة المقادير بحيث يختل الوزن القرآنى بزيادة حرف أو نقصه، مثلما يختل المركب الكيميائى بزيادة المقدار أو نقصه من التركيبات المعملية^(٢).

وهذا الملحظ الأسلوبى نجده فى آية العنكبوت حيث وردت فيها (من) مرة واحدة قبل ورودها فى الجزء الثانى من الآية ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، فى حين أنها وردت مرتين فى آية البقرة ﴿مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾، فلهذا لم ترد فى جزء الآية الثانى منها!!، وفى آية الجاثية ﴿مِنَ السَّمَاءِ مِنْ

(١) بحث (من أسرار الآيات المتشابهات) ص ٢٨٠.

(٢) الأستاذ عبد القادر أحمد عطا فى دراسته الملحقه بأسرار التكرار، ص ٢٤٧.

يَذِقُ، ولهذا حذفت من طرفها الأخير. والعلماء يلتفتون إلى هذا الملحظ في السورة الواحدة، وبين الآيات المتباعدة فيها، فما بالك في تحققة في الآية الواحدة!

ونختم الحديث عن زيادة الحرف (من) وحذفه بمواضع تكرر ذكرها فيها، وحذف مرة واحدة في القرآن كله، بل إن هذا الموضع نفسه فيه قراءة تردّه إلى هذه الكثرة المتكررة. ذلك هو ورود (من) في سورة التوبة، الآية: ١٠٠، في قوله تعالى:

- ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

من دون (من) قبل (تحتها). وسائر القرآن ب(من). وقد أشار إلى هذا أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي أحد القراء السبعة في أول معجم قرآني له عن (متشابه القرآن)، وقال إن قراءة (ابن كثير) بإثبات (من). ولا نذكر هنا من تلك الآيات الكثيرة التي وردت فيها (من) إلا آية واحدة، ولتكن الآية (٨٩) من التوبة نفسها؛ ومن قبلها الآية ٨٨.

- ﴿لَنْ يَكُنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَنَّاتٍ يَدْخُلُونَ فِيهَا مِنْ أَوَّلَتِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

ولم أجد تفسيراً معنوياً لهذه الظاهرة الأسلوبية إلا عند الخطيب الإسكافي، وهو من أبرز من كتب عن المتشابهات الأسلوبية في القرآن الكريم، ويكاد الذين جاءوا بعده يكونون عالّة عليه.

وخلاصة رأيه أن (من) لا ابتداء الغاية في الآيات الكثيرة التي وردت

فيها بتعبير ﴿بَجَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لأن الجنات التي مبادئها الأنهار، هي من أشرف الجنات، وهي الجنان التي أعدت للأنبياء، وإن كان كل صادق داخلاً فيها. بمعنى أن الآيات التي وردت فيها (من تحتها) تشمل الأنبياء وغيرهم. أما الموضع الوحيد الذي لم تذكر فيه (من) فهو لقوم مخصوصين ليس فيهم الأنبياء.

وقد تأمل الإسكافي تلك الآيات الكثيرة فوجد أن الأنبياء مشمولون فيها وهو أمر احتاج منه إلى تأويل وتعمق فهم^(١).

الباء:

يبدو أن تداول (من) في الكلام كثير، ولذلك ذكر النحاة خمسة عشر معنى أو وظيفة لها، وقد بدت لنا كذلك في المتشابهات القرآنية، وفي مجال الذكر والحذف، يليها في ذلك حرف الباء. فلننظر إلى مواضع ذكره وحذفه في إطار التشابه الأسلوبي القرآني. ولنبدأ بهذين النموذجين: قال تعالى:

- ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

- ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
وَالْزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥].

حيث حذفت الباء من المعطوفات في آية آل عمران، وذكرت معها في آية (فاطر)، لأن الكلام في آل عمران بُني على الاختصار والاكتفاء فيه بالقليل عن الكثير، مع وضوح المعنى، كما قال الاسكافي^(٢).

(١) درة التنزيل وغرة التأويل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٤، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ص ١٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٤، وينظر بحث (من أسرار الآيات المتشابهات) ص ٢٦٧.

وواضح هذا الاختصار من خلال بناء الفعل للمجهول بحذف الفاعل في (كُذِّبَ)، والاكتفاء بالإضمار في ﴿جَاءُوا﴾ بدل الإظهار.

أما في آية فاطر، فلم يحذف منها ما حُذف من آية آل عمران، بل ذُكر فيها الفاعل (الذين)، كما جاء الإظهار على أصله ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾. وأما ما ورد في آية النحل (٤٤) بحذف الباء ﴿يَا بَيْنَتِ وَالزُّبَيْرِ﴾ فالسياق مختلف، وليس متشابهاً، وليس فيه تكذيب الرسل، فالحذف فيه أبلغ.

ويمكن أن نشير هنا إلى أن حذف الباء في آية آل عمران سبقه ذكر لها في آية قبلها: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَابِئَنَّتِ وَإِلَّذَى قُلْتُمْ﴾، ولم يرد قبل فاطر ذكر للباء. وهذا من قبيل مراعاة وحدة السورة، ووحدة السياق الأسلوبية، علماً بأن قراءة ابن عامر لآية آل عمران بذكر الباء، وبهذا لا يكون حذف في إحدى الآيتين^(١).

وترد الآيتان المتشابهتان بإثبات حرف الباء في إحداهما، وحذفه من الأخرى، كما في قوله تعالى:

- ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤].

- ﴿إِن تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٨٠، وانظر، التوبة: ٨٤].

يقول الكرمانى إن الكلام في الآية الأولى إيجاب بعد نفي، وهو الغاية في باب التوكيد، تأكد المعطوف أيضاً، ليكون الكل في التأكيد على منهاج واحد، وليس كذلك الآيتان بعده^(٢).

(١) ينظر معجم متشابه القرآن، لعللي بن حمزة الكسائي، تحقيق د. صبيح التميمي، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٩٤، ص ٨٧.

(٢) أسرار التكرار، ص ٩٧.

وكذلك لحقت الباء (اليوم الآخر) في مواضع من القرآن، وتجردت منها في مواضع أخرى، نذكر من مواضع المجموعتين هاتين الآيتين:

- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ﴾ [البقرة: ٨].

- ﴿وَلَكِنَّ الْآلِرَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

لأن المقام في الآية الأولى يحتاج إلى تأكيد، فالمنافقون يواجهون الشك من سامعيهم، فيدفعونه بالتأكيد، وهذا له صلة بالنفس الإنسانية التي تلجأ أحياناً إلى القسم لتمرير كذبها فيما تقول لينطلي الهدف على السامع. وأما حذف الباء من لفظ اليوم في الآية الثانية، فلأن المقام مقام جمع صفات الإيمان، وليس مقام تشكك أو إنكار يحتاج إلى تأكيد^(١).

وأنت تلاحظ أن الدواعي الأسلوبية واللفظية في الذكر والحذف في هذا المقام وغيره، تتعانق والدواعي المعنوية، ويعضد بعضها بعضاً. فليس هناك دواعٍ لفظية محضة بعيدة عن الدلالة المعنوية التي يسعى إلى تحقيقها السياق.

وتجد سراً عجيباً في حذف الباء أو إبقائها في بعض المواضع من القرآن، كما في هاتين الآيتين المتشابهتين: قال تعالى:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَفْضِلُ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١١٧].

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الفلم: ٧، والنحل: ١٢٥، والنجم: ٣٠].

فقد استعملت الباء في الآية الثانية قطعاً للإضافة، بمعنى أنه لو حذفت الباء، وصار الكلام (أعلم من ضل) لصار المعنى أنه تعالى أعلم

(١) بحث (من أسرار الآيات المتشابهات)، ص ٢٦٧.

الضالين عن سبيله، تعالى الله علواً كبيراً. فانظر كيف كان الاحتياط للمعنى في سورة القلم، فلم تكن الباء زائدة، بل هي خالفت الشائع من كلام العرب لذلك الغرض المعنوي المنزه لله سبحانه^(١) فالشائع من كلام العرب. بدون الباء، إذ يقولون: أعلم من دبّ ودَرَج، وأحسن من قام وقعد، وأفضل من حجّ واعتمر، بدون الباء، وللتعبير بالمضارع مرة وبالماضي أخرى تفسير ليس هذا موضعه^(٢).

وإذا كانت العرب يستوي عندها الذكر والحذف في بعض الأحيان^(٣)، فإن دقة المعنى القرآني تفرّق بين ذكر الباء وحذفها من خلال السياق، ومن خلال وظيفة الكلام المساق. انظر إلى قوله تعالى في سورتي الواقعة والأعلى:

- ﴿فَسَيَحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤ و ٩٦].

- ﴿سَيَحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

فإن ذكر الباء في آيتي (الواقعة) جاء بعد ذكر نعم كثيرة، فهي تحتاج إلى هذه الزيادة التي توحى بزيادة التسبيح والشكر، وهي كذلك في كثير من المواضع من مثل ﴿فَسَيَحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرُكَ﴾ [النصر: ٣]. فالباء هنا للمصاحبة، وفي رأيي للاستعانة^(٤)، وهي دلالة قد لا نجدها مع الحذف.

أما آية (الأعلى)، فكانت ابتداءً غير مسبوق بحديث عن نعم يجب شكرها، مع ما في هذا التسبيح الابتدائي من تمجيد لله، وتعظيم له.

(١) انظر الدرة، ص ١٢٩، وأسرار التكرار، ٧٤، ٢٤٩.

(٢) المصدران السابقان، والصفحات نفسها.

(٣) معاني القرآن، الفراء، دار السرور، بيروت، د. ط، د. ت، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ج ٣، ٢٥٦.

(٤) مغني اللبيب، ص ١٤٠.

في:

يمضي القرآن الكريم في دقته المعهودة في التعامل مع حروف الجر من حيث ذكرها أو حذفها، وهذه الدقة لا يستطيع أن يجاري فهمها إلا من رزق الذوق السليم في فقه العربية وأسرارها. انظر إلى قوله تعالى:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤]. وتأمل قول ابن الأثير: (ألا ترى إلى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرفي الجر ههنا. فإنه إنما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل، لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرسٍ جواد يركض به حيث يشاء، وصاحب الباطل كأنه منغمسٌ في ظلامٍ منخفضٍ فيه، لا يدري أين يتوجه!!^(١)). وهذا هو سر اختيار (على) و(في) في موضع واحد، وكان يبدو للمتسرع أن القول بـ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ واحد، وما هو كذلك. فقد قال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٩٥]. لدلالة (في) على الظرفية (الوعاء) وكأنه منغمسٌ في ضلاله، بينما (على) للاستعلاء.

وحين ننظر إلى بعض الآيات التي ورد فيها ذكر (في)، والأخرى التي حذفت منها، من مثل قوله تعالى:

- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ [فاطر: ٣٩].

- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

نجد أن ذكرها لم يأت عبثاً، بل لوظيفة معنوية، فهي في آية

(١) المثل السائر، ابن الأثير، تحقيق د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، نهضة مصر، د. ط، د. ت، ج ٢، ص ١٩٠.

(الأنعام) تعبر عن شرف الخلافة، فالذي جاء بعدها رفع الدرجات، بينما آية (فاطر) جاء بعد كفر الكافر!!^(١)

وقس على هذا بقية الآيات الأخرى المتشابهات التي ورد فيها الحذف أو الذكر لهذا الحرف، أو غيره. وقد يجد الباحث متشابهات يذكر فيها حرف الجر ومجروره، وأخرى يحذفان منها، وهذا في باب متعلقات الفعل وما أشبهها. وليس من مباحث الذكر والحذف لحروف الجر.

ثانياً: حروف الجر الزائدة بالاصطلاح النحوي:

الفرق بين الذكر والحذف في الفقرة السابقة والزيادة في هذه الفقرة، أن الموضوع الأول موضوع يعالج بلاغياً، بمعنى أن الذكر والحذف في الحروف له علاقة بالمعنى، وهو مبحث هام من مباحث علم المعاني في البلاغة. أما الزيادة في الحروف هنا، فهي زيادة من الوجهة النحوية بمعنى أن الحرف الزائد عندهم هو الزائد في التركيب، وهو الذي يكون دخوله فيه كخروجه منه، فالكلام من جهة التركيب في غنى عنه، وقد سماه (سيبويه) لغواً^(٢). فالجملة - من حيث ركنائها الأساسيان - الفعل والفاعل أو المبتدأ والخبر، لا يُضاف إليهما معنى جديد بزيادة هذا الحرف أو ذاك كما يقول النحاة^(٣).

(١) بحث (من أسرار الآيات المتشابهات) ص ٢٨٠، وانظر أسرار التكرار، ص ٧٦. تجد ملحظاً يأخذ وحدة القرآن بنظر الاعتبار.

(٢) بحث (حروف المعاني، وزيادتها في التركيب من خلال سورة النور)، د. علي النوري، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ع ١٢، ١٩٩٥، ص ٣٣٦.

(٣) التطبيق النحوي، د. عبد الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص ٣٦٧.

ويحترزون من هذا الكلام بقولهم: «وليس معنى زيادته أنه خالٍ من المعنى، وأن وجوده في الكلام مثل عدمه، وإنما يفيد التوكيد، وتقوية الربط بين أجزاء الجملة»^(١). وهذا الفصل بين الشكل والمضمون. بين مبنى الكلام ومعناه، والعناية بالصنعة النحوية على حساب الدلالة المعنوية، هو الذي لا يستسيغه البحث الأسلوبي الحديث، بل إن بعض المفسرين والتحويين يتخرجون من القول بزيادة الحروف أو غيرها في القرآن^(٢).

والحروف التي تستعمل زائدة عند النحاة هي: من، الباء، اللام، الكاف، وسوف نقف عند اثنين منها، وهما: (من) والباء، لكثرة ورودهما في الأسلوب القرآني بالصورة التي حددها النحاة للحرف الزائد وشروطه.

من:

وشروط زيادتها عند (سيبويه)، وجمهور البصريين، إفادتها العموم، وأن يكون مجرورها نكرة، وأن تكون مسبوقه بنفي^(٣). ويذكرون زيادتها مع المبتدأ والفاعل والمفعول به.

ومن أمثلة زيادتها على ما أصله مبتدأ، وهو اسم كان، قوله تعالى:

- ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ مِنْ فَتْنَةٍ يَتَصَرَّفُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ﴾

[القصص: ٨١].

وقال تعالى في موضع مشابه لهذه الآية مع عدم زيادة (من):

- ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ فِتْنَةٌ يَتَصَرَّفُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٣].

(١) نفسه، ص ٣٦٧.

(٢) بحث (حروف المعاني)، ص ٣٣٥.

(٣) حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه، ص ٢٦٨.

فَتَعَالَى تَتَأَمَّلُ كَيْفَ يَسْتَقِيمُ قَوْلُ النِّحَاةِ بِأَنْ (مَنْ) هُنَا زَائِدَةٌ؟ .

إن الوقوف عند سياقي الآيتين وتأملهما يقود إلى القول بأن كافر آية الكهف، لم يكن من العتوّ والاستكبار والاستعلاء بالدرجة التي بلغها (قارون) في آية القصص. فقد انتهى الرجل إلى الندم بقوله آخر القصة: ﴿يَلْبِثُنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢]. وهو ما لم يقله (قارون) بل قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]. ولقد كان المصير الذي ينتظر قارون غير المصير الذي ينتظر كافر قصة الكهف، ولهذا كان نفي عدم امتناعه من عذاب الله على الإطلاق، وهذا ما أفادته (مَنْ) في قصة (قارون)، وهناك أدوات أخرى لتعزيد هذا المعنى، وهو ذكر الماضي دون المضارع للدلالة على استغراق هذا النفي^(١).

ومن أمثلة زيادتها مع الفاعل قوله تعالى:

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سبا: ٤٤]. ومثلها آيات كثيرة^(٢). وقال. سبحانه. في آية الملك: ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]، دون زيادة (مَنْ).

يقول النحاة إن وجود (مَنْ) وعدمها سواء، لأن الجملة تامة بركنيها الفعل والفاعل. والفاعل (نذير) في آية سبا هو الفاعل، وإن جُرَّ لفظاً، فهو مرفوع محلاً.

والناظر للآيتين يجد أن التي زادت فيها (مَنْ) جاءت منفية على سبيل استغراق النفي، وقد جيء بمن لبلوغ هذا النفي أقصى مداه، ويحضرني رأي لأستاذنا في النحو أيام الدراسة الجامعية بجامعة البصرة

(١) يُنظر كتابنا، الإعجاز القرآني، أسلوباً ومضموناً، دار المرتضى، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، ص٩٢.

(٢) ينظر آيات القصص: ٤٦، وسبا: ٣٤، والسجدة: ٣، والمائدة: ١٩.

عام ١٩٦٩^(١)، وهو أن (من) هذه (اسم) وليس حرف جر، وهي بمعنى (أي)، بمعنى أنه لم يرسل إليهم أي نذير على الإطلاق. ولم أجد في كتب النحو ما يشير إلى اسمية (من)، ولكن الإشارة وجيهة، وربما تعيننا على فهم وظيفة (من) هنا، وأهميتها في الأسلوب.

وفي آية الملك نفي مع استفهام لم يتوجه الذهن معه إلى النفي على سبيل الاستغراق، وإنما تركيز الضوء فيه على عملية إرسال النذير، لانتزاع التقرير بأنه قد جاء النذير حقاً، ولذلك لم يستدع الأسلوب إيراد (من)، والله أعلم.

الباء :

وتزاد الباء عند النحاة في ستة مواضع^(٢) نشير إلى ما يرد منها في المتشابهات بالزيادة وعدمها، وهي قليلة، والكثير ورودها زائدة وليس له شبهة بعدم الزيادة.

ومن مواضع الزيادة في المتشابهة : زيادة الباء على خبر (إن) على غير القياس، إذ القياس زيادتها على خبر ليس، وذلك في قوله تعالى :

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يُقَدِرْ عَلَى أَنْ يُخَيِّطَ الْمَوْتَءَ﴾ [الاحقاف: ٣٣].

وقد ورد من المتشابهة دونما زيادة الباء في قوله تعالى :

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩].

- فما السرُّ في ذلك؟

(١) هو الدكتور محمد الأمين من مصر (رحمة الله عليه).

(٢) المغني، ص ١٤٤.

يرى الكرمانى بأن زيادة الباء على خبر (إن) هنا بسبب تراؤف النفي، وهو قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا) و(ولم يعي)، أي أن تكرار النفي قام مقام ليس التي يكثر اقتران خبرها بزيادة الباء^(١)، في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ لِمَنْ يَكْفُرُ﴾ [التين: ٨]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. والقاعدة الكلية عند النحاة تقول: قد يُعطى الشيء حكم ما يُشبهه في معناه^(٢).

ومن عجب أن النحاة يقيسون القرآن - في بعض الأحيان - إلى قواعدهم التي استخرجوها من النماذج الأدبية الجاهلية، وهي نماذج لا ترقى إلى درجة اليقين المطلق في نسبتها إلى تلك المرحلة، وكان الواجب أن يقيسوا تلك القواعد على أسلوب القرآن الذي لا يُدانيه أسلوب ولا يعتري مصدر نسبته أي شك. يقول ابن هشام: (ومن الغريب أنها. الباء. زيدت فيما أصله المبتدأ، وهو اسم ليس بشرط أن يتأخر موضع الخبر، كقراءة بعضهم: (ليس البر بأن تولوا وجوهكم) بنصب البر)^(٣).

ثالثاً: العدول من حرف جر إلى آخر:

ليس الموضوع هنا ذكر الحرف حيناً وحذفه حيناً آخر، ولا زيادته على التركيب بالمصطلح النحوي، ولا نيابة حرف عن حرف آخر، بمعنى

(١) أسرار التكرار، ص ١٣١. ومثال زيادتها في خبر ليس قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١].

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيان، تصنيف محمود صافي، دار الرشيد، دمشق، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، مج ١٣، ص ٢٠٠، وينظر بحث (ظاهرة المشابهة النحوية وعلاقتها بأقسام الكلمة)، د. البشتي الطيب بشنة، مجلة دراسات، طرابلس، ع ٤، ديسمبر ١٩٩٩، ص ١٦٩.

(٣) المغني، ص ١٤٩.

أن الحرف يؤدي معنى حرف آخر، فتكون الباء بمعنى (عن)، و(من) بمعنى (في)، واللام بمعنى (على)... وهكذا. وهذا موضوع مطروق ومتكرر في كتب النحو. وهو يختلط بمصطلحات وموضوعات مختلفة، فقد يدرس بعنوان الترادف، أو التضمين، أو التشابه النحوي، بل هو الانتقال بالتعبير من حرف إلى حرف في إطار من التشابه بين الآيتين، فقد يكون الفعل واحداً في الآيتين والحرف مختلف، وهذا يدرس ضمن تعدي الفعل بأكثر من حرف جر، وقد يكون المجرور واحداً والحرف مختلف. ومناطق الحديث عندنا ارتباط هذا التغير بالمعنى وتغيره بتغير الحرف.

وفي الوقت الذي نجد بعض النحويين يقولون بجواز نيابة حروف الجر عن بعضها بعضاً^(١). فإن بعض اللغويين يرفضون هذا التناوب أو (التعاقب)، لأن هذا يجرّ إلى القول بترادف معانيها، وهو مخل بتمام البلاغة القرآنية. يقول أبو هلال العسكري: (قال المحققون من أهل العربية إن حروف الجر لا تتعاقب. حتى قال ابن درستويه في جواز تعاقبها إبطال حقيقة اللغة، وإفساد الحكمة فيها، والقول بخلاف ما يوجبه العقل والقياس)^(٢)، وهذا متعلق برأيه بعدم جواز الترادف في اللغة: أسماؤها وأفعالها وحروفها.

وسنستمر على منهجنا في رصد المتشابهات في هذا المجال مدركين أثر تغير الحرف على المعنى، واكتسابه دلالة جديدة.

(١) ينظر المصدر السابق، ص ١٥١، وبحث (تناوب الصيغ في التعبير العربي) للأستاذ بشير زقلام، مجلة الدعوة الإسلامية، ع ٤٤، ١٩٨٧، ص ٣٣٥.

(٢) الفروق في اللغة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٧، ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م، ص ١٦.

بين اللام وإلى:

قال تعالى:

- ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

- ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ١١٢].

قال الزمخشري: (فإن قلت: ما له عُدي بآلى، وقد عُدي باللام في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾؟، قلت: معناه مع اللام أنه جعل وجهه، وهو ذاته سالماً لله، أي خالصاً له. ومعناه مع (إلى) أنه أسلم إليه نفسه، كما يُسلم المتاع إلى الرجل إذا دُفع إليه^(١)).

وعلماء اللغة يقولون إن القياس (الله) باللام، وحين انتقل التعبير ب(إلى) كانت له هذه الدلالة الجديدة^(٢)، وهذا يؤكد ما يذهب إليه علم الدلالة في أن الدلالة المعجمية قابلة للتعدد والاحتمال، وأنها تتحدد من خلال التراكيب المتنوعة^(٣)، وإلى هذا يُعزى تنوع الدلالة في القرآن الكريم من خلال تنوع التراكيب، ولم يكن الأمرُ - إذًا - تكراراً، كما اعتاد كثير من الباحثين أن يسمّوا هذا اللون من الأساليب في القرآن، هذا عن التنقل بين اللام و(إلى)، فماذا عن العدول من اللام إلى (على)؟.

(١) الكشف، ج ٢، ص ٥١٩.

(٢) أسرار التكرار، ص ١١٤.

(٣) ينظر بحث (التعامل النحوي الدلالي في التراكيب العربية)، د. أحمد شيخ عبد السلام، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ع ٩، ١٩٩٢، ص ٤٠٥، ومصدره (اللغة العربية معناها ومبناها)، د. تمام حسان، ص ٦١٣. ومن الأمثلة على التنقل ما بين اللام وإلى تنظر المواضع التالية: الأعراف: ٥٧، وفاطر: ٣٥، والرعد: ٢، ولقمان: ٢٩، ويونس: ٣٥، والحج: ٤١.

بين اللام وعلى:

قال تعالى:

- ﴿وَأَمَّا لَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

فلماذا هذا العدول من حرف إلى حرف؟ قال الزمخشري: (جاء بـ(على) مع سبق الضار، كما جاء باللام مع سبق النافع)^(١) ولهذا مثلات في القرآن قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَتُنَا لِإِبَادِنَا الَّذِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]. ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تعالى:

- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ [القصص: ٧١].

وذلك في حديثه - سبحانه - عن منه ونعمه في الآية الأولى، فكان التعبير باللام، وحين تحدث عن افتراض القهر والضرر كان التعبير بـ(على)، إذ أن من معاني اللام الاستحقاق والاختصاص والملك والتملك، ومن معاني (على) الاستعلاء. وليس هنا مجال للحديث عن استعمال اللام بمعنى على، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْزُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء: ١٠٧]، أي على الأذقان، وقوله: ﴿دَعَانَا لِجَنَّةٍ﴾ [يونس: ١٢]، بمعنى على جنبه. قال النحاس: ولا نعرف في العربية (لهم) بمعنى عليهم^(٢). وهذا يعني الحرف المستعمل في القرآن لا يعرف التناوب أو الترادف، بل لكل دلالة وهدفه.

(١) الكشف، ج ٢، ص ٣٦١.

(٢) انظر المغني، ص ٢٨٠.

وقد لَوَّن التعبير القرآني حرفي الجر والفعل واحد (اصطبر) في قوله تعالى:

- ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

- ﴿وَاصْطَبِرْ لِمَنْدُوبِهِ﴾ [مريم: ٦٥].

قال الزمخشري: «فإن قُلْتُ: لم عدَّى (اصطبر) بعلی التي صلته، كقوله تعالى: ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾؟ قلتُ: لأن العبادة جعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب: اصطبر لقرنك، أي اثبت له فيما يورد عليك من شداته. أريد أن العبادة تورّد عليك شدائد ومشاق، فأثبت لها، ولا تهن، ولا يضق صدرك...»^(١). وترى القرآن ينوع في استعمال هذا الفعل، فمرة يعدّيه باللام. ومرة يعدّيه بـ(على) كما لاحظنا، وقد يعدّيه بنفسه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: ٢٨] وقد لا يعدّيه: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. ومثله قوله: ﴿فَاصْبِرْ لَهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧].

وهذا تصريح للقول عجيب، وتلوين للكلام لا يقدر عليه إلا من قدر على علم ما في النفوس وما يستشيرها. ﴿وَلَقَدْ صَرَفْتَهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا﴾ [الفرقان: ٥٠].

بين الباء واللام:

قال تعالى:

- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

- ﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لِي﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩].

في سياقات قصة موسى وفرعون، ومن السهل عليك أن تهتدي إلى العدول من الباء إلى اللام في الآيتين، بمعنى استعمال الباء في آية واللام

(١) الكشف، ج ٢، ص ٢٨٥.

في آية أخرى؛ وذلك أن آية الأعراف تشير إلى الإيمان بالله، والضمير عائد إلى رب العالمين، رب موسى وهارون، تقول آمنت بالله، وليس لله، وفي آيتي طه والشعراء يعود الضمير إلى موسى حيث أذعنوا له ولآيته، وهو المؤمن له^(١)، ولا يبدو صحيحاً ما قيل من أن آمنت به وآمنت له بمعنى واحد!!^(٢).

ومثله قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٦١].

ففي الأولى (الباء) قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر، وفي الثانية (اللام) قصد السماع من المؤمنين، وأن يسلم لهم ما يقولونه، ويصدق له لكونهم صادقين عنده^(٣). وبهذا فالدلالة مع الباء غيرها مع اللام. وليس الأمر نيابة حرف مكان حرف، بل أداء حرف لوظيفة لا يؤديها غيره.

وقد مر بنا دخول الحرف (على) واللام على الفعل (سبق) في مثل ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء: ١٠١]. وفي هذه المرة تدخل الباء في قوله تعالى: - ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠، والعنكبوت: ٢٨].

فماذا نفهم من هذا العدول؟ وبِمَ يعين السياق على الفهم؟
إنك لتشعر من الباء دلالتها الأصلية على الإلصاق، فكأنهم متعلقون

(١) أسرار التكرار، ص ٩٠، ودرة التنزيل، ١٧٦.

(٢) أسرار التكرار، ص ٩٠.

(٣) الكشف، ج ٢، ص ٤٦.

بالفاحشة موصولون بها، ولا يكفي أن نقول إن الباء هنا للتعدية أي تعدي الفعل إلى مفعوله، كما قال الزمخشري^(١). ولذلك اقتصر (سيبويه) من معاني الباء على الإلصاق، ولم يذكر لها معنى غيره، فالتعبير بالإلصاق أفضل، وأما التعبير بتعدية اللازم فليس بجيد^(٢).

بين إلى وعلى:

وحين نقرأ قوله تعالى في هاتين الآيتين المتشابهتين:

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِنْزِيلًا وَإِنْزِيلًا﴾ [البقرة: ١٣٦].

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

لا يقنعنا حديث النحاة بأن (إلى) نابت منابَ على وأدت وظيفتها، ونظّل نبحت عن جواب، فنجدته لدى علماء الأسلوب القرآني الذي يُعنى كثيراً بالسياقات وتغيّر الدلالات على ضوء تغيّر الحروف، يقول الإسكافي والكرماني بأن ثمة فرقاً بين (إلى) و(على). (فإلى) موضوعة للانتهاء لا إلى جهة معينة بل إلى ستّ جهاتٍ (شمال ويمين، وأمام وخلف، وفوق وتحت)، والخطاب في آية البقرة للأمة، لقوله تعالى: (قولوا)، فلم يصح إلّا (إلى). أما (على) فحرف مختص بالفوقية، وهو مختص بالأنبياء؛ لأن الكتب منزلة عليهم، لا شركة للأمة فيها. فكان الذي يليق بآية آل عمران (على)، لأنه مختص بالنبي ﷺ دون أمته^(٣).

(١) نفسه، ج ٢، ص ٥٥٨.

(٢) حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه، ص ٢٠٦، والمغني، ص ١٣٦.

(٣) الدرة، ص ٣٤، وأسرار التكرار، ص ٣٦، والاتقان في علوم القرآن، للسيوطي ج ٢، ص ١١٦.

فانظر الفارق بين التأمل المعنوي الذي ينتهي إليه البحث البياني للقرآن، وبين التخلص النحوي الذي ينتهي - بسهولة - إلى إنابة حرف مكان حرف.

بين عن ومن:

وهذا الفارق بين منهج النحاة في دراسة تنوع الحروف مع الفعل الواحد، وبين منهج علماء الأسلوب القرآني، نجده - كذلك - في النظر إلى الحرفين (عن ومن) في هذين النموذجين القرآنيين المتشابهين:

- ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣، النساء: ٤٦].

- ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١].

فالنحاة يقولون^(١): وافقت عن معنى (بعد) هنا، مثلما وافقت من معنى (عن) أو رادفته في قوله تعالى: ﴿قَوِّلْ لِلْفَنَاسِ قُلُوبَهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. ولكننا نجد تفسيراً آخر لدى علماء الأسلوب ومنهم الإسكافي والكرماني، هو أن آية المائدة الأولى وآية النساء تتحدثان عن أوائل اليهود، وآية المائدة الثانية تتحدث عن كانوا في زمن النبي ﷺ، وذلك أن (عن) في كلام العرب لما بعد الشيء أو لما عداه، يقولون: أطعمه عن جوع، وكساه عن غزي، أي بعد جوع وبعد عري. ولكن (بعد) قد تكون لما تأخر زمانه بأزمة كثيرة، بينما عن لما جاوز الشيء وصار زمنه ملاصقاً لزمنه^(٢). فآية المائدة الثانية (من بعد). إذاً ذات دلالة على تحريفهم لآيات الله في التوراة بعد أن عرفوها وعملوا بها أزماناً طويلة.

(١) المغني، ص ١٩٧، وص ٤٢٢.

(٢) الدرة، ص ٩١، وأسرار التكرار، ص ٦٠.

وفي كتب التفسير حديث عن سبب نزول هذه الآيات قد نجد فيه عوناً على فهم الاختلاف الأسلوبي، ولكننا لن نفهم التباين الأسلوبي إذا قلنا مع النحاة بأن الحرف يرادف الحرف الآخر، ويكون في معناه. ننتهي إلى القول بأن فقهاء العربية يرون أن منهج النحاة مُبطل لحقيقة اللغة التي تتباين دلالات الأسماء والأفعال والحروف فيها بناءً على سياقاتها^(١)، ولهذا نرى أن منهج التفسير البياني للقرآن هو المنهج الذي يساعدنا على فهم أسرار التشابه في أسلوب القرآن، أو تصريحه وتنوعه من حال إلى حال، ومن تركيب إلى آخر، ومن حرف إلى آخر، وذلك كله مرتبط أشد الارتباط بمقاصد القرآن وأهدافه في التأثير والتربية والتوجيه.

(١) ينظر، التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف بمصر، ط ٥، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م، ص ٩٢، وذلك في وقوفها عند الفعل (أوحى) حين يتعدى مرة بنفسه، ومرة باللام، ومرة بـ(إلى)، ومرة بـ(في)، وهي تفسر هذا كله وفق المنهج البياني والمعنوي وتردّ فيه على منهج النحاة الشكلي.

الفصل الثامن

الطباق البياني في القرآن الكريم

مقدمة:

عنوان هذا البحث يحتاج إلى شيء من الإيضاح. فهو يشير إلى اصطلاحين من علوم البلاغة أحدهما علم البيان، والثاني فرع من علم البديع، وهو الطباق. فكيف التقى هذان الاصطلاحان في عنوان واحد؟.

الحق أن الدراسات البلاغية القديمة وكثير من الدراسات الحديثة جرت على الفصل بين هذه العلوم، وإن كان لهذا الصنيع بعض التسويغ في مجال الدراسات النظرية أو المدرسية، ولكنه ليس مقبولاً في مجال الدراسات التحليلية للنصوص الأدبية. وكان لهذا المنهج أضراره الواضحة المتمثلة في النظرة التجزئية للنص سواء من حيث دراسة الشكل أو المضمون، أو تناول جانب واحد من الشكل أو ملحظ بلاغي واحد كأن يكون الصورة البيانية، أو مبحثاً من مباحث علم المعاني، أو قضية من قضايا ما اصطلاح عليه بعلم البديع، كلاً على انفصال وليس هذا غريباً على تاريخ الدراسات النحوية والبلاغية لدى علمائنا فقد دُرس النحو منفصلاً عن البلاغة، ودرست البلاغة منفصلة عن النحو، إلا ما كان من جهود عبد القاهر الجرجاني من توخى معاني النحو في كتابه (دلائل الاعجاز)، وفي صياغة نظريته في (النظم) خاصة.

ومحاولتنا في هذا البحث تتمثل في النظر إلى عنصر التضاد أو التقابل أو (الطباق) في الصورة البيانية القرآنية، والتأمل في اشتراك هذين

العلمين من علوم البلاغة في الأدب القرآني، ومدى تأثيرهما في إبراز المعنى القرآني والهدف القرآني العام. وقبل أن نتناول النصوص القرآنية بالتحليل. لا بد من إلقاء نظرة سريعة على مفهوم (الطباق) وتعريفه، وصلته بعلوم البديع الأخرى، مع شيء من تاريخ البديع نفسه.

تعريف الطباق:

المطابقة هي أصل الوضع اللغوي أن يضع البعير رجله موضع يده، ومن معانيها الموافقة، وتقريب الفرس في العدو إلى غير هذا من المعاني المتولدة^(١). أما معناها الاصطلاحي البلاغي فهو الجمع بين الكلمة وضدّها. قال أبو هلال العسكري: (وقد أجمع الناس أن المطابقة في الكلام الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت الشعر مثل الجمع بين البياض والسواد، والليل والنهار، والحر والبرد)^(٢). وقال القزويني: (المطابقة: وتسمى الطباق والتضاد أيضاً، وهي الجمع بين متضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة)^(٣)، ولم يخالف هذا الإجماع في المصطلح إلا قدامة بن جعفر، إذ كان يسمّيه (التكافؤ)، وقد تبعه في هذا النحّاس^(٤).

(١) ينظر اللسان مادة طبق، وعلم البديع، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٥، ص٧٦.

(٢) الصناعتين، تحقيق محمد علي البجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د. ط، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٨، ص٣٠٧.

(٣) شرح التلخيص في علوم البلاغة، شرحه وخرّج شواهد محمد هاشم دويدري، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، ص١٦١.

(٤) ينظر العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق، دار الجيل، بيروت، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ج٢، ص٥.

ومن الملاحظ أنه ليس بين المعنى اللغوي للطباق أو المطابقة والمعنى الاصطلاحي البلاغي أدنى مناسبة، بل هناك نوع من التضاد^(١).

وكعادة البلاغيين في الولوع بالتقسيمات والتفريعات فقد تحدثوا عن طباق الإيجاب وطباق السلب، والطباق المحض، والطباق غير المحض، فعندهم الجمال ضده الدمامة وليس القبح، كما في قول الشاعر:

وجهه غاية الجمال، ولكن فعله غاية لكل قبيح

وعندهم أن قول عمرو بن كلثوم:

بأنا نورد الرايات بيضاً ونضدُرهن حُمراً قد رويانا

ليس من نوع المطابقة المحضة، لأن الأبيض والأحمر ليس مثل الأبيض والأسود^(٢)، وهذا تنطع واضح، لأن المراد هو التضاد في المعنى والموقف. والتوسع في هذا أجدى وأنفع.

وعَدّوا (المقابلة) نوعاً آخر من أنواع البديع، مع أنها لا تختلف عن المطابقة إلا في عدد الكلمات المتضادات وترتيبها بحيث تقابل الأولى ضدها في الجزء الأول من الكلام وتقابل الثانية ضدها في الجزء الأول نفسه، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ [التوبة: ٨٢]. وهكذا الثالثة والرابعة، وعندهم أنه كلما زادت المتضادات حُسُن الكلام^(٣). ومعلوم أن هذا أقرب إلى الصنعة، وأنه ما كان منظوراً إليه في المراحل الأولى من تاريخ الأدب والبلاغة، بل هو وليد عصور الصنعة في القرن السادس الهجري وما بعده.

(١) علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص ٧٧.

(٢) العمدة، ج ٢، ص ١١، ١٤.

(٣) علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، ص ٩٠، وينظر د. عبد الواحد علام، البديع، المصطلح والقيمة، مكتبة الشباب، القاهرة، ط ١، ١٩٨٩، ص ٧٢.

لقد نظر علماء البلاغة وبعض النقاد إلى البديع عامة والطباق خاصة، على أنه مجرد حلية وزينة، وأنه أمر وراء المعنى، وراحوا يدرسون كل نوع من أنواع البديع منفصلاً عن غيره، فدراسة الجناس غير مرتبطة بدراسة الطباق، ودراسة المشاكلة غير مرتبطة بدراسة السجع، فليس فن منها مبنياً على فن^(١)، وكان طبيعياً أن تكون دراستهم لأنواع البديع منفصلة، كذلك، عن علوم البلاغة الأخرى كعلم المعاني وعلم البيان.

وكان الأجدر بعلماء البلاغة المتأخرين ألا يقفوا عند وجوه تحسين الكلام الذي يُعنى بها علم البديع، لأن الكلام ليس زخرفة وتحسيناً. بل لا بد من مراعاة ما يعنى به علم المعاني من مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وما يُعنى به علم البيان من وضوح الدلالة على المراد لفظاً ومعنى.

إنهم من الناحية المنظرية أشاروا إلى هذا، فقالوا عن علم البديع بأنه (علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، ووضوح الدلالة)^(٢)، ولكنهم من الناحية التطبيقية أغرموا بوجوه التحسين وأهملوا الجانب النفسي والمعنوي، كما أهملوا جمال الصياغة ودقة التعبير^(٣). والأصل أن البديع لا يكون بلاغة إلا إذا وقع في كلام استوفى شروطه من صحة المعنى وجمال الصياغة، وإلا فما قيمة هذا

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د. محمد حسنين أبو موسى، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ط، د. ت، ص ١٧٩.

(٢) شرح التلخيص، ص ١٦٢.

(٣) ينظر مقال الدكتور مازن المبارك (البلاغة وتذوق النص الأدبي) في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، الإمارات العربية، العدد ١٠، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م، ص ٢١٠.

اللعب اللفظي الذي شغل البلاغيون فيه أنفسهم لقرون طويلة، ووجهوا الأدباء وجهة لاهية لا صلة لها بتنمية الذوق الفني، ولا صلة لها بحركة الحياة والمجتمع.

والناظر إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني (دلائل الاعجاز) و(أسرار البلاغة) يجد أنه عني بعلمي المعاني والبيان، ولم يعن بعلم البديع، واكتفى بالإشارة إلى التجنيس والمطابقة إشارة عابرة مؤكداً على ضرورة صلتها بالمعنى وخدمته، وأنهما لا يمكن أن يُدرسا بعيداً عن علمي المعاني والبيان. قال: (وأما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً... وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي استدعاه وساق نحوه)^(١).

وبهذا يكون عبد القاهر وحده هو الذي أعطى للبديع قيمته في تشكيل الصورة، وتحقيق الغرض المعنوي، وأن علماء البلاغة الذين جاءوا بعده هم الذين انحرفوا عن هذا الاتجاه، ودرسوا البديع لذاته، منعزلاً عن علمي المعاني والبيان، ولهذا جاءت الدراسات البلاغية للبديع جافة وعقيمة، فلم تخدم هدفاً ولا معنى، وإنها كانت تعبيراً عن ترف وبطالة أصابت العالم العربي والإسلامي وأسلمته إلى الضمور والتدهور.

بلاغة الطباقي وأهميته:

الكلمات المتضادة موجودة في اللغات كلها، وليست وقفاً على اللغة العربية وحدها، لأنها تعبير عن حقائق كونية واجتماعية ونفسية. فأنت في مجال الحياة الإنسانية لا تكاد تذكر الخير إلا وتذكرت الشر،

(١) أسرار البلاغة في علم البيان، مكتبة الحلبي، القاهرة، د. ط، ١٣٩٧م، ١٩٧٧، عني بنشره محمد رشيد رضا، ص ١٧.

ولا تكاد تذكر الحب إلا ورافق ذكره الكره أو الحقد، وهكذا تجد التجاور بين هذه الكلمات من مثل الصدق والكذب والقوة والضعف، والأمن والخوف، والميل والنفور والاستقامة والانحراف إلى غير ذلك من عالم الحسيات والألوان. يقول ابن رشيق: (والناس متفقون على أن جميع المخلوقات: مخالف وموافق ومضاد)^(١). ولم يبتدع علم البديع هذا النوع ابتداءً، بل لاحظته في الآثار الأدبية ونبّه عليه، وكان لذيذاً ومستساغاً، حتى دخله التصنع والتصنيع في العصور المتأخرة، فصار سمجاً، ومبتذلاً.

وما من شك في أن تداعي المعاني في التعبير الأدبي قد يأتي عن طريق التشابه بين الأشياء التي تقع عليها حواس الأديب، أو يأتي عن طريق التضاد. وهناك من يرى (أن الضد أكثر خطوراً على البال من الشبيه وأوضح في الدلالة على المعنى منه)^(٢). وهذا في مجال الصياغة الأدبية التي اكتملت شروطها - كما أشرنا - معنى ومبنى وتصويراً، فيكون التضاد في هذا السياق أقدر على تنشيط الفعالية الإدراكية، وتوسيع ملكة التخيل والوهم.

هذا في ميدان العملية الإبداعية ذاتها، أما أثر هذا التضاد وتصوير التناقض في الوجود المادي والاجتماعي والنفسي خاصة، في كيان المتلقي وإحساسه وعاطفته، فإنه يوقظ الإحساس، ويؤجج العاطفة، ويستفز الشعور من خلال تسليط الضوء على المفارقة والتنافر بين الأشياء مما يحدث هزة شعورية متوترة ورافضة لهذا التناقض، أو متسائلة، وإن أبدت رضاً، فغالباً ما يكون من جهة خنوع واستخذاء.

(١) العمدة، ج ٢، ص ١١.

(٢) البديع، د. عبد العزيز عتيق، ص ٩٢.

وقد أدرك كبير شعراء العربية أبو الطيب المتنبي وظيفة رصد المفارقات الصارخة في الحياة الاجتماعية والسياسية في عصره، بل وقف عند أحواله النفسية هو بين ما يطمح إليه وبين ما هو واقع بين يديه، وبين ما يراى به وبين ما يريد هو!! فجاء ديوانه حافلاً برصد هذه التناقضات من خلال ما تمنحه اللغة من عطاء واسع وثراء كبير من المفردات المتضادة التي يُشار إليها بـ(الطباق) في المجال البلاغي. وربما يمكن القبول بأن المتنبي أكثر الشعراء إفادة في رصد هذه المفارقات بشكل طبيعي وغير متكلف. ويكفي أن نشير إشارة سريعة إلى مثل هذه النماذج:

أظمتني الدنيا فلما جئتها مُستسقياً، مطرث عليّ مصائباً^(١)

وقوله في هجاء كافور:

وأسود مشفره نصفه يُقال له أنت بدر الدجى!!^(٢)

وإذا كان شعراء الصنعة قبله وبعده قد فاقوه في كثرة استخدام (الطباق)، فإنهم لم يفوقوه قدرةً على توظيفه وإحداث الأثر المرجو في نفوس سامعيه وقرائه.

مهما يكن، فإن الطباق ليس كالجناس والسجع تكلفاً، لأنه يعكس طبيعة الأشياء في الوجود، والصنعة فيه تبدو أقل، وكلما ذهب التكلف فيه كان تعبيراً عن حقائق الحياة. يقول أبو هلال العسكري: (إن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف، وبرىء من العيوب، كان في غاية الحسن، ونهاية الجودة)^(٣)، مشيراً إلى الاقتصاد في التعامل مع الكلمات المتضادة في اللغة.

(١) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ناصيف اليازجي، دار بيروت، د.ت، ج٢، ص٤٠٦.

(٢) نفسه، ج١، ص٢٤٥.

(٣) الصناعتين، ص٢٦٧.

ولقد جرت موجة عاتية من النقد والاستخفاف بفن البديع عامة في العصر الحديث، وهو نقد موجه إلى حالات الغلو والزخرفة التي طغت على أدب العصور المتأخرة، وليس موجهاً إلى علم البديع في الحالات التي يكون فيها جزءاً من الكلام البليغ وعنصراً مكملًا لقيمته وتأثيره. وهذا ما سوف نلاحظه في الأدب القرآني من خلال النصوص التي سوف نقف عندها.

الطباق في القرآن:

ليس هذا موضوع حديثنا الأساس، ولكنه لا بد من الإشارة إلى أن عنصر التضاد في محسوسات الحياة ومعنوياتها عنصر ملفت للنظر في القرآن الكريم، وقد أشار إليه البلاغيون القدامى، ولكن في إطار مستقل من علم البديع، دون وصله بعلوم البلاغة الأخرى، ودون بيان لوظيفته المعنوية والفنية وفي إطار التوجيه التربوي والنفسي للقرآن.

ولقد أشار الباحثون القدامى والمحدثون إلى أن هناك ألفاظاً قرآنية لا تكاد تفترق في القرآن، وهي من عادات القرآن واطراداته، من مثل الجنة والنار، والرغبة والرغبة، والنعيم والعذاب، والطيب والخبيث، والنفع والضّر، والجائر والمقتصد. وأنه ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعد، وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة^(١). وقد تابع القرآن في اطراداته الأسلوبية هذه كثير من الشعراء القدامى والمحدثون، فجاءوا بهذه الألفاظ متجاوزة مع أن للشعر قوانينه وأوزانه التي تختلف عن الأسلوب القرآني

(١) ينظر العمدة، ج ١، ص ٢٥٩، واطرادات أسلوبية في الخطاب القرآني، محمد إقبال عروي، دار الأمان، الرباط، ط ١، ١٩٩٦، ١٤١٧، ص ٣٥ - ٣٨. وتنظر مصادره.

النشري^(١). فكان أن استشاروا مكامن الشعور الجمعي في نفوس المتلقين، وكان أن أحدثوا التأثير المراد من الإتيان بالمفردات التي تعتمد على عنصر المفارقة والتضاد.

الطباق في إطار التصوير القرآني:

لقد نبه البلاغيون إلى توفر القرآن على شيء من الطباق بصورته الطبيعية المؤثرة والموجبة، ولكنهم - ونتيجة للمنهج الذي اتبعوه في الفصل بين علوم البلاغة الثلاثة - لم يقفوا عند السياق الذي ورد فيه الطباق في القرآن، ولم يلتفتوا إلى العنصر التصويري الذي أحاط بكثير من مواضع الطباق فحقق الهدف القرآني العام. هذا الهدف الذي أجمع العلماء والمفسرون على أنه الدعوة إلى اتباع الهدى، وتحقيق المقاصد الإلهية من خلق الإنسان ومنحه درجة الخلافة في هذه الأرض^(٢). ولهذا فليس صحيحاً أن يكون كد الباحث أو المفسر أو العالم أن يُعنى بالملحظ البلاغي وحده، أو الجانب العلمي وحده، أو الإشارات الصوفية وحدها، أو الإعجاز العددي وحده، بل يجب أن تكون هذه الملاحظات كلها، والمناهج كلها في إطار من تحقيق غايات القرآن وأهدافه في هدي البشر وحملهم على اتباع الصراط القويم وتطبيق الشرع الإلهي الذي تضمنه القرآن وعبر عنه بأساليبه المتنوعة وعبره المتعددة.

ونحن في دراستنا هذه لم نكن لنقف عند مادة الطباق وحدها على كثرتها في القرآن، ولا على مادة الصورة على الرغم من أن التصوير هو

(١) ينظر كتابنا، أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، دار المعرفة، دمشق، ط١، ١٩٨٥، ص٨٤، وما بعدها.

(٢) ينظر مقال (تفسير القرآن: إشكالية المنهج والمفهوم) للدكتور زياد الدغامين، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٨١، ص١٣.

الأداة المفضّلة فيه، ولا عندهما مجتمعين، إلا في إطار من الهدف القرآني الداعي إلى الهدى والاستقامة، ونبذ الضلال والانحراف عن الفطرة التي فطر الناس عليها.

ولنتأمل في بعض النماذج القرآنية التي يتعانق فيها التضاد والتصوير في إطار هذا الهدف.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرُزُّ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦ - ٢٧].

لو طلب منا أن نستخرج الكلمات المتطابقة (المتضادة) في هذا النص القرآني لما زدنا على القول إنها (تؤتي تنزع، تعز، تذ، الليل، النهار، الحي، الميت). وهذا لن يخدم النص القرآني بأكثر من هذا الإحصاء.

إن الآيات الكريمة السابقة جاءت تدليلاً على قدرة الله وعظمته سبحانه، فهو القادر على العطاء والمنع، وهو القادر على الإعزاز والإذلال في مجال علاقته بخلقه من البشر، وهو نفسه القادر على إدخال الليل في النهار وإدخال النهار في الليل، وهو القادر - كذلك - على خلق الحياة من الموت والعدم، والقضاء عليها بأمره، هذا في مجال علاقته بمخلوقاته في الكون كافة.

ويذهب الفخر الرازي إلى فهم أعمق للقدرة الإلهية، فالملك عنده هو القدرة، والمالك هو القادر: (فقوله: مالك الملك، معناه القادر على القدرة، والمعنى أن قدرة الخلق على كل ما يقدرون عليه ليست إلا باقدار الله تعالى)^(١). ومن مظاهر هذه القدرة الشاملة الواسعة أنها تجمع

(١) التفسير الكبير، ج ٨، ص ٨١، نقلاً عن البديع، المصطلح والقيمة، ص ١٤٩.

بين الضدين، فهو سبحانه القادر على الشيء وضده، المنع والعطاء، والإعزاز والإذلال، والإحياء والإماتة. ولا يقدر على ذلك إلا هو سبحانه، فقد يستطيع الإنسان أن يعز ولكنه لا يستطيع أن يذل، وقد يقدر على العطاء، ولكنه غير قادر على المنع، وهو غير قادر - طبعاً - لا على الإحياء ولا على الإماتة^(١).

من هنا جاءت وظيفة الجمع بين الأضداد التي لا يقدر على الجمع بينها إلا القادر على القدرة وحده. ويعقب الزمخشري على قوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقْ مَنْ شَاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧]، بقوله: (ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام، ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده)^(٢). وهذا ما يسميه علماء البلاغة بـ(مبالغة التكميل)^(٣)، أي أن هذه الخاتمة جاءت مترشحة من الآيات السابقة ومتعاقبة معها، ومضيفة دلالة جديدة على دلالاتها السابقة.

على أن هذا الحشد بين المتضادات الدالة على قدرة الله لا يأتي خالياً من أداة التصوير، فعملية إدخال الليل في النهار، وإدخال النهار في الليل عبر عنها بالإيلاج، والإيلاج يتم بشكل بطيء مثلما نشهده من غياب النهار ومجيء الليل بما يمهد له من ضمور الضوء وظهور طلائع الظلام. ولعل (يولج) هذه تذكر بقوله تعالى: ﴿وَأَيَّاهُمْ أَتَلُّ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]. بما في عملية السلخ من بطاء ومن دلالة على التصاق الجلد باللحم، وكأن الليل ملتحم بالنهار، وتتم عملية

(١) البديع، المصطلح والقيمة، د. عبد الواحد علام، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٢) الكشف، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨، ج ١ ص ٣١٧.

(٣) ينظر، علم البديع، د. عتيق، ص ٨٢.

سلخ أحدهما من الآخر!!، فيأتي ظلام بعد نور، أو يأتي نور بعد ظلام. ولعل عملية الإخراج تشبه الإيلاج أو السلخ، وفيها دلالة على الحركة وتنشيط لملكة التخيل أكثر من الخلق أو الجعل. فكيف تتم عملية (الإخراج) هذه، ذلك ما يترك وشأن المتلقي لهذا البيان الرباني العظيم. والذي نريد الإشارة إليه هنا هو هذا التصوير الذي تخلل حشد المتضادات، وهذه المتضادات التي استعانت بالتصوير، كل ذلك من أجل بيان قدرة القادر على ما لا يقدر عليه أحد، والقادر على إثارة النفس الإنسانية بعظيم صنعه. فكان التضاد والتصوير معاً في خدمة بيان القدرة الإلهية العظيمة.

والنظر إلى هذا النموذج يمكن أن يتم في مستويات أخرى من التناسق والانسجام التعبيري والصوتي من خلال هذا التساوي في طول الآيات، وتكرار الحروف المتولد من تكرار الملك والمالك، والليل والنهار، وتولج (مرتين) وتخرج (مرتين) و(الحي) مرتين، و(الميت) مرتين.

وسوف تسلمنا معاني الآيات السابقة من سورة آل عمران ومفرداتها إلى معاني ومفردات متشابهة فيها تضاد وفيها تصوير كذلك، من مثل الإحياء والإماتة، والليل والنهار، والنور والظلمات.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالإحياء والإماتة، غيرها في الآيات السابقة من آل عمران، فهي ليست إخراجاً للحي من الميت، أو الميت من الحي بصورتها في الطبيعة الكونية، بل إننا في مجال حياة وموت من نوع آخر. فالمراد بالميت هنا في سورة الأنعام (الضال) فقد شبه به واستعير له، والمراد بـ(أحييناه): هديناه. يقول الدكتور محمد أبو موسى: (الآية... تذكر

حاليين أو مرحلتين من مراحل حياة الإنسان . المرحلة الأولى كان فيها ميتاً، وهو في الثانية حي، والواقع أن هذا الإنسان كان حياً في الحاليين، حياةً بمعناها المتعارف، ولكنه كان منطفئ الفطرة، وسلامة النظر الراشد إلى معرفة الحق والخير والموصول بمصدر الكون والعدم، والموت هنا له مفهوم جديد ربما كان انغماس النفس في ظلمة الحيوانية وبقاء الروح مكفوفة الإدراك تخبط في الأرض من غير غاية نبيلة تسعى إليها لتسعد بها سعادة أبدية . . . الضلال له مفهوم جديد بهذه الاستعارة لأنه لم يعد ضلالاً وإنما صار موتاً، كما أن الموت له أيضاً مفهوم جديد لأنه ليس إبطالاً للأحوال الجسمية، وإنما هو إبطال للطاقات الروحية^(١).

هذا التعامل مع اللغة بإخراج دلالتها من الأصل الوضعي إلى دلالات جديدة بضرب من التوسع على سبيل الاستعارة ذات الأصل التشبيهي، فتستعار الحياة للإيمان، والموت للكفر، وهما أمران عقليان، وهو أمر قليل الورد في القرآن الذي غالباً ما يعهد إلى تقريب المعنوي بالحسي المشاهد^(٢).

وهاتان الاستعارتان في الجزء الأول من الآية توظفان في سياق من التشبيه بين حالة الحي من بعد موت، فيكون له نور وهدى يهتدي به في مشيه، وحالة من يخبط في الظلام دونما نهاية لخبطه.

هذا التصوير المتشابه كان للتضاد فيه بين الحياة والموت، والنور والظلمات وظيفته تعميق المعنى في قلب المتلقي وإشراكه في الحكم

(١) التصوير البياني، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط١، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م، ص٢٥٢.

(٢) الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسين الصغير، دار الهادي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص٢٢٥.

وهي إشارة سبق لأبي هلال العسكري أن أشار إليها، ينظر: الصناعتين، ص٢٤٠.

وإبداء الموت، خاصة وأن السياق جاء في أسلوب استفهامي (وهو من علم المعاني العلم الثالث من علوم البلاغة مع البيان والبديع)، يفترض أن تكون له إجابة ضمنية نفسية ليست تقريرية واقعية، وهو استفهام دال على النفي لأن يكون الموت والحياة سواء، والنور والظلمات سواء!!

ويأتي الليل والنهار في إطار من التصوير في كثير من آيات القرآن، وهما يردان بكثرة فيه، وغالباً ما يأتيان، متجاورين في سياق واحد، وقد بلغ عدد المرات التي ذكر فيها الليل اثنتين وتسعين مرة، وعدد المرات التي ذكر فيها النهار أربعاً وستين مرة.

ومن أمثلة التصوير فيها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]. يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية واضعاً يده على ما فيها من تصوير: (التكوير: اللف واللي، يقال: كار العمامة على رأسه وكورها؛ وفيه أوجه: منها أن الليل والنهار خلفه يذهب هذا، ويغشى مكانه هذا، وإذا غشي مكانه، فكأنما ألبسه، ولفَّ عليه، كما يُلف اللباس على اللابس... ومنها أن كل واحد منهما يغيب عن الآخر إذا طرأ عليه، فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار. ومنها أن يكرّر هذا كروراً متتابعاً فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض)^(١)، وهو في هذه الأوجه كلها لا يبتعد عما في (يكور) من أصل تشبيهي سواء جاء من اللباس أو العمامة أو الكر والتابع.

وهذا من اطرادات القرآن وعاداته التصويرية حين يتناول التضاد بين مفردتي الليل والنهار ليدلل بهما على قدرة الله سبحانه في الخلق والجمع

(١) الكشف، ج ٣، ص ٢٤.

بين المتضادات، ويربط بين الوجود المادي في الكون، وبين الحياة الإنسانية، إذ أن كل ما في الطبيعة إنما هو نعمة مهداة لهذا الكائن الجميل المحبب عند الله (الإنسان).

انظر إلى قوله تعالى في هذا المجال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦]. ويتكرر هذا السكن في الليل، وجعل النهار مبصراً في سورة يونس: ٦٧، وفي سورة غافر: ٦١. وفي سورة الإسراء يختلف التعبير فيكون ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ آلِيلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] فكيف يكون هذا التعبير التصويري (وجعل النهار مبصراً)، كيف يكون النهار مبصراً، والإبصار لأهله على سبيل المجاز، كما يقول البلاغيون؟ أهو نوع من التقابل في المعنى، وليس في اللفظ كما يقول الزمخشري^(١)، لأن معنى مبصراً (ليصروا فيه)، أم أنه لون آخر من التضاد ليكون الإبصار في النهار مقابلاً للسكن في الليل، بما في السكن من دلالة على النوم؟ وهكذا يكون التعاقب بين المتضادات في جو من التعبير غير مباشر، وفي جو من التصوير بديع.

وتجاوز هذا النمط من الطباق البياني الذي يعتمد على مفردات مُحاطة بألوان من التصوير إلى نوع آخر من تضاد المعاني، وهذا ما سوف نجده في المثل القرآني.

أمثال القرآن بين التضاد والتصوير:

ليست أمثال القرآن كلها سواء في صيغها ولا في دلالتها ولا في وضوحها وغموضها، وليس من مهمتنا في هذا البحث استقصاء هذا،

(١) نفسه، ج ٣، ص ٤٦٢.

ويهمنا أن نشير إلى أنماط ثلاثة من الأمثال دالة تضاد في المعاني، ومفارقات في الفهم والسلوك الإنسانيين. أما التصوير في المثل القرآني، فلا يحتاج إلى مزيد أدلة؛ لأنه في اغلب أحواله صورة مجسدة للمعاني والأغراض التربوية الهادفة إلى بناء الإنسان وتكامله.

التمط الأول: وهو الذي ترد فيه كلمة (مثل) في البداية، ويمكن أن يفهم منها أنها (الشأن)، أو (الحال). كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَذَكَّرُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقًا وَالنَّاسُ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ مَصْفُوفٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ [البقرة: ٢٦١ - ٢٦٤].

أي شأن من ينفق في سبيل الله، كشأن الحبة. . . وقد أوردنا هذه الآيات، على طولها، ليتبين عنصر التضاد والتصوير. فالتضاد بين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، فيباركها الله ويضاعفها، والذين ينفقون رياء الناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر حيث يحق الله ذلك الإنفاق ولا يترك له أثراً. وهذا المعنى الطباقى (المتضاد) صاغته الآيات في إهاب من التصوير جميل، وفي صياغة من التعبير مثيرة. فالمشاهد للعيان أن الحبة قد تنبت سبع سنابل وفي كل سنبل مائة حبة، وفي هذا إغراء للمنفقين في سبيل الله، بهذا المثل الذي قرن بالدليل. وفي هذا إحياء إلى أن قلوب أولئك المنفقين في سبيل الله قلوب خصبة ومعطاءة ومباركة، ولذلك كانت ثمار إنفاقهم خصبة ومعطاءة ومباركة كذلك.

وفي الطرف الثاني المضاد من التصوير نجد ذلك المرائي الذي شبهت حالة إنفاقه بالحجر الأملس عليه شيء من التراب، فأصابه مطر عظيم، فأذهب ذلك التراب القليل، فظهرت صلابته عارية وبدا كالحاً ناشزاً^(١). وفي هذا إحياء آخر إلى غفلة قلب المنافق وبلادته وخلوه من الخير والجمال، فهو سائر من ضعف إلى ضعف حتى ينتهي إلى زوال^(٢).

على أن هذا النوع من التصوير في فن التشبيه ليس من النوع الذي نصطلح عليه بتشبيه الصورة الذي يكون المشبه فيه صورة، والمشبه به صورة، بل إننا أمام تشبيه كامل بطرفيه ازاء تشبيه آخر بطرفيه. المؤمنون وإنفاقهم في تشبيه كامل، والمنافقون وإنفاقهم في تشبيه آخر.

النمط الثاني: ويكون منه التعبير بذكر المثل اسماً نكرة، كقوله تعالى: (ضرب لكم مثلاً)، ويكون بمعنى (دليلاً) أو (قصة) أو (إيضاحاً) أو (شبيهاً) والآية ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩].

فالمعنى المتضاد يتمثل بحالة العبد الذي يملكه شركاء متعددون، فهم مختلفون في أمره وتوجيهه، وهو حائر بين أوامرهم المتعددة المتناقضة، وحالة العبد المتفرغ لسيد واحد لا تتعارض أوامره وهو لا يجد حرجاً في الاستجابة لها. وقد ضرب الأول مثلاً لعابد الأصنام، والثاني مثلاً لمن يعبد الله وحده. والصورة تتمثل بهذا التشبيه بين حالة العبدین والسیدین، وإن طوي ذكر المشبه وبقي المشبه به دالاً عليه.

(١) ينظر، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيان، محمود صافي، دار الرشيد، دمشق، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م، ج ٣، ص ٥٠.

(٢) ينظر، التصوير البياني، د. محمد أبو موسى، ص ١١٢.

وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]. وقد جاء هذا الطباق البلاغي لرصد لا معقولية الاستواء والتشابه بين حالتين متناقضتين العبد الذي تتنازع إرادات متعددة، والعبد الذي يستسلم لسيد واحد، وبين الأخرس الأبكم الذي يعجز عن فعل أي شيء، وبين القادر العادل الخالق الباري المصور. وقد جاء الاستفهام في الآيتين ليعمق الانتباه إلى هذا التضاد والتناقض الصارخ، ويهز مشاعر المتلقي ويستفز ملكاته الشعورية والعقلية.

النمط الثالث: ويمثله قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

في النمط الأول والثاني اللذين مرّا علينا كنا إزاء حالتين يقوم التشبيه بوظيفة المقارنة بينهما لتقريب المعنى وإيضاحه، ولكننا في هذا النمط الثالث نحتاج إلى خطوة أعمق في الفهم، لأن التعبير جاء على سبيل الاستعارة، والاستعارة أكثر إيجازاً وتعتمد على التلميح أكثر من الإيضاح. ونحن أقرب ما نكون إلى الصور الرامزة إلى معانٍ بذاتها، حيث ننتقل معها من المحسوس المشاهد إلى المعقول المجرد. فقد استعير الماء للخير والزبد للشر والباطل، وكان شأن الخير الثبات والاستقرار والرسوخ، وهكذا شأن المعادن في رسوبها وكأنَّ شأن الشر الزوال والتلاشي مع بهرجته وظهوره، وكذلك شأن الزبد الطافي على سطح الماء، والنص محتمل لمعانٍ وإحياءات متعددة يستجيب لها الحس الجمالي والأدبي. فهذا الأستاذ فخر الدين عامر ينظر للصورة من جانب

آخر فيقول: (فهذا التمثيل يوضح كيف يجتمع الحق والباطل ولا يمتزجان، بل يتميز كل منهما عن الآخر ليأخذ طريقاً يناسبه يعلن فيه عن حقيقته. فالباطل كالزبد الذي يعلو السيل هائجاً مخادعاً، لكنه لا يستقر في أرض، ولا ينتفع به زرع، بل هو رغوة فارغة زائلة، والحق كالماء وجواهر المعادن تستقر في الأعماق مثرية مخصبة...^(١)).

أترانا نسير منفعلين بهذا التصوير الرامز إلى المعاني، وننسى الإشارة إلى التضاد والتناقض بين هذه المعاني... المعادن الراسبة الباقية المفيدة، والزبد الزائل الخادع، الخير في قوته ورسوخه ونفعه، والشر في زواله، ومظهره الكاذب، وضرره. ومنذ البداية قلنا إن علم البيان وعلم البديع يتعاونان على إبراز المعنى المراد، ويعينان على بلوغ التأثير في القلوب والنفوس.

وللتأكيد على أن هذا النمط الثالث يحتاج إلى مزيد تأمل للكشف عن المعنى الثاني، أو معنى المعنى كما يسميه عبد القاهر الجرجاني، ولعلّ هذا يعود إلى السياق الاستعاري الذي أشرنا إليه، وهو يختلف عن التشبيه في وضوح دلالة.

ولنضرب هذا المثل الرامز في قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَجَسًا﴾ [الأعراف: ٥٨]. فالظاهر الذي يتبادر إلى الذهن هو هذه الأرض الخصبة التي يخرج نباتها ممرعاً كثيفاً يسهل الانتفاع به، وهذه الأرض الكالحة السبخة التي لا يكاد نباتها يخرج إلا بعسر، ولا يكاد الناس ينتفعون به. والذي يعين على هذا المعنى الظاهر السياق الذي وردت فيه الآية، فهي جاءت بعد قوله

(١) ينظر مقاله (التمثيل في المثل القرآني) في مجلة الدعوة الإسلامية، العدد ٣، ١٩٨٦، ص ١٨٦.

تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ
سَحَابًا نَقَّالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾
[الأعراف: ٥٧] ولكن الحس العربي منذ فترة نزول القرآن يلتفت إلى
المعاني الخفية التي يرمي إليها التعبير القرآني. فهذا ابن عباس يرى أن
البلد الطيب والبلد الخبيث (مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فأخبر
بأن الأرض كلها جنس واحد إلا أن منها طيبة تلين بالمطر؛ ويحسن
نباتها، ويكثر ريعها، ومنها سبخة لا تنبت شيئاً، فإن أنبتت فلا منفعة
فيه، وكذلك القلوب كلها لحم ودم، ثم منها لينة يقبل الوعظ، ومنها
قاس جاف لا يقبل الوعظ)^(١). علماً بأن النص لم يشير إلى كلمة (مثل)،
ولكن الصورة الاستعارية للمعنى الثاني لا تتعارض والمعنى الأول ولا
تتضاد.

وهكذا يوظف التصوير بإيحاءاته ودلالاته المتعددة في خدمة المعنى
الذي يقوم على التضاد. فالتضاد وحده لا يعبر عن عمق حس، ولا
شفافية شعور ما لم يوضع في سياق بلاغي تقوم أدواته على التعبير غير
المباشر، بما فيه من إثارة ودعوة للتأمل وإطلاق ملكات التخيل
والتفسير. ولقد ذهبت إدراج الرياح تلك الأنواع من (الطباق) التي أغرم
بها بعض شعراء الصبغة، فكانت كالزبد الرابي الذي ذهب جفاء ولم ينفع
الناس...

أقول: إننا وقفنا عند بعض آيات المثل القرآني بشكل خاص، وإن
لم يكن قصداً استيفاءها، فهي مصاغة صياغة تصويرية وهذا جانب من
هدفنا من هذا البحث، ثم إن بعضاً منها - ولعله الغالب - جاء معبراً عن
معاني متناقضة متضادة رصدها القرآن ليوجه بها الإنسان إلى معاني الخير

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت،
١٩٨٠، د. ط، مج ٣، ج ٨، ص ٨٤.

والصلاح والرشاد، وينأى به عن سلوك الضلال والزيغ والفساد. وقد يرد المثل القرآني في الصفحات الآتية منظوراً إليه من غير الجانب السابق.

رسم المشاهد والطباق البياني:

أشرنا إلى أن من اطرادات القرآن وخصائصه أنه يقرن المعاني المتعارضة في سياق واحد ليتعمق الوعي الإنساني بالمعنى من خلال ضده، فهو حين يذكر الجنة يذكر النار، وحين يتحدث عن صفات المؤمنين يعقب عليها بصفات الكافرين أو المنافقين، ويتعرض إلى مصائر هذه النماذج البشرية سواء في الدنيا أو الآخرة. وقد يشير إليها باللفظة الواحدة، أو اللمحة السريعة، وقد يصورها بمشاهد حية. وقد تكون هذه المشاهد معاناة في حياتنا الدنيا، أو تكون متخيلة في الآخرة، ومقيسة على ما نرى ونحس في هذه الحياة. وهذه المشاهد عامرة بالتصوير والحركة مثيرة لمكامن الحس الإنساني بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى. والحق أن رصد هذه الحالات. قد يضخم هذه الصفحات، ونكتفي إلى الإحالة إلى آيات سورة الواقعة ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ...﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ من آية ٢٧ إلى ٥٦. بما فيها من تصوير لأحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار وكأننا أمام مناظر نراها بأعيننا اليوم فيخبت القلب المؤمن لها خاشعاً، ويزداد القلب الضال قسوة وبعداً عنها. ومثلها آيات سورة الحاقة ابتداءً من قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الآيات: ١٩ - ٢٤]، إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ [٢٥ - ٣٧]، ومثلها [الانشقاق: ٧ - ١٥].

وقد يرد رسم هذه المشاهد المتضادة في القصص القرآني حين يصور أحوال الصالحين وأحوال المعاندين كقصة الرجلين في سورة الكهف، الرجل الغني الطاغوي المغرور بأمواله وأولاده، وقصة الرجل

المؤمن الفقير الواثق بما عند الله. الآيات: [٣٢ - ٤٥]. وقد يكون رسم المشاهد بذلك الذكر الدائم لصفات المؤمنين وصفات الكافرين، أولئك ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ... ﴿وَهَؤُلَاءِ﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢٠ - ٢٥]. كل ذلك التضاد في سياق تصويري يهدف إلى تعديل السلوك الإنساني، فلا يذكر هذا التناقض إلا من أجل تجاوزه وإصلاحه ليكون العمران في هذا الكون هدفاً من أهداف وجود الإنسان في الأرض.

لم نشأ الوقوف عند تلك المشاهد على غناها وتمثيلها لما نريد رصده من تصوير المتناقضات والمتضادات من المعاني والمحسوسات، وقد اكتفينا بالإشارة إلى بعض مظانها في القرآن. ونود أن نقف عند بعض المشاهد الجزئية التي تمثلها الآية أو الآيتان ولكنها تبقى مشاهد حية مكثفة مصورة للمواقف والصفات المتضادة.

لنعد إلى آيات سورة البقرة التي وقفنا عند بعضها وهي الواصفة لإنفاق المؤمنين وإنفاق المرائين، ولنقف عند الآيتين اللتين لم نقف عندهما آنذاك، وهما قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاقَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٦٥) أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٦٦) [البقرة: ٢٦٥-٢٦٦].

عرضنا إلى هاتين الآيتين في هذا الموضع لتصويرهما مشهداً متكاملًا خاصة حينما يتملى النظر والقلب معاً في حالة ذلك المخلوق

الذي يُصيبه الوهن والضعف بعد القوة والغنى، فيجد نفسه أمام رمز ثروته، ذلك البستان أو الجنة التي تعاورها الفناء من كل جانب، وهو واقف أمامها يصيح به داعي الكبر والعجز، ولا يقدر أن يردّ عنها الإعصار أو الاحتراق. إنها خيبة ومآل خاسر، ذلك الذي يقفه مثل ذلك الرجل. وإنها لعبرة لكل ذي قلب وذئ عينين. والذي زاد المشهد شحنة عاطفية الدُرّة الضعفاء الذين يقفون بين يديه وهو يرنو إلى من يعيلهم من بعده^(١).

وواضح لديك هذا التضاد في الحالات والألوان، حال الجنة الراحية التي أصابها الغيث فأمرعت من كل جانب، وحالة الحجر الأملس الصلد في الآية التي قبلها، وحالة هذا الرجل بين شبابه وقوته وبين ضعفه وعجزه، وهو أمام جنته الأولى زاهياً مفتخراً، وأمام جنته الثانية لا يملك حولاً ولا قوة.

ونريد أن نشير هنا إلى نوع من اطرادات القرآن وعاداته في التصوير، إنه يعتمد إلى التفصيل في المشبه به بما يلقي مزيداً من الضوء على أحوال المشبه. وهذا شيء يختلف عن استطرادات الشاعر الجاهلي حين يسهب في وصف المشبه به في مثل تلك الحالات التي يصور الناقة أو البقر الوحشي الذي يشاهده، أو غير ذلك من مشاهد الصحراء.

وقد لاحظنا هذا في الآيتين السابقتين حين وصفت الجنة ببروتها، وحين ذكرت حالة الرجل الكبير أمام جنته المحترقة. وحالته هذه إنما تمثل المشبه به الذي يرمز إلى حالة مشابهة مسكوت عنها، وهي حالة الواحد منا حين يُحاط به في كبره، ولا يملك حسنى ولا عملاً مباركاً.

(١) تنظر اللمسات الفنية والنفسية الأخرى التي وقف عندها د. محمد أبو موسى، التصوير البياني ص ١١٤.

ويمكن أن نشير هنا إلى وصف القرآن للكلمة الطيبة التي تشبه شجرة طيبة، فلم يقف عن هذا بل قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِقُ أَكْلَهَا كُلُّ حِينٍ يُأْذِنُ رَبُّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] وقال عن الشجرة الخبيثة التي شبهت بها الكلمة الخبيثة بأنها ﴿أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]. ولعل في آية النور من سورة النور دليلاً على هذا النوع التفصيلي من المشبه به، آية ٣٥.

وواضح أن ما أشرنا إليه من تصوير في آيات سورة إبراهيم السابقة إنما جاء في سياق من رسم المتضادات من المعاني، والمتضادات من مشاهد الكون وآثار الطبيعة التي يعد الشجر أحد معالمها. وهذا اطراد آخر من اطرادات القرآن التصويرية حي توظف مظاهر الكون الحسية من شجر وجبال وأنهار وبحار لتصوير أحوال النفس ومنازع الإنسان من قوة وضعف، وبقاء وزوال، وظهور، وخفاء، وصدق وتمويه.

التضاد الخفي:

لقد تحدث البلاغيون عن هذا النوع من الطباق وسموه إيهام التضاد، وهو أن يؤتى بلفظين ليسا مُتضادين تضاداً ظاهراً، ولكن معناهما يؤول إلى التضاد، كقوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. فرحماء ليست ضد أشداء. كما يرون. لأن ضد الشدة اللين، ولكن الرحمة مسببة عن اللين، ولذا كان هذا طباقاً ولكنه بخفاء وتلميح^(١). وعد ابن المعتز من المطابقة قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وواضح أن القصاص ليس ضد الحياة لفظياً، ولكن، بما أن

(١) شرح التلخيص، ص ١٦٢.

القصاص يعني القتل والموت كان ضدًا للحياة، وإن كان هو حياة بذاته .
قال ابن رشيقي: (وهذا من أملح الطباق وأخفاه)^(١).

ويهمنا في مجال بحثنا الطباق إذا تمخض عن صورة وكان متعاضداً
معها في إطار واحد يبلغ بالمعنى مداه وغايته من حيث التوصيل والتأثير
والاستجابة . وفي هذه المرة سنكون مع تضاد غير ظاهر، كما سنلاحظ .

انظر إلى قوله تعالى في سورة نوح: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذِلُّوْا
نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

أي بسبب خطيئاتهم . فالذي يقابل الإغراق هو الإحراق، ولكن لما
كانت النار تسبب الإحراق، كان ذكرها كافياً لاستحضاره مقابلاً
للإغراق . ومما يثير الدهشة ويستفز الحس تحول هذه الأجساد البشرية
من الماء إلى النار، وبطريقة خاطفة ﴿أُغْرِقُوا فَأَذِلُّوْا﴾ بالفاء الدالة على
الترتيب السريع الملاصق، وللخيال أن يذهب كل مذهب في هذا
المجال، فكيف تمت عملية النقل هذه من الماء إلى النار، أهى من
الطوفان الذي عم قوم نوح المكذبين إلى يوم الحساب مباشرة دونما
مهلة؟ وهذا الأمر تم مع قوم نوح خاصة لأنهم أغرقوا بالماء . وما شأن
فرعون وما حاله في مجال هذا التخيل يطلق القرآن عنانه، وينتهي به إلى
قرار من الاتعاظ والمراجعة!!

تخيل فيه ترعيب، وتضاد بين ماء ونار دون تمهيل، فيه هزة عنيفة
لمن جاء بعد تلك الأقوام من قرون وجبلات حتى قرننا هذا وجبلتنا
هذه، وإلى أن يبعث الله الأرض ومن عليها . . .

ومن دقائق المعاني المتضادة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي
أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]. إن الله لا يترك ضرب

(١) العمدة، ج ٢، ص ٩.

المثل بالأشياء الصغيرة للأحوال التي تناسبها من الحقارة والضعف كما جعل الذباب والعنكبوت والبعوض مثلاً للآلهة الضعيفة الواهنة الحقيرة، كما أنَّ الأمور الجليلة والعظيمة يضرب لها ما يناسبها من العظمة والجلال^(١). وفي هذا رد على الكفار الذين قالوا - طعنًا في القرآن - بأن الله يستحي أن يذكر هذه المخلوقات الحقيرة، فجاء الرد بأنه يذكرها، ويذكر ما هو أكبر منها، بخلاف الموحدين الذين يعلمون أنه الحق من ربهم. وفي جو هذا التضاد المشحون يأتي التعقيب الذي يحمل تضاداً آخر: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ بين يضل ويهدي في سياق... ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾... ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... ومن الطريف تعقيب أحد المعاصرين على هذه الآية بقوله: (في هذه الآية الكريمة مثل ضرب للدنيا وأهلها، فإن البعوضة تحيا ما جاعت وإذا شبعَت ماتت. كذلك أهل الدنيا، إذا امتلأوا منها هلكوا...)^(٢) وهكذا يأتي الإيحاء المتولد من ظلال الأضداد مشحوناً هو الآخر بألوان من التضاد، كالشبع والجوع، والحياة والموت!!

ولقد أشرنا من قبل إلى أن الأمثال عامرة بالتصوير المقرب للمعاني المجردة.

ومن الأمثلة التي ترد فيها المفردات على غير ما هو معهود من التقابل. فالمعلوم أن ضد العلم الجهل، وضد العمى الأبصار، ولكن التعبير القرآني يجيء على هذه الشاكلة: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩].

حيث يقابل بين يعلم، وأعمى، أي بين العلم والعمى، وما هما

(١) الكشف، ج ١، ص ٢٠٣.

(٢) الجدول، ج ١، مج ١، ص ٨٧.

بمتضادتين لفظاً، ولكن الجهل الذي هو ضد العلم، يشبه صاحبه بالأعمى لأنه لا يقوى على التمييز بين الحقائق. ولا شك أن العمى هنا منظور إليه بمعناه غير الحسي، إذ المراد به الجهل أو الضلال وهما ضدان للعلم والهدى. وقد جاء السياق محتضناً للتصوير إذ استنكر أن يكون المهتدي الذي يمشي على بصيرة من ربه، كالضال الذي يخط في ظلمات الجهل والضلال.

وأخيراً تستلفتنا آيات قرآنية مصورة لحالات الكفار من مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَمَرِجٍ يَفِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّالِمُونَ مَاءً﴾ [النور: ٣٩]، وما على شاكلته في القرآن، دون تعقيب بالحديث عن صفات المؤمنين. ألا يكون في هذا نوع من القطع أو الحذف الدال عليه السياق؟ ومعلوم أن في القطع أو الحذف استشارة للمتلقي وإشراكاً له في عملية التوقع والاحتمال. وهو الذي قال عنه عبد القاهر الجرجاني بأنه (باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم بياناً إذا لم تبين)^(١).

وهو في هذه المرة ليس حذفاً لكلمة من نوع الفاعل أو المفعول به أو المضاف أو الصفة أو الموصوف، بل حذفاً لمشهد كامل، أو مقابل لحالة معينة. فماذا ترى يكون ما يقابل صفات الكافرين الذين تكون

(١) دلائل الاعجاز، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، د. ط، ١٩٨٣، ص ١٧٨، وينظر كتابنا: الاعجاز القرآني أسلوباً ومضموناً، دار المرتضى، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، ص ٥٢.

أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، أو كسراب بقية يحسبه الظمآن ماء، ماذا سيقابل هذه الصفات أو الأحوال التي تنتظر المؤمنين، وهي أحوال مسكوت عنها في هذا الموضع. وهي قطعاً مخالفة تماماً لأحوال الكفار. . يكفي للمؤمنين أن يقول الله عنهم بأنهم ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

ورضا الله ما لا يستطيع بصر أن يتخيله، أو قلب أن يستشعر مداه وعظمته. يكفي أنه رضا. . . أما رضاهم هم، فيمكن تصور حده، بما يصل حد الاكتفاء وبلوغ النهاية.

ومهم جداً أن نؤكد هذا التعانق بين التضاد والتصوير، فأحوال الكافرين لم تذكر مجردة، أو مسرودة بطريقة مباشرة، بل جاءت مصورة كأروع ما يكون عليه التصوير، وبهذا يمكن أن يستغرق الذهن أو القلب في رسم صور أخرى مغايرة لأحوال المؤمنين، وهو مدى واسع لا يكون له حد.

الخاتمة:

ليس ترفاً أن نعيد الحديث عن الطباق والبيان، وقد تحدثت عنهما كتب البلاغة قديماً وحديثاً بما يغني، بل هو منهج نتوسم فيه الشراء والغناء للبحث البلاغي، لأن فن القول لا يعتمد على نوع بلاغي واحد لبلوغ مراده، بل قد يعتمد على كثير من الأنواع البلاغية والأدوات التأثيرية من موسيقى وعاطفة لبلوغ هذا المراد.

ونحن قرئنا بين فرع من علم البديع وهو (الطباق)، وفروع علم البيان من تشبيه واستعارة، ولاحظنا ما يتحقق للنص من مدى تأثري واسع. ولو كان المنهج يضم إليه العناصر البلاغية الأخرى لكان أجدى. وهذا يكون حين يتناول الباحث نصاً واحداً ويسلط عليه الأضواء الفكرية والعاطفية والفنية كلها، فيستجلي مكامن شكله ومضمونه.

ولعلّ الحديث عن فكرة الإعجاز القرآني لا تتجلى في نص واحد، ولا في آية واحدة، بل ولا في مجموعة من الآيات إلا إذا كانت في وحدة متكاملة أو سورة كما عبّر عنها القرآن. وفي هذا النص لا يكتفى بالإشارة إلى طباق هنا، أو صورة هناك، أو تقديم هنا، أو تأخير هناك، بل يستجلى المعنى القرآني كله من خلال أدوات التصوير والتعبير والاستشارة كلها، كما أشار إلى ذلك الدكتور مجيد ناجي^(١).

وحسبنا أن دللنا إلى خطوة في الطريق، وإلى استكمال الخطوات فليتنافس المتنافسون.

(١) في مقالة في مجلة الدعوة الإسلامية (المدخل إلى دراسة الإعجاز القرآني)، العدد ١٣، ص ١٤٥.

الفصل التاسع

الدلالة النفسية للصورة القرآنية

تمهيد: الأسلوب الأدبي والنفس الإنسانية:

يختلف التعبير الأدبي عن التعبير العلمي أو المباشر في أوجه كثيرة لعل أبرزها ما يتعلق بالأثر النفسي الذي يحدثه التعبير الأدبي في النفس الإنسانية، فبينما يكون هذا الأثر هو الغاية الأساسية في التعبير الأدبي، يكون الإفهام وتوصيل المعنى هو المقصود من التعبير العلمي أو المباشر.

وتختلف الأساليب الأدبية في قدرتها على إحداث التأثير المرجو في النفس الإنسانية بناءً على الأدوات الفنية التي يستخدمها الأديب، وهي أدوات كثيرة ومتنوعة، وربما كان التصوير أو الخيال عموماً أكثرها قدرة على استجابة المتلقي وانفعاله بالأثر الأدبي. ولقد أكد الفلاسفة وعلماء النفس أن الإنسان لديه استعداد وميل إلى التأثر بالخيال بدرجة ربما تفوق تأثره بالحقيقة أو الواقع. يقول ابن سينا: (إن الكلام المخيل تدعن له النفس فتنبسط عن أمور من غير روية وفكر واختيار. وبالجملّة تنفعل له انفعالاً نفسانياً)^(١). وهو بهذا يشير إلى التعامل العاطفي غير العقلي مع

(١) نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، د. تامر سلوم، دار الحوار، دمشق ط١، ١٩٨٣، ص ١٨٧، والمصادر التي أحال إليها.

الأثر الأدبي أو (الكلام المخيل)، فيستجيبُ له أن يتأثر به (من غير روية وفكر واختيار). كما ذهب الفارابي إلى (أن الإنسان كثيراً ما تتبع أفعاله تخيلاته أكثر مما تتبع ظنه أو علمه)^(١).

وهذا يدلنا على قوة التأثير الأدبي في النفس الإنسانية، لأن الإنسان (لا يقف من المنبهات والإحساسات التي تتضمنها الصورة الشعرية أو الظروف الخارجية موقف اللوح الفوتغرافي من الأشعة التي تؤثر فيه، وإنما هو. كما يقرر علم النفس الحديث - يتناولها بالتأويل، ويفرغ عليها من عنده، ما يحيلها إلى أشياء ذات معنى)^(٢). فهناك إرسال واستقبال، وهناك منبهات ومدرجات تتجاوب معها النفس وتنفعل بها على اختلاف درجات هذا التجاوب والانفعال، ومن المعلوم أن الشيء المدرك غير الشيء المتخيل، وإن كان موضوعهما واحداً، فالشيء المدرك قد تنفعل به النفس وقد لا تنفعل، ولكنها مع الشيء المتخيل تذهب كل مذهب في التصور والتأويل^(٣).

والمتتبع لتطور الأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث في مجال الصورة يجد أنماطاً متعددة من الصور تبعاً لمؤثرات عديدة مرّ بها هذا الأدب، كما يقف عند حالات كثيرة من النجاح الذي

(١) نفسه، ص ١٨٦.

(٢) أصول علم النفس، د. أحمد عزّت راجح، المكتب المصري، القاهرة، ط ١٠، ١٩٧٦، ص ١٧٢، وينظر الأسس النفسية للبلاغة العربية، د. مجيد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٦، ١٩٨٤، ص ١٥٣.

(٣) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د. محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية، بيروت، د. ط، ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م، ص ٧٣.

يرافق الأدباء في إحداث الأثر المرجو في نفوس الناس، كما يجد حالات أخرى من الإخفاق والفشل في إحداث هذا الأثر^(١).

ولا نريد أن نستطرد في الحديث عن الصورة الفنية في الأدب البشري، فهذا له مجاله الخاص، وإنما أردنا أن نمهد بهذا الحديث لطابع التصوير في الأدب الإلهي وصلته بالنفس الإنسانية.

الصورة القرآنية والنفس الإنسانية:

لقد خلق الله سبحانه النفس البشرية وهو عارف بأسرارها وحقائقها وميولها، وهو عارف، كذلك، بالمؤثرات التي تؤثر فيها، وبالمنبهات التي تهزها، فهو عالم بما توسوس به، وهو أقرب إليها من حبل الوريد^(٢). قد يعلم علماء النفس الشيء الكثير عن هذه النفس، وقد نعلم نحن أكثر منهم في أنفسنا، ولكن من قال إنه أحاط علماً كاملاً بما يستثير هذه النفس فيغضبها أو يحزنها أو يسرها؟ ومن قال إنه عرف ثوابتها ومتغيراتها وقوانينها كلها؟ لم يقل أحد بهذا حتى هذا الوقت، ولم يقله أحد في المستقبل مهما طال مداه... والله الخالق الباري المصور هو وحده العالم بأسرار هذا الكائن الذي جبله بيده وصوره فأحسن صورته، ورتب أجزائه واختص بأسراره الروحية والنفسية.

(١) كما حدث مع الشاعر ذي الرمة في مطلع قصيدته التي مدح بها هشام بن عبد الملك، ينظر: التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، ط ٤، د.ت، ص ٨٤، وكتابتنا أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، دار المعرفة، دمشق، ط ١، ١٩٨٧، ص ١٤٥.

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ فَنَسُوهُ وَكُنَّا أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: ١٦]. وينظر كتابنا (الاعجاز القرآني أسلوباً ومضموناً)، دار المرتضى، بيروت، ط ١، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣ م، فصل (القرآن والنفس الإنسانية، ص ١٣٧).

من هذا المنطلق الذي لا نختلف حوله، سيكون التأكيد واضحاً على أن للصورة القرآنية أثرها النفسي البارز، لأنها صيغت لتخاطب النفس، وتوجهها إلى الأهداف التربوية والعمرائية التي ندبها ربها إلى القيام بها في مرحلتها الأرضية المحدودة، مرحلة الاستخلاف التي شرف بها الله هذا الكائن الكريم، الإنسان.

وبسبب من هذا فنحن نهتز للتعبير القرآني وننفعل به، ونستجيب له، لأن فيه هدياً، ولأن فيه موعظة، ولأن فيه خطاباً موجهاً لنفوسنا بطريقته الخاصة التي لا تشبه أساليب البشر من وجوها كافة، ولعلّ أبرز سمات هذه الطريقة هي طريقة التصوير وصلتها بالنفس البشرية معرفة وتوجيهاً وإثارة.

ولا نريد في هذا البحث الموجز أن نحقق في قضايا نفسية على ضوء ما توصل إليه علم النفس الحديث، فنخضع التعبير القرآني والصورة القرآنية لمقولات هذا العلم، لأن كثيراً من هذه المقولات لم يثبت للتحقيق العلمي خاصة ما جاء به (فرويد) في مجال علم النفس التحليلي، وما كان من رفض تلاميذه مثل (أدلر)، و(يونج) لبعض النتائج التي توصل إليها وظن أنها حقائق نهائية^(١).

إن الملحظ الهام الذي نريد أن نشير إليه في الفرق بين دراسة الكلام الإلهي والكلام البشري دراسة نفسية هو أن علم النفس الأدبي كثيراً ما يركز على دراسة نفسية الأديب من حيث كونها سوية أو شاذة، صحيحة أو مريضة، ومن حيث الظروف التي أحاطت بها، والمؤثرات

(١) يُنظر، النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته، د. أحمد كمال زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ١، ١٩٧٢، ص ١٧٣، وما بعدها. وينظر، كذلك، كتابنا (الملاحم العامة لنظرية الأدب الإسلامي)، دار المعرفة، دمشق، ط ١، ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م، ص ١٥٨، وما بعدها.

التي أثرت فيها، وأثر ذلك كله في النص الأدبي وتشكيله. وقد يدرس هذا العلم أثر النص الأدبي في نفسية المتلقي، بينما لا نستطيع نحن في مجال تعاملنا مع النص القرآني - وهو نص تشريعي وأدبي بلا جدال - أن نتحدث عن (نفسية) الخالق سبحانه، إذ لا قدرة لنا في ذلك، ولا ينبغي لنا.

فلا يبقى أمامنا - والحال هذه - إلا التأمل في مكونات النص القرآني وخصائصه، ثم الوقوف عند أثر هذه المكونات البيانية والتعبيرية في النفس الإنسانية باعتبارها المتلقية والمنفصلة، والمقصودة بهذا الخطاب الإلهي الشريف. أي أن المجالات الثلاثة التي يعمل بها النقد النفسي في تعامله مع الأدب البشري هي (المنتج، والنص، والمتلقي)، بينما لا يكون أمام الناقد الذي يريد أن يفيد من الدراسات النفسية في مجال دراسة النص الإلهي غير مجالين هما: (النص والمتلقي). وهكذا كان مجال الدراسات البلاغية العربية القديمة في علوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع، حيث عني علم المعاني بمقتضى الحال وهو أمر يتعلق بالدرجة الأولى بنفسية المتلقي وأحواله واستعداده للتأثر والقبول، وعني علم البيان بوضوح الدلالة، بينما عني علم البديع بوجوه تحسين الكلام وتزيينه. وكلها تدور حول هذين المحورين (النص والمتلقي). وما من شك في أن الجانب النفسي كان منظوراً إليه في كل علم من هذه العلوم، وإن لم يكن بالصورة التي توجه إليها النقد الأدبي في العصر الحديث^(١).

وبشكل عام فإن هناك اتجاهين في الإفادة من نتائج علم النفس في

(١) ينظر كتاب الدكتور مجيد ناجي (الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية)، ومقال الدكتور مازن المبارك (البلاغة وتذوق النص الأدبي) في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، الإمارات العربية المتحدة، ع ١٠٤، ٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

مجال البحث الأدبي، اتجه فيه غلو من جانب إخضاع الأثر الأدبي لهذه النتائج، وكأن هدفه البحث النفسي لذاته، وقد ضل في هذا المجال كثير من النقاد^(١)، واتجاه مقتصد يحاول الانتفاع من إنجازات علم النفس بالحدود التي تفيد في فهم النص ومعرفة آثاره في النفس الإنسانية^(٢).

وسوف نحاول في تأملنا للصورة القرآنية أن نتخذ من نفوسنا ميداناً للتلقي والتجارب. وقد يكون في هذا نوع من (الانطباعية)، ولكنها انطباعية تفيد من اللفظات النفسية الذاتية والموضوعية التي أشارت إليها بعض الدراسات النفسية، مبتعدين عن الدراسات النفسية التي (تحاد) القرآن وتقف في الجهة التي ترفض هديه ومصدره.

نماذج من الصور القرآنية

أولاً: التخويف والترعيب:

سوف نجد حالات نفسية كثيرة عني القرآن بتصويرها وأغلبها قائم على الترعيب والتخويف، والألم والحسرة، والخيبة والحرمان، مما يدعو المتلقي أحياناً إلى حالات من الإشفاق أو التشفي أو التألم، كما يقوم بعضها على الدهشة والمفاجأة والتعجيب، وسوف نشهد أدوات القرآن في أبرز هذه الحالات وتصويرها من مثل التشخيص والتمثيل والقصة، والتكرار، والتفصيل، والمبالغة ولا أظننا قادرين على استيفاء هذه العناصر كلها في هذا البحث، وسوف نكتفي بالقليل منها فقط.

(١) من مثل كتاب (الأسس النفسية للإبداع الأدبي) للدكتور مصطفى سويف، وكتاب (التفسير النفسي للأدب) للدكتور عز الدين إسماعيل.

(٢) التصوير البياني، د. محمد أبو موسى، منشورات جامعة قار يونس. بنغازي، ليبيا، ط١، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م، ص ٨٥.

أ - قال تعالى في تصوير جانب من قصة نوح: ﴿وَقَالَ أَزْكِبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبُهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) وَهُوَ يَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقَرٍّ يَتَّبِقُ أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ [هود: ٤١-٤٢].

هناك صورة جزئية (موج كالجبال) تتحرك في لوحة نفسية واسعة تضطرب فيها العواطف البشرية متمثلة في عاطفة الأبوة الحانية المشفقة على ذلك الولد الذي لا يرعى لهذه العاطفة قيمة، ولا يبادلها الموقف، بل يتمادى في اللعب بها والتهاون بدرجة غليانها. وفي لحظة من لحظات النداء الواله الملهوف من لدن الأب يتحرك الموج العظيم ويتتابع في تحركه كأنما كل موجة منه جبل من الجبال الشامخات التي تحول بين الوالد وولده. فهل هذا الخوف الذي يبعثه الموج المتطاوّل كالجبال من الوالد على ولده أو من الراكبين في السفينة على أنفسهم؟! لقد التبس الأول بالثاني، وزادته رهبتنا نحن وإشفاقنا على ذلك الوالد صاحب القلب الكبير، وربما تبعه تشقينا من الحالة التي سوف يؤول إليها الولد العاق ومن معه من الكافرين^(١).

وللقرآن دلالاته النفسية في اختيار الألفاظ التي تؤلف صوره فهو يختار لفظة (الأعلام) في تشبيه السفن في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤، والشورى: ٣٢]، لأن العلم أو الراية مما يستخدم للزينة والتجميل، (وكان إثارة هذا الخاطر ملحوظاً عند ذكر السفن الجارية فوق البحر، تزين سطحه، وكأنما أريد الإشارة إلى جلالها

(١) ينظر، الأسلوب في الاعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكواز، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٩٧، ص ٣٨٤. والمصادر التي أشار إليها.

وجمالها معاً^(١). بينما أثر لفظة (الجبال) في الحديث عن السفينة والأمواج التي تتلاطمها، للإيحاء إلى أن الموقف موقف رهبة وفخامة وتهويل.

ب - قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وهذا من عجيب التشبيهات القرآنية التي يكون فيها للتأثير النفسي قسطن وافر. وقد التفت علماء البلاغة القدامى إلى عمق هذا التشبيه ولكنهم لم يفضلوا القول في أثره النفس. قال الزمخشري: (يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق، فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاخترفته الطير، فتفرق مزعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة. وإن كان مفروقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشیطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاري المتلفة)^(٢).

وقد صاغ الدكتور محمد أبو موسى هذا التعبير صياغة حديثة وأغناها بتعمقه في الإشارة إلى أن هذا المشرك الذي جانب الفطرة الربانية وأبطل قواه النفسية والروحية التي تعرج به إلى الأفق الأسنى فكأنما سقط من سماء المعرفة الطاهرة الصادقة إلى وهاد الجهالة. فالإنسان حين يفقد

(١) البلاغة القرآنية بين الفن والتاريخ، د. فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط١، ١٩٧٧، ص٣١٠.

(٢) الكشف، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م، ج٢، ص٣٤٨.

معرفته بنفسه، وكونه وعدمه، ومصدر وجوده الذي يتحدد في ضوء معرفة الله، يكون قد اختار الضياع وانتهى إلى السقوط والانحدار الذي ما بعده سقوط ولا انحدار^(١).

ونحن لا نستطيع أن نزيد على ما قاله الزمخشري والدكتور أبو موسى إلا بأن نتمثل أو نتخيل أنفسنا مكان ذلك الرجل المشرك - والعياذ بالله - فأى قلب يقوى لنا على تخيل الصورة أو المشهد. أعتقد أنه سوف يجري لنا ما يجري لشخص ليس لديه قدرة على رؤية جريمة بشعة - وربما يكون طفلاً أو امرأة، لأنهما ممن لا يقدران على رؤية المشاهد المرعبة - إنه سوف يضع كفيه على عينيه ويصرخ هلعاً. وربما سمحنا لأنفسنا أن نتذكر حالة سقطنا فيها من مكان عالٍ، جبل، أو حائط، وكيف انخلعت قلوبنا وانفصلت عن أجسادنا، فكيف بنا ونحن نواجه هذه الصورة التي يقذف فيها إنسان بلحمه ودمه وقلبه وأعصابه من فوق السماوات وعلى أبعاد ملايين أو ملايين الكيلومترات، فلا يكاد يصل منه شيء إلى الأرض البتة، إنه يشبه قطره المطر المفردة التي تتلاشى في الجو قبل أن تصل إلى سطح الأرض، علماً أن المسافة بين السحاب والأرض قصيرة جداً بالقياس إلى ما لا يُعلم مداه من أعالي السماء!!.

إننا قد نتشفى من النار الجهنمية التي يحرق بها المشرك بالله، ولكننا نشعر بشيء من الإشفاق على هذا المخلوق الذي تطوح به الرياح من أعالي السماء، وتهوي به في أماكن دون سطح الأرض، وربما تناوشته الطيور الجارحة وهو لما يسقط بعد في مستقره من الهاوية السحيقة.

إن هذه الصورة تستغرق كل إمكانية للتصور، ويمكن أن تلحق

(١) التصوير البياني، ص ٩٩.

بموضوع من موضوعات (المبالغة) في علم البديع إلا موضوع (الغلو) الذي بخل البيان الإلهي من أن يخوض فيه . وما من شك في أن لهذه المبالغة والإغراق شأناً من شؤون التأثير في النفس ودفعها إلى مزيد من التوسع في التصور^(١).

ومن الملاحظ أن أجزاء هذه الصورة متوفرة في الوجود، وهي (الرجل والسماء والطير والريح)، ولكنها بشكلها التركيبي هذا غير موجودة، إذ إننا لم نر رجلاً سقط من السماء فتقاذفته الرياح أو تخطفته الطير . فهي إذاً من التشبيه الخيالي باصطلاح البلاغيين ولكن ثمة فرق بين هذا التشبيه الخيالي القرآني الذي تذهب معه النفس كل مذهب من الخوف والتصور البعيد، وبين الأمثلة الصناعية التي يضرّبونها من كلام البشر .

انظر إلى هذا النموذج لشاعر يشبه ورد شقائق النعمان، وهي تعلق على أغصانها أو سيقانها الخضراء بأعلام من الياقوت (الأحمر) وهي تنشر على بساط من الزبرجد (الأخضر).

وَكأنَّ مُحَمَّرَ الشَّقِيقِ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدَ

أَعْلَامُ يَاقُوتٍ تُشْرِنُ عَلَى بَسَاطٍ مِنْ زَبَرْجَدٍ^(٢)

(١) إذا جاز لي أن أدخل نفسي مثلاً لمدى تأثير هذه الصورة، فإني أتذكر أنني عشت حُلماً مربعاً موضوعه موضوع هذه الصورة، حيث رमित من الجو وفي اللحظة الأولى استيقظت صارخاً بأعلى ما أملك من صوت . وربما يكون التأثير النفسي لهذه الصورة أكثر ترعياً إذا تخيلنا أن القوة التي تطوح بك في مجالي الجو هي نمط من الجن أو العفاريت، وربما يكون لهذا التصور شيء كامن في الضمير الجمعي البشري في عهود رعبه من هذه الكائنات .

(٢) ينظر، علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص٦٩.

فأية قيمة نفسية وراء هذا التشبيه الخيالي الصناعي غير الدلالة على ذكاء الشاعر وقدرته على صياغة مركب تصويري غير موجود في الواقع، ولكن أجزائه من أعلام الياقوت والبساط والزبرجد موجودة في هذا الواقع؟ أما ما وراء هذا التعبير من تجربة إنسانية أو إحياء نفسي أو شعوري، فلا شيء.

ج - وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (١١) إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا (١٢) [الفرقان: ١١-١٢] ما هذا الحيوان الهائج الغاضب الزافر الذي يتهياً للانقضاض على فريسته وكأنه معها على ميعاد؟! و(من مكان بعيد)، إشارة إلى ضخامة هذا الحيوان، وإلى علو صوته حتى ليكاد يخترق المسافات البعيدة. إنه ليس حيواناً، بالمنظور الطبيعي بل يكاد يكون حيواناً أسطورياً خارقاً. وفي هذا ما فيه من شدة الخوف والرعب. وإذا أضفنا إلى هذا الحيوان المفترس صفته النارية التي تحطم الأضلاع وتذيب الأجساد كان ذلك مدعاة للخوف أكثر.

وإذا توقفنا عند الحديث عن الإشفاق على هذا الكائن من هول ما يرتقبه، أو التشفي منه؛ لأنه يستحق هذا العذاب، فإننا نريد أن نستعير مصطلحاً قديماً أثاره أرسطو في دراسته للمأساة اليونانية ألا وهو (التطهير) (Catharsis)^(١)، ولا نريد أن نحمله كل ما حملته الدراسات القديمة والحديثة. سوى فكرة تطهير نفوسنا من (الفعل) الذي يؤدي إلى الوقوع في مثل هذا المشهد. أليس في هذا المشهد إنذارٌ لنا نحن؟ أفلا تكون استجابتنا إزاءه أن نعمل على تجنب الوقوع في المقدمات التي تؤدي

(١) ينظر في تفصيل الكلام عن نظرية التطهير عند أرسطو كتاب النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، ط ١٩٧٧، ص ٨٠، وما بعدها.

إلى مواجهة هذا الحيوان المفترس أو قل هذه النار التي تلبست بصفة الحيوان؟.

ومن المعلوم أن حديثنا عن مصطلح (الإشفاق والرحمة) مأخوذ من معاني التطهير أيضاً، لأنه تطهير لأنفسنا من (الفعل) عن طريق تجنبه ومن خلال الإشفاق على فاعليه في بعض الأحيان، وربما التشفي منهم في أحيان أخرى.

ويقول البلاغيون إن هذا التخويف جاء عن طريق أداة الاستعارة التي تلبس المشبه بالمشبه به حتى يكونا شيئاً واحداً، وهي أقدر على تحقيق التخيل وأثارة النفسية من التشبيه، إذ فيها ما فيها من إثبات الصفة عن طريق المبالغة^(١). وهكذا ينوع القرآن في أدواته الفنية كلما أراد أنه يحقق غرضاً تأثيرياً في نفس المتلقي.

إن عنصر التخويف عن طريق التشخيص نجده في قوله تعالى في الموضوع نفسه: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ن: ٣٠] وإذا كان سبحانه يرسل بالآيات في الحياة الدنيا ﴿وَمَا تُرِيدُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، فهو يعمد إلى هذا التخويف من أهوال ما يلقاه البشر في يوم الحساب إذ لا تعد عقوبات الدنيا شيئاً بالقياس إلى عقوبات الآخرة. ومن المعلوم أن بعض النفوس المستكبرة المستعلية لا يزيدها التخويف الدنيوي إلا عتواً ونفوراً ﴿وَتَخَوَّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

د - وقال تعالى: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ ٦٢ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ٦٣ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ٦٤ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُئُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ٦٥ [الصفات: ٦٢ - ٦٥].

(١) ينظر، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجيد ناجي، ص ٢٢٠، والمصادر التي أشار إليها.

شجرة الزقوم هذه متناهية في إثارتها للخوف والرعب، لأن أمرها عجيب، فهي تخرج من أسفل النار، ومن قعرها وهو أشد مواضع النار حرارة، فما رأينا شجراً ينبت في النار، والنار تحرقه!! هذا في قوانيننا البشرية وما تواضعت عليه حواسنا، ولكن قوانين الله في اليوم الآخر شيء آخر... ثم إن مصدر الرعب الآخر فيها أن شكل ثمرها وأعالیه من البشاعة والكراهة والشؤم بحيث لا يوجد شيء يشبهه إلا رؤوس الشياطين ومن منا رأى رأس شيطان؟! .

والعرب تشبه كل شيء مكروه، قبيح المنظر بالشيطان، لاعتقادهم - كما يقول الزمخشري - أنه شر محض لا يخلطه خير^(١).

إننا لم نر الجحيم، ولم نر الشجرة التي تنبت في قعرها، ولم نر رؤوس الشياطين كذلك. فنحن في حالة من التخيل والوهم لا حد لها. يقول علم النفس (إن الخوف يتحكم في الإنسان بواسطة الخيال والوهم)^(٢)، وإننا لمأخوذون حقاً بهذا التصوير الذي يقصد من ورائه التأثير في النفس من خلال ترعيبها وتخويفها. فهذه النفس عصية ومتمردة ومغطية للحق (كافرة).

وربها وخالقها وحده هو الذي يعرف سبل ترويضها، بل إنه ليعرف أن من النفوس من تعاند ولا تدعن حتى لتهديد ربها هذا، وترعيبه هذا الذي اختار له هذه الصورة الغريبة.

يقول علماء البلاغة إن هذا النوع من التشبيه مادته غير مدركة بالحواس الخمس الظاهرة، ولكنه لو وجد في الواقع لأدرك بهذه

(١) الكشف، ج ٢، ص ٦٠٣.

(٢) أصول علم النفس وتطبيقاته، د. فاخر عاقل، دار الملايين، بيروت، ط ٧، ١٩٨٩، ص ١٨٤.

الحواس ذاتها، ويسمونه بالتشبيه الوهمي^(١)، ويدرجونه ضمن التشبيه العقلي الذي لا يدرك بالحواس.

وحين نعود إلى طبيعة النفس الإنسانية نجد أنها تقع تحت تأثير الشيء غير المعقول أكثر من تأثرها بالشيء المعقول أو الحسي^(٢)، وهكذا كان حالنا مع الصورة القرآنية السابقة، وهكذا كان شأن النفس عندما تخوف بما لم تره، كما هو الحال حين تخوف الطفل بـ(الغول) أو (السعلاة) أو أي حيوان خرافي أسطوري آخر.

ومن المعلوم أن الباري سبحانه عمد إلى التصوير واستحضار صورة الشيطان المخيفة في أكثر من موضع من القرآن. فحين أراد - سبحانه - أن يبشع صورة المرابي، ويستنكر عملية الربا وجشعها وقبحها، قال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فالمرابي هنا يخطبه الشيطان أي يضربه ويصرعه، فيمس بالجنون فلا يقوى على وقوف أو تفكير، بل يذهب عقله الذي ميّز به إنسانيته. وما من شك في أن لهذا الاستحضار هدفه التنفيري من المراهبة التي لم يشدد الله على شيء في القرآن مثلما شدد عليها إلا حالة الشرك التي لم تصل إليها حالة من البعد عن الله.

هـ - وقال تعالى: ﴿أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ

(١) شرح التلخيص في علوم البلاغة، القزويني، شرحه: محمد هاشم دويدري، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٠٢، ١٩٨٢، ص١٢١.

(٢) سيكولوجية الفقه في القرآن، د. التهامي نقرة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط٢، ١٩٨٧، ص١٦٠.

ذُرِّيَّةٌ مُّعْتَفَاةٌ فَأَصَابَهَا إِمْعَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿البقرة: ٢٦٦﴾.

تتخذ الصورة القرآنية هذه المرة طابع الحكاية القصصية، فيتراءى
لنا فيها البطل (صاحب المزرعة)، والأبطال الثانويون (الذرية)، والحادثة
(الإعصار) والبيئة (المزرعة)، بما في عنصر الحكاية من أدوات فنية...
بداية ونهاية وقصّ ومُفاجأة... كل هذا يمكن تمثله في هذه الآية
المفردة.

إن هذه الكلمات المحدودة لتلخص حالات نفسية تعتري الكائن
الإنساني وتهزه من الأعماق، فهي تصوّر حالتين من مراحل حياته، حالة
غناه وزهوه بتلك الجنة التي لا تحتوي على ثمر واحد بل على أنماط
متعددة ﴿تَخِيلُ وَأَعْنَابٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ
الشَّمَرَاتِ﴾، وتمضي به السنون ليجد نفسه كبيراً عاجزاً بين صبية صغار لا
يقوون على كسب رزقهم. وفوق هذا كله أن مصدر غناه وزهوه القديمين
يصيح به الفناء المفاجيء، وتشب فيه النار من داخله، وكأنها كانت كامنة
في أعماق الجنة التي لم تنم بمباركة من الله، بل كانت أداة فتنة وخاتمة
سوء^(١).

إن ما بين يدي هذا الرجل يضيع ويتلاشى في أشد الأوقات التي
هو في حاجة إليها، ولهذا تتداعى عناصر الندم والخيبة والخسران
المبين، ويتعرض القلب الإنساني. لحالات التمزق والانسحاق
والانشطار^(٢). ونظل نحن (النظارة) نلاحق الحدث السريع والنهاية

(١) ينظر، التصوير البياني، ص ١١٤، وما بعدها.

(٢) الإسلام والفن، د. محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، إيران،
ط ١، ١٤٠٩ هـ، ص ١٤٠.

المؤلمة المفاجأة للبطل، فتعتمل في نفوسنا شتى الانفعالات ونشعر أننا جزء من حركة الحياة والموت التي تلفنا والبطل معاً. فما حدث للبطل قد يحدث لنا إن نحن أخذنا بالمقدمات التي أخذ بها. وهذه المقدمات يُشير إليها نظم الآيات السابقة التي تتحدث عن صنفين من البشر: الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، والذين لا ينفقون، أو ينفقون رثاء ونفاقاً!! وما من شك في أن الحكاية تشير - من طرف - إلى هذا النمط الأخير الذي سينتهي - حتماً - إلى ما مثلته الآية من نهاية خاسرة خائبة مقهورة مقموعة...

قلت إننا نجد أنفسنا أمام شتى العواطف حين نستحضر هذه الصورة في أذهاننا، أو نراها ممثلة على خشبة المسرح أمامنا... فقد نشعر بشعور الإشفاق على هذا الكائن الذي لم يُعدّ للمآل ما أعدّ للبداية، ولم يربط وجوده الآدمي بالربوبية الموجدة. ومن المعلوم أن عاطفة الشفقة التي تحدث عنها أرسطو هي عاطفة الإنسان تجاه الآخرين، بينما عاطفة الخوف هي عاطفة الإنسان تجاه ذاته^(١). وخوفنا نحن هنا من المآل الذي انتهى إليه البطل، إننا نسأل الله تعالى - إن كان فينا ثمة إيمان - أن لا تكون عاقبتنا عاقبة هذا الرجل الخائب الذي خاب تقديره، وضل سعيه، وتهافت الركن الذي ارتكن إليه من دون الله!!.

وربما اكتنفنا شعور من السرور، لأننا نرى «إنساناً» يتعذب دون أن نتعذب معه، مع أننا ربما اتصفنا بنفس الصفات التي اتصف بها من أثره ونسيان وعتو، وقد يمر بنا شيء من العقاب ولكنه لم يصل إلى الدرجة التي وصل إليها (البطل)... ثم إننا سوف نشعر أن همومنا وكوارثنا محدودة إذا قيست بالكوارث والمصائب التي يمر بها الناس الآخرون^(٢).

(١) محاضرات في نظرية الأدب، د. شكري عزيز الماضي، دار البعث، قسطنطينة، الجزائر، ط ١، ١٩٨٤، ص ٣٢.

(٢) نفسه، ص ٣٣.

كل هذه الانفعالات والعواطف تعترينا في هذا المشهد الرهيب، وقد يعترينا غيرها، حسب استعداد قلوبنا للعبرة والاتعاض، وقد يتكاثف الرين على بعض القلوب فلا ترى شيئاً من هذا ولا تحس به، وكأن هذا الرين جعلها غليظة لا تحس بما تتمثله الظنون، حتى ترى ما تراه العيون وتحس به الأجساد!!.

و - وقد ناقشنا هذه الصورة القرآنية في سياق الدلالة النفسية للتضاد في بحث سابق^(١)، حيث وقفنا عند ملحظ ورود التضاد القرآني في سياق التصوير... فقد كان التأكيد كثيراً على عنصر الغنى والثروة والرفاه والسعادة والقوة في بداية الحكاية وبعبارات موجزة جداً توحى بكل هذه الحالات النفسية، كما كان التأكيد كثيراً على عنصر العدم والتلاشي والخسارة والخيبة والألم والحسرة، في نهاية الحكاية، ليظهر من تضاد الألوان والحالات اقتناص الهدف المعنوي والتربوي الذي تسوقنا إليه الآية فتبلغ مداها في استثارتنا وتحريك أعصابنا لنستقر على فهم وأوبة إلى آدميتنا التي لا يعرف لها معنى إلا بربط مسارها في البداية والنهاية بمن صورها فأحسن صورها، وبمن زرعها في الأرض، وسوف ينقل ثمارها - على شتى ألونها - إلى المستودع الأخير!!.

وتتسع الحكاية التي شهدناها في آية واحدة إلى قصة كاملة توظف للهدف نفسه، كما هو الحال في قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، وقصة أصحاب الجنة في سورة القلم، حيث السياق واحد؛ غنى وترف وغرور ثم عدم وامحاق وخُسران وندم وخيبة^(٢). وحين

(١) ينظر، فصل (الطباق البياني)، ص ١٨٠.

(٢) ينظر: كتابنا الاعجاز القرآني أسلوباً ومضموناً، ص ١٩٩، وستجد تحليلاً لقصة أصحاب الجنة في سورة القلم.

نتملى مشاهد القصتين تضطرم فينا المشاعر والأحاسيس المختلفة بدرجة أوسع مما أحسنا به في الآية السابقة.

وصورة الفرح الغامر والنهاية البئيسة نجدها في أكثر من موضع في القرآن، فهي توظف أساساً لجذب انتباهنا وشدنا إلى الهدف العقائدي أو التربوي المطلوب.

نجد هذا في صورة ذلك الظمان الذي يتخايل له السراب ماء وهو في أشد الحاجة واللهفة إليه، فيشعر بالفرح ويحث الخطى يحدوه الأمل، ويذهب به خيال اللذة الحسية في الرّي والشبع من الماء البارد الزلال، حتى إذا ما وصل غاية خيالاته، وغاية جهده، وها هو يصل منتهى رغبته... وجده سراباً حقاً، ووجده (لا شيء)، سوى خداع بالبصر، فكانت خيبته أعظم، وحسرتة أفجع. تلك هي صورة أعمال الكافرين التي أراد - سبحانه - أن يقول لنا إنها لا تنتهي بأحسن مما أنتهت إليه لهفة هذا الظمان الخائب!!.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]. وأعتقد أن دعوتنا إلى التأثر بهذا المشهد منظور إليها في هذا الخطاب الإلهي غير المباشر لأننا نحن المستهدفين في النهاية.

كما نجد هذا التباين بين البداية والنهاية، البداية الطامعة والرفيعة والآنسة، وبين النهاية الحاسرة والبائسة والحزينة، في نماذج أخرى مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٧﴾ ثُمَّ بُكِّمَ عَنْهُمْ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ١٧-١٨].

هذا هو (حال من جد في طلب النار ليتبين بها موضع قدمه، فلما حصل عليها انطفأت، وبقي كما كان قبلها في ظلمته وضلالته. المنافق

وما في دواخله من قلق وحيرة واضطراب صار مرئياً في هذه الصورة، صورة هذا الكائن في ليلٍ بهيم شديد الظلمة لا يدري ما يحيط به، ولا يأمن أن يكون قد كمنت حوله أهوال ماحقة، أو أن يضع يده في مهواة الضياع، ثم اجتهد في أن يحصل على ما يضيء له ما حوله، فلما أضاءت، وأذهبت بعض مخاوفه، واستشعر شيئاً من الأمان ذهب النار، وعاد إلى حالته الأولى من الحيرة والضلال^(١).

أرأيت إلى عنصر الخوف والقلق والترقب ثم الغبطة والفرح، ثم الخوف والحيرة ثانية، ونحن ننظر بأمهات أعيننا شامتين هذه المرة بهذا الكائن الذي يعبد الله على حرف، أو لا يعبد أساساً إلا رثاء ومنفعة.

ونحن نأظرون إلى هذا التناقض بين أول المشهد ونهايته في صورة أولئك الذين ركبوا السفينة، وجرت بهم في ريح هائثة طيبة، وفرحوا برحلتهم وأملوا وصولهم أو أوبتهم إلى أهليهم وبلغ بهم الاطمئنان والأمان مبلغه المتناهي في نفوسهم، هبت عليهم ريح عاصف ودمرتهم ودمرت ما في مخيلاتهم من آمال وما في نفوسهم من أفراح معاً. وكان طبيعياً أن يعقب كل حالة مثل هذه ندم وإعلان توبة ورجاء وقد يكون ندماً حقيقياً وتوبة صادقة، وقد لا يكون، ولا تكون على اختلاف استعدادات النفوس وتلقيها للإنذار. وهذا هو المشهد بلفظه القرآني الأخاذ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفَاكِ وَجَرَيْنَ بِجِمْ يَرْيَحُ طَبَقَ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢].

وتلاحظ معي أن عنصري الخوف والأمل كائنان في هذه النماذج الثلاثة، على تفاوت في قوة أو درجة أحدهما في هذا النموذج أو ذاك،

(١) التصوير البياني، ص ٩٣.

ولكن الحالة المشتركة بين هذه النماذج هي عنصر المفاجأة التي تدهم الفرع أو الخائف، فتد فرحه خيبة وخسراناً. وهو ما حدث للأمل من السراب ماءً، وللمستوقد ناراً فإذا هي ذاهبة وهو عائد إلى ظلمته، وللجماعة الذين ركبوا سفينتهم مطمئنين وانتهوا إلى خوف ورعب كاملين...

وترانا إزاء هذه المشاهد مثل أولئك المصوّرين، نفرح ونحزن، نقلق ونطمئن، ونخاف ونرجو، ونشمت ونشفق. وهدف القرآن في هذا كله لا يقف عند بيان الحق في هذه المشاهد بل يريد أن يعمق مجراه في نفوسنا كذلك، وذلك حين يرسم لنا مشاهد من الصراع النفسي، أو مشاهد من حيوات بعض الناس الذين يهربون من الحق أو يحاربونه، أو ينافقون في التعامل معه.

ولا شك في أن الصورة القرآنية بدلالاتها النفسية توقظ فينا الانفعال، كما توقظ فينا قوة الإرادة، وتهيئنا للانتفاع مما نرى ونشاهد، وينتهي الأمر بنا معها إلى تهذيب أخلاقنا واستواء سلوكنا. وهو أمر قد يتوفر مع كل أدب إنساني رفيع^(١)، فما بالك بالأدب الإلهي المربي الموجه.

ثانياً: الإبهاج والتعجيب:

لقد استبد بنا الحديث عن التخويف والترعيب للنفس الإنسانية في الصورة القرآنية ضمن أهداف تربوية تقصد إلى ترويض هذه النفس العصبية التي لا تلتفت إلى مآلها ونهايتها، ولا تعتبر بآيات ربها وبارئها. وهذا لا يعني أن الصورة القرآنية وقف على مثل هذا الهدف. فهناك صور أخرى

(١) ينظر، أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٩، ١٩٩٢، ص ٢٥.

فيها إغراء وفيها إيهاج وفيها وعد جميل . ومنها هذه الآية التي تصف الجنة وما فيها من أنهار من لبن وأنهار من عسل ، وأنهار من خمر ، بل فيها من كل الثمرات ، وفيها فوق هذا كل مغفرة ورضوان من الله . وهو شيء عظيم عند النفوس المخبئة لبارئها ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥] .

أية بهجة آسرة يلقاها هذا الحشد الجميل الغامر من العطاء ، فهو أنهار وليس نهراً ، وأنهار من أشياء عزيزة حلوة : ماء ولبن وخمر وعسل وثمرات أخرى شهية حلوة . . . إن حواس الذوق لدى الإنسان لتتحرك وهي تستحضر مشهد هذه اللذائذ مجتمعة في مكان . ولا أظن النفوس الراغبة في هذه (الغروس) إلا أن تكون مستعدة إلى دفع الثمن الغالي ؛ الإيمان والطاعة والبذل بكل أنواعه من المال والكلمة والجهد . . . فمثلما كان العطاء منوعاً : يجب أن يكون البذل منوعاً كذلك .

ومثل هذا الإيهاج نجده في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] .

إن إلقاء الضوء على هذا الجانب من الصورة ، جانب الشجرة الطيبة العظيمة التي تتناول أغصانها إلى عنان السماء وهي ثمرة على الدوام ، وهي تقف قوية تضرب بجذورها في أعماق الأرض ، تهزأ بكل عاصفة أو عدوان ، على خلاف شجرة الشر التي قد تبدو بهيجة ولكنها دونما جذور ، وستذهب أدراج أي ريح عاصف !!

مثل هذا الضوء يعود على الكلمة الطيبة التي تبني وتُنشئ الخير ، وتعبّد النفوس لربها ، وتعلّم وتعمّر حضارة على الأرض ونفوسنا يدخلها الإغراء للبحث عن المناسبة والجو الذي نقول فيه مثل هذه الكلمة ؛ لأن التعبير القرآني صاغ هذا الوصف من خلال التصوير والتمثيل ، (فإن من

التمثيل البياني في القرآن ما يقرب الحقائق إلى الأذهان، ويضفي عليها لوناً من البيان، فيجلبها. وما ابتدع التمثيل لرسم الأشكال والألوان فقط، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس^(١).

إن هذا الإبهاج النفسي يتخذ من الطبيعة وعناصرها ومشاهدها وألوانها وسيلة للتأثير في النفس الإنسانية، حتى ليكاد أن يكون أطراداً في التصوير القرآني، حيث توظف مظاهر الكون الحسية من شجر وجبال وأنهار وبحار لتصوير أحوال النفس ومنازعها من قوة وضعف، وبقاء وزوال، وظهور وخفاء، وصدق وزيف، وربما أصبحت هذه المظاهر الطبيعية معادلات لأفكار أو حالات نفسية، أو قل رموزاً لها.

ألم يكن من بين مقاصد القرآن إدخال السرور على نفوس الفئة الصالحة من البشر من خلال الوعد الصادق بالعطاء الغامر، بل إن الآيات القرآنية تصور مشاهد مبهجة عامة غير خاصة بالمؤمنين. فقله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]. تعبير عن حقيقة عامة في النفس الإنسانية، وهي تستقبل مشهد الإبل أو الماشية وهي تسرح أو تعود في المساء ممثلة وفي أسراب راضية، وهذا يبدو أكمل فرحاً في نفوس المالكين لهذه الثروة الجميلة.

ثالثاً: التكريه والتنفير:

وبعد هذه الوقفة مع عنصر الإبهاج في الصورة القرآنية وأثره في المشاعر البشرية، نلتمح إلى عنصر آخر قريب المساس بهذه المشاعر، ألا وهو عنصر التنفير من بعض النماذج الإنسانية أو تقييحها من خلال قرنها بعناصر ذات شأن حقير من مثل الكلب والحمار والخنزير والذباب

(١) سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٢٤٦.

والعنكبوت والبعوض أو الشيطان ذي الصورة المكروهة في النفس البشرية .

فحين يتحدث القرآن الكريم عن (بلعم بن باعوراء) أحد علماء بني إسرائيل الذي آتاه الله علم بعض كتبه فانسلخ منها، وكفر بها، ولزم حالة الضلال بعد ذلك، ولم ينفع معه وعظ، وكان يمكن تشبيه حاله بحال شيء آخر ثابت لا يتغير عن وضعه، وما أكثر الأشياء التي تلازم حالة واحدة في الطبيعة الجامدة والمتحركة، ولكن حالته شبهت بالكلب، فقال تعالى: ﴿فَمَثَلُ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

أي (إن وعظته، فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، كالكلب إن طردته فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث)^(١)؛ لأنه أراد الإشارة إلى صفة الخسة والضعة فقرنه بالكلب في أخس أحواله وأذلها. وهذا الاقتران تسرع الأنفس في الاستجابة إلى هدفيتها، فنحن نرتاح للأشياء التي تقرن أو تجاور الأشياء المحببة إلى نفوسنا، ونفتر من الأشياء التي تقرن بما نكره^(٢). وقد أشار علم النفس إلى هذه الحالة، وتحدث عن الإيحاء وتداعي المعاني إذا ذكرت بعض الأسماء أو الأشياء التي لها دلالات خاصة في النفوس، وربما ارتبط هذا بنظرية الانعكاس الشرطي التي أشار إليها العالم الروسي (بافلوف)^(٣)، وسوف نشير إلى هذا في مفردة تالية من البحث.

وقل مثل هذا في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ

(١) الكشف، ج ١، ص ٥٨٨.

(٢) ينظر بحثنا الموسوم بـ(إيحاء السياق في القرآن الكريم) المنشور بمجلة جامعة سبها، العدد الأول، ١٩٩٤، ص ٩.

(٣) ينظر، أصول علم النفس، د. أحمد عزت راجح.

يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا يَقْسِ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ ﴿[الجمعة: ٥]﴾.

إن مجرد ذكر (الحمار) يجعل معاني البلادة وبطء الفهم والذلة
تتداعى إلى الذهن بسرعة، وإلى هذا المعنى أشار الشاعر العربي القديم:
لا يستنيمُ إلى ضميمٍ يُرَادُ به إلا الأذلانِ عِزُّ الحيِّ والوتدُ
وعير الحي، هو الحمار، والوتد مثله لا يرد بشيء على من يضرب
على رأسه بالحجر حتى يُدخله الأرض. وبنو إسرائيل هؤلاء لا ينتفعون،
بالكتب السماوية التي أرسلت إلى هدايتهم مثلهم مثل الحمار الذي لو
حمل كل أسفار العلم النافعة على ظهره فإنه غير مهياً للارتفاع بها. هذه
سجّية فيه، وهي سجّية بني إسرائيل كذلك!!.

وقد صار هذا (بش مثل)، لأنه اقترن بالحمار البليد الذليل. والذلة
صفة أخرى لبني إسرائيل الذي قال عنهم القرآن ﴿وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ
النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

هكذا (حياة) بالتنكير، أي حياة سواء كانت عزيزة أو ذليلة والمهم
أن يعيش!!

وهؤلاء القوم هم الذين قال عنهم القرآن كذلك ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ
وَعَصِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]. هؤلاء
الذين قرنوا بالكلاب والحمير والقردة والخنازير، وهي ما هي في الدلالة
على الخسة والبلادة والحقارة والنجاسة، ولعظة ما يستذلون أمة من
الإسلام كاملة، وليس بعيداً أن تكون هذه العظة أن هذه الأمة قد قدّمت
استقلالها من الريادة الحضارية، فحق لها أن تُستذل من أذل أمة، قرنوا
ربها بالكلاب والحمير والقردة والخنازير. . بكل ما لهذه الأسماء من
إيحاءات واقترانات في النفس الإنسانية.

وقد مرّ علينا في الصفحات السابقة من البحث الإشارة إلى الشيطان ودلالته النفسية، ونريد أن نذكر به هنا ليكون في سياقه الخاص حيث يكون له وظيفته التنفيرية، فقد نقرّ القرآن بذكره من شجرة الزقوم التي تطلع في أسفل الجحيم، كما نقرّ بذكره حين جعل المرابي وكأنه يصاب بمس من الجنون الذي تفعله الجن والشياطين بصرعها، كما قرنه بذلك الضال الذي استهوته الشياطين تبعده عن أصحاب الخير والصلاح، وها هو يقرنه بيلمع بن باعوراء الذي (أتبعه الشيطان فكان من الغاوين)^(١).

وكما أن الله سبحانه يضرب الأمثال للأمور العظيمة بما يناسبها من العظمة والجلال، فهو يضرب الأمثال للأمور الحقيرة بما يناسبها من الحقارة. فها هو - جل شأنه - جعل الذباب والعناكب والبعوض مثلاً للآلهة الضعيفة الواهنة الحقيرة التي لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، أو تحميها، أو تستنقذ ما يؤخذ منها^(٢).

وما من شك في أن العلاقة بين هذه المشبهات والأمثال علاقة نفسية تستجيب لها النفس فتميل إلى التأثر والتصديق، وتمنح المشبه ما اتصف به المشبه به، وهو المطلوب من سياق المثل أو المشبه به^(٣). ومن المعلوم أن علماء البلاغة تحدثوا عن أغراض التشبيه، وكان واحداً من هذه الأغراض هو: التقبيح. ولهذا الغرض أصوله النفسية دون خلاف. وكانت الأمثال القرآنية في هذا المجال قد أصابت هدفها، وبلغت ذروتها في التأثير واستجاشة الإحساس الإنساني. ولقد قيل بأن (في ضرب الأمثال [تبكيثاً] للخصم الشديد الخصومة، و[قمعاً] لسورة

(١) تراجع الآيات، الصفات: ٢٦، البقرة: ٢٧٥، الأنعام: ٧١، الأعراف: ١٧٦.

(٢) تراجع الآيات: الحج: ٣٧، العنكبوت: ٤١، البقرة: ٢٦.

(٣) المعاني الثانية، د. فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط١،

١٩٩١، ص ٤٢٨.

الجامح الأبى فإنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه، ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه من الأمثال^(١).

رابعاً: النمطية والتكرار:

المواضع التي أشرنا إليها من الصور القرآنية بدلالاتها النفسية التي وقفنا عندها تتكرر في أكثر من نموذج، ولكننا اكتفينا بالإشارة إلى جزء منها لضيق مساحة البحث. فهل هناك من دلالات نفسية لهذا التكرار؟.

الحق أن التكرار بشكل عام يؤدي به لتحقيق أهداف نفسية في الأساس، وهذا ما نجد أمثلة منه كثيرة في الأدب الإنساني، علماً بأن القرآن لا يكرر الصورة بالألفاظ ذاتها، وإنما يجري عليها تحويلات من التقديم والتأخير والحذف والإضافة، ويضعها في كل مرة في سياق مغاير للسياق الآخر. وهذا مبحث طريف يُعنى بالأسباب المعنوية أو النفسية (فيما يتعلق بالمتلقي طبعاً)، التي جعلت التعبير أو التصوير يتغير من موضع إلى الآخر، وقد عني به علماء قدامى كثار^(٢).

ولنضرب مثلاً لهذا التكرار في التصوير ودلالته النفسية بهذه النماذج القرآنية الثلاثة:

١ - ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَدُّ مُمْصَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَنَعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

(١) الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسين الصغير، دار الهادي، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص ٣٨٨، والكشاف ج ١، ص ٢٠٣.

(٢) من مثل الخطيب الإسكافي في (درة التزئل وغرة التأويل)، والنيسابوري في (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) وأحمد بن إبراهيم الغرناطي في (ملاك التأويل) وغيرهم.

٢ - ﴿لَمَّا مَثَلَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا كَمَا أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰ أَثْنِهَا أُنْزِلْنَا لِيلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقَفْ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

٣ - ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

بدءاً فإن هذه الصور ليست متشابهة تماماً في ألفاظها، وفيها تفصيل في جانب وإيجاز في جانب آخر، فلا يمكن أن يكون المعنى أو المضمون واحداً، كما لا يمكن أن تكون الدلالة النفسية للصور جميعها واحدة، خاصة إذا عرفنا الحقيقة الدلالية للألفاظ، ووقفنا عند فكرة (زيادة المبنى تؤدي إلى زيارة المعنى)، واختلاف التعبير يومئذ إلى معنى جديد ويحقق هدفاً نفسياً جديداً.

والمأمل في هذه الآيات والسياقات التي جاءت فيها يلاحظ أن الآية الأولى جاءت بعد الحديث عن النعيم الذي يرغد فيه الشهداء في الجنة، فكان التفصيل فيها عن نعم الدنيا للمقارنة بين هذه النعم الزائلة، وتلك النعم الدائمة، وشتان بين النعمتين!!.

أما الآية الثانية فجاءت بعد قصة قصيرة، أو حكاية لها بداية ونهاية تمثلها آية واحدة - وذلك من روائع الإيجاز في القرآن - لتقارن بين النهاية التي انتهى إليها الذين فرحوا بركوب سفينتهم وبالريح الطيبة الهادئة التي ساقطتهم، وهي نهاية واحدة حيث الفقد والعدم والخسران.

وجاءت الآية الثالثة بعد قصة صاحب الجنتين الذي كان في غاية غروره وجحوده واستعلائه على صاحبه الفقير، لتشير إلى سرعة زوال النعمة مع الجحود والكفران. وقد اختصرت الآية - بشكل عجيب - هذه الحياة الطويلة العريضة بكل مراحلها ومظاهرها بما يقرب من سطر

واحد... نبات ينمو، ثم يصبح هشيمًا تذروه الرياح!! هكذا وبدون تفصيل لأي من مباحج الحياة التي تحدثت عنها الآيتان السابقتان، فكان إيجازاً، لمشهد جدّ موجز!!

وكانت هذه الصور الثلاث في صياغتها، منظوراً إليها من حيث قدرتها على إثارة المشاعر، والإلفات إلى مواضع الاعتبار. وهو هدف ملازم للصورة القرآنية كما لاحظنا. ولا حاجة إلى الإشارة إلى أن الأدب البشري القاصر قد يصيب أحياناً في تحقيق الهدف النفسي، وقد لا يصيب، وربما ارتدّ مخففاً في بعض الأحيان. ولسنا معنيين في هذا الموضوع أن نمثل لهذه النماذج البشرية المخففة في تحقيق الدلالة النفسية المطلوبة.

وبغض النظر عن الاختلاف في صيغ التعبير في تحقيق دلالات معنوية ونفسية خاصة، يمكن التساؤل عن سر هذا التكرار لفكرة حب الحياة لدى البشر، أو فكرة بهارجها وسرعة زوال هذه البهارج. ولا أعتقد أننا نذهب بعيداً إذا قلنا إن حب الحياة فطرة راسخة في النفس الإنسانية، ولعله أساس المصائب والانحرافات التي يشتط بها البشر في كثير من الأحيان. والنماذج البشرية التي تبلغ العلو والطغيان كثيرة مصورة في القرآن مثل النمرود وفرعون وقارون، ويلمع بن باعوراء!! وغيرهم... وقد أراد القرآن - والله أعلم بمراده - أن يلقي الضوء على هذه النسبة العالية التي يعطيها الإنسان من الاهتمام بالحياة والخلود إليها، والالتصاق بأرضها وبكل ما يتعلق بها من ماديّات، لإلفاته إلى هذا الخلل في التوجه، وإلى هذه (القسمة الضيضية) في الموازنة بين الدنيا والآخرة، في حين أن منطق الاهتمام القرآني هو العكس، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصاص: ٧٧].

حيث جعل بؤرة الاهتمام هي الآخرة، ومسّ الدنيا مساً خفيفاً ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾!!.

إن هذا التكرار هدفه أن يولد لدينا تياراً فكرياً عاطفياً إزاء ما بعد هذه الحياة، ويشحن قلوبنا بحب الآخرة، ويقلل (شغفنا) بالدنيا على حساب الآخرة الخالدة. يقول علماء النفس (إنه متى كثر تكرار أمر تولد تيار فكري عاطفي يتلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد والجماعات، وهو العدوى، إذ لا يكفي لتحويل الانفعال إلى عاطفة أن يحدث مرة واحدة، ولكن لا بد لحصول ذلك أن يتكرر حدوثه)^(١).

ومن المعلوم أن العمليات العقلية والمشاعر الإنسانية إزاء الأشياء والأفكار تتم عبر مراحل من الانتباه الذي هو تركيز الشعور في شيء، ثم الإدراك الذي هو معرفة ذلك الشيء، ثم الانفعال بالشيء، ثم تكوين عاطفة ثابتة نحو ذلك الشيء، فالانفعال حالة تتكرر لتكون العاطفة التي هي مركب من عدة انفعالات تدور حول موضوع واحد. ولهذا يكون الحب والكره من العواطف التي ترسخت من خلال انفعالات متكررة نحو شيء أو فكرة أو شخص من الأشخاص^(٢).

وقد مرّ علينا أن التكرار في التعامل مع الأشياء أو الأفكار أو الأشخاص أو الألوان أو الأطعمة يولد ما سماه علماء النفس بـ(الانعكاس الشرطي)، إذ كلما تتكرر الإشارة إلى ذلك (المنبه) يتداعى كل ما يتعلق به من صفات في النفس، ويتم استحضار هذه الصفات والتعامل معها بما يسمى بحالة الاستجابة للمنبه^(٣).

(١) سيكولوجية الفقه في القرآن، د. التهامي نقرة، ص ١١٦.

(٢) أصول علم النفس، د. أحمد عزت راجح، ص ١٤٦.

(٣) كنت كلما انظر إلى حقل تفتتح فيه شقائق النعمان الحمراء في الحقول الجزائرية، وتغطي سائر الألوان من النباتات، أستحضر الصورة القرآنية عن مراحل الحياة، وسرعة زوال هذه الألوان كلها، لتصبح صفراء، أو هشيماً تذروه الرياح!! إن ذلك المشهد يلخص لي حياتي كلها في نظرة واحدة!!

خامساً: خلاصة في الطوابع العامة:

والملاحظ أن الصورة القرآنية من حيث قدرتها على التأثير النفسي إنها حسية الطابع، أي أنها تقرّب المعنويات من خلال المظاهر المادية في الوجود. فإذا كان هناك أنواع من التشبيه - وهو أحد وسائل التصوير - من مثل تشبيه المادي بالمادي، أو المعنوي بالمعنوي، أو المادي بالمعنوي، أو المعنوي بالمادي فإنّ هذا النوع الأخير، هو النوع الأثير والمفضل في التصوير القرآني^(١).

وفي هذا الطابع ما فيه من تأثير نفسي لأنّ (أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردّها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم...) كما قال عبد القاهر الجرجاني^(٢).

ثم إن النمط الغالب من هذه المحسوسات التي يقرب بها القرآن معانيه هو حاسة البصر، لأنّ للمشاهدة أثرها في تحريك النفس على المعنى من القلب، ولقد قيل (إن عقولنا تعتمد على الرؤية كثيراً، لأن انطباعات النظر تثبت، فنحن نستطيع في معظم الأحيان أن نتذكر وجه الشخص عند عجزنا عن تذكر اسمه. إن الاعصاب التي توصل بين العين

(١) ينظر لإيضاح هذا المصادر التالية:

١ - البلاغة بين الفن والتاريخ، د. فتحي أحمد عامر، ص ٩٠.

٢ - علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، ص ٧٠.

٣ - الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكوازي، ص ٣٩٦. وكلها تشير إلى ما لاحظته العلماء القدامى من مثل علي بن عيسى الرماني، وعبد القاهر الجرجاني، وضياء الدين بن الأثير.

(٢) أسرار البلاغة، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، د. ط، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧، القاهرة، ص ١١٥.

والمخ أكبر من تلك التي توصل بين الأذن والمخ^(١). وواضح في حياتنا التعليمية أننا نعتمد على الوسائل البصرية أكثر من اعتمادنا على سواها، لما في ذلك من صلة من تعلق النفس بما ترى، وبسرعة انطباع الصورة التي ترى في الذهن، ودوام رسوخها فيه.

وإذا كان ثمة منطق واستدلال وطابع من العقل في الصورة القرآنية، فإنه منطق يمكن أن نصفه بالمنطق الوجداني، أي أنه منطق قريب من النفس، وليس شبيهاً بذلك المنطق الفلسفي الجاف، وفي هذا سر خلود الصورة القرآنية وقوة تأثيرها. تجد هذا في الصور التي مثلنا لها أو في غيرها من الصور المبثوثة في القرآن.

ثم إن في هذه الصور تدهيش وتعجيب وغرابة في بعض الأحيان، ولكنها غرابة تقترب من المنطق الوجداني الذي أشرنا إليه. ومن المعلوم أن الأجواء التي يخلقها هذا التعجيب ذات تأثير واستجاشة قوية للنفس الإنسانية.

وأخيراً يمكن القول بأن الأدوات التصويرية التي يوظفها القرآن في تبليغ معانيه لا تخلو جميعها من دلالة نفسية تعمل عملها في الكيان الإنساني وتهزه من الأعماق وتؤثر في سلوكه وخلقه. فالتشبيه والتمثيل والتشخيص والكناية والمجاز عموماً، تتحقق فيها هذه الدلالة لأنها صيغت من أجل أن تبلغ هدفها. كما أن المبالغة في الصورة، أو الإيجاز فيها، أو التفصيل والاستطراد أو التفريع والتوليد في بعض الصور، جاء لتحقيق أغراض ودلالات نفسية معنية كذلك.

(١) سيكولوجية القصة في القرآن، التهامي نقرة، ص ٦٤.

المصادر والمراجع

- ١ - الاتقان في علوم القرآن، السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ط، ١٩٧٣.
- ٢ - أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، د. شلتاغ عبود شراد، دار المعرفة، دمشق، ط١، ١٩٨٧.
- ٣ - أساس البلاغة، الزمخشري، دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
- ٤ - الإسلام والفن، د. محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، ط١، ١٩٠٩هـ.
- ٥ - الأسس النفسية للبلاغة العربية، د. مجيد ناجي، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ١٩٨٤.
- ٦ - أسرار التكرار في القرآن، الكرمانلي، دار بوسلامة، تونس، ط١، ١٩٨٣.
- ٧ - أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، د.ط، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.
- ٨ - أساليب التوكيد في القرآن الكريم، عبد الرحمن المطردي، الدار الجماهيرية، طرابلس، ط١، ١٩٨٦.
- ٩ - الأسلوب في الاعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكواز، منشورات الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط١، ١٩٩٧.
- ١٠ - أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٩، ١٩٩٢.
- ١١ - أصول علم النفس وتطبيقاته، د. فاخر عاقل، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٩.

- ١٢ - أصول علم النفس، د. أحمد عزّت راجح، المكتب المصري، القاهرة، ط١٠، ١٩٧٦.
- ١٣ - الايضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.
- ١٤ - أطّرادات أسلوية في الخطاب القرآني، محمد إقبال عروي، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٥م.
- ١٥ - إعجاز القرآن، الباقلاني، دار المعارف بمصر، تحقيق السيد أحمد صقر، ط٤، ١٩٥٧.
- ١٦ - الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلافي، مؤسسات عبد الكريم بن سلامة، تونس، ط١، ١٩٨٠.
- ١٧ - الإعجاز القرآني أسلوباً ومضموناً، د. شلتاغ عبود شراد، دار المرتضى، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
- ١٨ - البديع، المصطلح والقيمة، د. عبد الواحد علام، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١، ١٩٨٩.
- ١٩ - البرهان في علوم القرآن، الزركشي، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- ٢٠ - البلاغة القرآنية بين الفن والتاريخ، د. فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط١، ١٩٧٧.
- ٢١ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د. محمد حسنين أبو موسى، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، د.ت.
- ٢٢ - بلاغة العطف في القرآن الكريم، د. عفت الشرقاوي. دار النهضة العربية بيروت، ط١، ١٩٨١.
- ٢٣ - البلاغة العربية، قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٧.

- ٢٤ - البلاغة العربية، البيان والبدیع، د. طالب الزویعی، ود. ناصر حلاوي، دار النهضة العربية، بیروت، ط ١، ١٩٩٦.
- ٢٥ - بیان والتیین، الجاحظ، تحقیق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٨.
- ٢٦ - التصوير البياني، د. محمد حسنین أبو موسى، منشورات جامعة قار یونس، بنغازي، ط ١، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
- ٢٧ - التطبيق النحوي، د. عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بیروت، ط ١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
- ٢٨ - التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، دار الشروق، بیروت، ط ٢، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م.
- ٢٩ - التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، منشورات جامعة بغداد، العراق، ط ١، ١٩٨٦.
- ٣٠ - التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأعلام، عبد الرحمن السهيلي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط ١، ١٩٩٢.
- ٣١ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بیروت، ط ٢، د.ت.
- ٣٢ - تفسير البيان، أبو القاسم الخوئي، دار الزهراء، بیروت، ط ٢، ١٩٧٥.
- ٣٣ - التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء)، دار المعارف، القاهرة، ط ٥، ١٩٧٧.
- ٣٤ - التفسير النفسي للأدب، د. عزالدين إسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، ط ٤، د.ت.
- ٣٥ - الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، محمود صافي، دار الرشيد، دمشق، ط ١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

- ٣٦ - حديث الأحاديث، د.علي فهمي خشيم، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ط١، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
- ٣٧ - حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه، د.محمود سعد، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط١، ١٩٨٨.
- ٣٨ - دراسات في البلاغة العربية، د. عبد العاطي علام، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط١، ١٩٩٧.
- ٣٩ - دراسات في فقه اللغة، د.صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٨، ١٩٨٠.
- ٤٠ - درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الاسكافي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٩٧٩.
- ٤١ - دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني، شرح وتعليق د.محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، القاهرة، د.ط، ١٩٨٣.
- ٤٢ - دلالات التراكيب، د.محمد حسنين أبو موسى، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط١، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
- ٤٣ - سيكولوجية القصة في القرآن، د.التهامي نقرة، الشركة التونسية، تونس، ط٢، ١٩٨٧.
- ٤٤ - شرح التلخيص في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٠م.
- ٤٥ - الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد علي البجاوي، ود.محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٨م.
- ٤٦ - الصورة الفنية في المثل القرآني، د.محمد حسين الصغير، دار الهادي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
- ٤٧ - ظاهرة الترادف في ضوء التفسير البياني للقرآن الكريم، د.طالب الزوبعي، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط١، ١٩٩٥.

- ٤٨ - الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٧، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
- ٤٩ - في الاسلوب الأدبي، د.علي أبو ملح، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٩٥.
- ٥٠ - قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط١١، ١٩٦٣م.
- ٥١ - الكشف، للزمخشري، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م.
- ٥٢ - العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ناصيف اليازجي، دار بيروت، د.ط، د.ت.
- ٥٣ - علم البديع، د.عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
- ٥٤ - علم المعاني، د.عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
- ٥٥ - علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين، د.طالب الزوبعي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط١، ١٩٧٧.
- ٥٦ - علوم البلاغة العربية، د.محمد ربيع، دار الفكر، عمان، الأردن، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.
- ٥٧ - العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
- ٥٨ - غرائب القرآن، ورغائب الفرقان، النيسابوري، على هامش تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
- ٥٩ - متشابه القرآن، الكسائي، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط١، ١٤٠٢هـ، ١٩٩٤م، تحقيق د.صبيح التميمي.

- ٦٠ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، نهضة مصر، القاهرة، د.ط، د.ت، تحقيق أحمد الحوفي، ود.بدوي طبانة.
- ٦١ - مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، د.ت.
- ٦٢ - محاضرات في نظرية الأدب، د.شكري عزيز الماضي، دار البعث، قسطنطينة، الجزائر، ط١، ١٩٨٤.
- ٦٣ - معاني الأبنية في العربية، د.فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد، ط١، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- ٦٤ - المعاني الثانية، د.فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط١، ١٩٩١.
- ٦٥ - معترك الاقتران في إعجاز القرآن، السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
- ٦٦ - مغني اللبيب، ابن هشام، دار الفكر، بيروت، ط٦، ١٩٨٥.
- ٦٧ - المقدمة، ابن خلدون، دار الكتاب، بيروت، ط٢، ١٩٦٧.
- ٦٨ - الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي، د.شلتاغ عبود شراد، دار المعرفة، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
- ٦٩ - مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، د.ط، د.ت.
- ٧٠ - من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٥٠.
- ٧١ - نظرية اللغة والجمال في النقد الأدبي، د.تامر سلوم، دار الحوار، دمشق، ط١، ١٩٨٣.
- ٧٢ - نظريات الشعر عند العرب، د.مصطفى الجوزو، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٤٠٢، ١٩٨١م.

- ٧٣ - النقد الأدبي في كتب التفسير، أحمد الشيخ علي، رسالة ماجستير، مخطوطة، جامعة الكوفة، العراق، ١٩٩٨.
- ٧٤ - النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ط، ١٩٧٧.
- ٧٥ - النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته، د. أحمد كمال زكي، الهيئة المصرية، العامة للكتاب، القاهرة، ط ١، ١٩٧٢.

الفهرس

الإهداء	٥
المقدمة	٧
تمهيد في المصطلح	٩
أولاً: التشابه	١١
ثانياً: التفنن والتنوع	١٣
ثالثاً: التصريف	١٥
رابعاً: التكرار	١٧
الفصل الأول: ضوابط فهم التشابه في أسلوب القرآن الكريم	٢١
تمهيد	٢١
أولاً: التناسب المعنوي	٢٥
ثانياً: التناسب اللفظي	٣٠
ثالثاً: الإيقاع	٣٤
رابعاً: نوع المخاطب ومصدر الخطاب	٣٩
خامساً: وحدة السورة ووحدة القصة	٤٢
سادساً: التدرج في الخلق والوجود والزمن	٤٤
خاتمة	٤٦
الفصل الثاني: التشابه في الأفعال	٤٩
أولاً: بين الفعل والاسم	٤٩
ثانياً: تنوع الفعل	٥٦
ثالثاً: صيغة الفعل	٦٨
رابعاً: زمن الفعل	٧٧

٨٤	الفصل الثالث: التشابه في التقديم والتأخير
٨٤	تمهيد
٨٦	ركنا الإسناد
٨٧	المتعلقات
٩٢	أولاً: العطف بين الجمل
٩٦	ثانياً: عطفُ الأسماء
٩٦	اللهو واللعب
٩٨	الأب والأخ والابن
١٠٠	اليوم الآخر والملائكة
١٠١	الأموال والأنفس
١٠٢	الجن والإنس
١٠٣	الليل والنهار
١٠٤	الشمس والقمر
١٠٥	السماءات والأرض
١٠٦	الضرُّ والنفع
١٠٧	موسى وهارون
١٠٨	صور أخرى من التقديم
١١٠	الفصل الرابع: التشابه في أسلوب العطف
١١٠	تمهيد
١١١	أولاً: عطف المفردات
١٢٠	ثانياً: الفصل
١٢٧	ثالثاً: الوصل
١٣٩	الفصل الخامس: التشابه في الفواصل
١٣٩	تمهيد
١٤٢	صور من الفواصل

أولاً: اختلاف الآيتين واختلاف فاصلتيهما	١٤٢
ثانياً: اختلاف الآيتين وتشابه فاصلتيهما	١٤٦
ثالثاً: تشابه الفكرة واختلاف الفاصلة	١٦٠
رابعاً: تشابه الفكرة وتشابه الفاصلة	١٧١
الخاتمة	١٧٥
الفصل السادس: بلاغة الضمائر في إطار التشابه	١٧٦
تمهيد	١٧٦
أولاً: الإظهار والإضمار والعدول من أحدهما إلى الآخر ..	١٧٧
ثانياً: إيهام الضمير	١٨٥
ثالثاً: تأكيد الضمير	١٩٥
الفصل السابع: بلاغة حروف الجر في إطار التشابه	٢٠٠
تمهيد	٢٠٠
أولاً: الذكر والحذف البلاغيان	٢٠١
ثانياً: حروف الجر الزائدة بالاصطلاح النحوي	٢١٤
ثالثاً: العدول من حرف جر إلى آخر	٢١٨
بين اللام وإلى	٢٢٠
بين اللام وعلى	٢٢١
بين الباء واللام	٢٢٢
بين إلى وعلى	٢٢٤
بين عن ومن	٢٢٥
الفصل الثامن: الطباق البياني في القرآن الكريم	٢٢٧
مقدمة	٢٢٧
تعريف الطباق	٢٢٨
بلاغة الطباق وأهميته	٢٣١
الطباق في القرآن	٢٣٤

٢٣٥	الطباق في إطار التصوير القرآني
٢٤١	أمثال القرآن بين التضاد والتصوير
٢٤٧	رسم المشاهد والطباق البياني
٢٥٠	التضاد الخفي
٢٥٤	الخاتمة
٢٥٦	الفصل التاسع: الدلالة النفسية للصورة القرآنية
٢٥٦	تمهيد: الأسلوب الأدبي والنفس الإنسانية
٢٥٨	الصورة القرآنية والنفس الإنسانية
٢٦١	نماذج من الصور القرآنية
٢٦١	أولاً: التخويف والترعيب
٢٧٥	ثانياً: الإبهاج والتعجيب
٢٧٧	ثالثاً: التكرير والتنفير
٢٨١	رابعاً: النمطية والتكرار
٢٨٥	خامساً: خلاصة في الطوابع العامة
٢٨٧	المصادر والمراجع

كتب للمؤلف

أولاً: المنشورة

- ١ - حركة الشعر الحر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥.
- ٢ - أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، دار المعرفة، دمشق، ط١، ١٩٨٧.
- أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، عصمي للنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٩.
- ٣ - الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي، دار المعرفة، دمشق، ط١، ١٩٩٢.
- الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي، عصمي للنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٩.
- ٤ - الاعجاز القرآني اسلوباً ومضموناً، دار المرتضى، بيروت، ١٩٩٣.
- ٥ - الأدب والصراع الحضاري، دار المعرفة دمشق، ١٩٩٥.
- ٦ - العربية لغير المتخصصين، خمسة أجزاء (بالاشتراك)، جامعة سبها، ١٩٩٦.
- ٧ - مدخل إلى النقد الأدبي، دار مجدلاوي، عمان، ١٩٩٨.
- ٨ - تطور الشعر العربي الحديث، دار مجدلاوي، عمان، ١٩٩٨.
- ٩ - في عوالم القرآن، دار المعرفة، دمشق، ١٩٩٩.

ثانياً: المخطوطة

- ١ - مصطفى النماري، شاعر الجزائر الكبير.
- ٢ - منهج البحث الأدبي واللغوي (بالاشتراك).
- ٣ - الصحيفة السجادية (دراسة تراثية).
- ٤ - الثقافة العربية بين التأصيل والتغريب.
- ٥ - على خطى الأنبياء (جزءان).
- ٦ - دراسات في الشعر العربي الحديث.
- ٧ - ديوان شعر.